مهرجان القراءة للجميع ٢٠٠١ مكتبة الأسرة

سليمان جودة

أول وآخر مرة

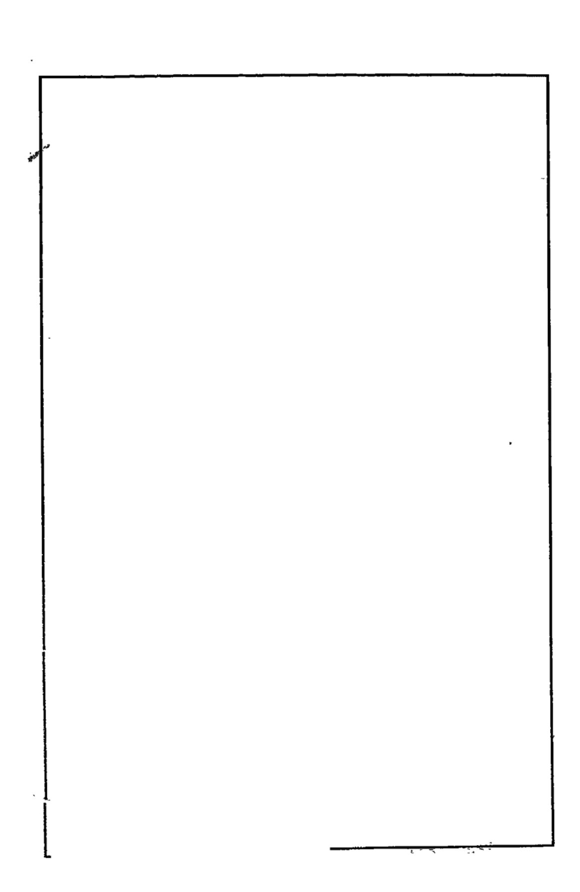
(لوحات ساخرة عن الواقع الحى)

الأعمال الخاصة





الهيئة المصرية العامة للكتاب



لوحة الغلاف

اسم العمل الفنى :

التقنية : ألوان مائية وحبر صينى

المقاس : ٢٥ × ٣٢ سم

حجازى

فنان مصرى عبقرى، اختار فن الكاريكاتير وسيلة للتعبير، فشكل ومجموعة رفاقه صلاح جاهين وإيهاب شاكر، وبهجت عثمان، وصلا الليثى، شكلوا مدرسة خاصة في الكاريكاتير المصرى. فقد كان فنان الكاريكاتير أيام الاستعمار يخشى سطوة الرقابة وبطش المستعمر، فلجأ إلى حيلة بسيطة، وهى رسم الشخصيات البديلة، خوفا من مواجهة الشخصيات الحقيقية، واستمر هذا الأسلوب حتى الآن، فعرفنا شخصية المصرى أفندى، ورفيعة هانم، وعباس العرسه، وعبده مشتاق، وكمبورة وآخرين بعيدا عن التعرض للواقع المباشر، وهذه هى مدرسة (التنفيس)، الضحك فيها لا يعنى بالموقف، أما المدرسة الأخرى، فتلجأ للمواجهة المباشرة، وهى مدرسة (التحفيز)، الضحك فيها عاليا لكنه ضحك كالبكاء، وشر البلية ما يضحك، ومن أهم رواد هذا الاتجاه الفنان حجازى، الذى أطلق عليه: (سيد درويش الكاريكاتير والنكتة المصرية): إنه طلقة ضد الفساد، يحارب بلا مواربة ولا مداهنة ولاخداع.

محمود الهندى

أول وآخر مرة

لوحات ساخرة عن الواقع الحى

سليمان جودة



مهرجان القراءة للجميع ٢٠٠١

مكتبة الأسرة

برعاية السيدة سوزان مبارك

(الأعمال الخاصة)

أول وآخر مرة ..

لوحات ساخرة عن الواقع الحى

سليمان جودة

الغلاف

والإشراف الفنى:

الفنان : محمود الهندى

المشرف العام :

د. سمير سرحان

الجهات المشاركة :

جمعية الرعاية المتكاملة المركزية

وزارة الثقافة

وزارة الإعلام

وزارة التربية والتعليم

وزارة الإدارة المحلية

وزارة الشباب

التنفيذ : هيئة الكتاب

على سبيل التقديم :

كان الكتاب وسيظل حلم كل راغب فى المعرفة واقتناؤه غاية كل متشوق للثقافة مدرك لأهميتها فى تشكيل الوجدان والروح والفكر، هكذا كان حلم صاحبة فكرة القراءة للجميع ووليدها «مكتبة الأسرة» السيدة سوزان مبارك التى لم تبخل بوقت أو جهد فى سبيل إثراء الحياة الثقافية والاجتماعية لمواطنيها.. جاهدت وقادت حملة تنوير جديدة واستطاعت أن توفر لشباب مصر كتاباً جاداً وبسعر فى متناول الجميع ليشبع نهمه للمعرفة دون عناء مادى وعلى مدى السنوات السبع الماضية نجحت مكتبة الأسرة أن تتربع فى صدارة البيت المصرى بثراء إصداراتها المعرفية المتنوعة فى مختلف فروع المعرفة الإنسانية.. وهناك الآن أكثر من ٢٠٠٠ عنواناً وما يربو على الأربعين مليون نسخة كتاب بين أيادى أفراد الأسرة المصرية أطفالاً وشباباً وشيوخاً تتوجها موسوعة «مصر القديمة» للعالم الأثرى الكبير سليم حسن (١٨ جزء) . وتنضم إليها هذا العام موسوعة «قصة الحضارة» فى (٢٠ جزء) .. مع السلاسل المعتادة لمكتبة الأسرة لترفع وتوسع من موقع الكتاب فى البيت المصرى تنهل منه الأسرة المصرية زاداً ثقافياً باقياً على مر الزمن وسلاحاً فى عصر المعلومات.

د. سمير سرحان

أول الكلام

فى وقت من الأوقات ، رحت أقرأ فى تاريخ العرب .. تاريخنا .. على امتداد ١٤ قرناً مع الإسلام ، وقبل ذلك بقرون طويلة . وكنت أمضى فى القراءة ، وأنقب هنا ، وأتوقف هناك ، ثم أتساءل هنا وهناك معاً .. وكان الهدف ، فى كل الأوقات ، أن أقع على جواب لسؤال واحد: هل كان العرب ، ومعهم المسلمون ، على هذا النحو البادى عليهم، حالياً ، من الضعف ، والهوان ، وقلة الحيلة ؟!

وبمعنى آخر : ما الذى أوصلنا إلى ما صرنا عليه ، الآن . ولماذا أصبحنا مطمعاً سهلاً ، ونهباً متاحاً وأرضاً مستباحة ، لكل طامع .. أو طامح .. لا فرق؟!

بالطبع ، ليس من الممكن أن يصل الواحد إلى جواب ، على هذا السؤال ، فى كتاب كهذا ، ولا حتى فى عشرة كتب غيره .. فهو سؤال كبير، ومعقد ، ويحمل فى طياته العشرات من التساؤلات الأخرى ، التى يتعين علينا ، أن تصل إلى جواب شاف عليها ، قبل أن نصل إلى حل ، مع هذا السؤال الكبير.. العويص!

ولذلك ، كنت كلما قضيت في القراءة ، وفي الكتابة بعدها ، عما رأيته ، ووجدته ، وعرفته ، كنت كلما فعلت ذلك ، إزداد السؤال التباساً، وتعقيداً ، وصعوبة ، وراح يقذف ، من داخله بتساؤلات وأسئلة أخرى ، ليست أقل منه خطراً ولا أثراً.

واستغرقت محاولات الجواب ، على هذا السؤال .. من جانبي أكثر من أربع سنوات كاملة، كنت أقرأ فيها بالليل ، ثم أكتب - يومياً - ما أتصور أني قد وصلت إليه .. بالنهار .. وكنت أنشر ذلك ، في مقال يومي ، في الوفد ، وكان عنوانه جذاباً ، ومثيراً ، ومغرياً معاً.

كان العنوان : حكاية !

وكأني كنت أريد أن أقول وقتها أن السؤال ، في حد ذاته ، حكاية كبيرة ، وخطيرة ، وممتدة ، وموحية وفيها الكثير من الأماني والمعاني!

وكنت كل يوم أحاول.

أحاول أن أقرأ

وأحاول أن أكتب

وأحاول في كل مرة، أنه أجيب!

وإلى اليوم، أقرأ، وأكتب، وأجيب.. وكلها محاولات.. وسوف تظل.

ولا أحد بيننا يستطيع أن يقطع بشيء، إلا أنه، في كل الأحوال، يحاول.. مرة يخيب، وأخرى يصيب.

وهذه هى بعض محاولاتى، التى كنت فيها صادقًا، أو حاولت أن أكون ذلك .. قدر الإمكان!

وسوف نلاحظ، أنى أسوق المعنى الذى أريده دائمًا، فى شكل حكاية، وأن المعنى الذى أريده، يأتى أول الكلام، أو فى الوسط منه، أو فى آخر حرف منه، ولكنه دائمًا يأتى، مباشراً، وغير مباشر مرات.. يشير إلى الهدف، من بعيد مرة، ومن قريب مرة أخرى.. ولكنه فى كل الأحوال يأتى، وفى كل الأحوال يشير.. قدر الإمكان.

وقد تجد أنى أعود إلى الواقعة نفسها أكثر من مرة، أدور وألف حولها، وأنظر إليها من اليمين يوماً، ومن الشمال يوماً آخر، وسوف تجد أنى، فى كل مرة أشير إلى شىء جديد.. معنى جديد.. زاوية جديدة، فى واقعة واحدة.. قد نراها جميعاً، ونسمع بها، ثم نمر بها عابرين.

ولا يزال المعنى الذى تشير إليه حكاية الفيل والعميان صالحًا، وقائمًا، وجائزاً فى كل عصر.. لقد سألوهم أن يصفوا الفيل، بعد أن لمسوه جميعًا.. ولما بدأوا يصفونه.. كان كل واحد يصف شيئاً، غير الذى يصفه الآخر، مع أنهم يتحدثون - المفروض - عن شىء واحد، وعن كيان واحد، وعن حيوان واحد.. هو الفيل...

ولكنهم لم يكونوا - فى اختلافهم مخطئين فكل واحد كان يصف الذى رآه، أو الجزء الذى لمسه، ووقعت عليه يداه، وتحسسته أصابعه..

كان كل واحد يصف الحقيقة، ويومئ إليها، كما رآها، وكما يتصورها، وكما يتخيلها وكما يحسها لا كما رآه، ولا تصورها.. ولا تخيلها الآخرون..

وكانوا كلهم صادقين..

كانوا يقولون .. ويصفون ويروون قدر الرؤية التى أتيحت لهم .. وقدر الإمكان.

وليس من الضرورى أن تكون الرؤية بالعين .. فهناك رؤيا أخرى ، تكون بغير العين ... بالقلب ، بالبصيرة ، بالحدس كما يقول أهل الفلسفة.. أو حتى بالفطرة ..

إنها رؤيا ، وفى الغالب تكون أبعد ، وأعمق ، وأكثر نفاذاً ووصولاً ، وتعبيراً.

وكلنا نحاول ذلك ، فى كل وقت .. وقدر الإمكان . فاحتكار الحقيقة، أو الوصول إليها ، أو معرفتها ، أو حتى شم رائحتها .. لم يكن مقصوراً على أحد ، فى أى وقت.

كلنا نحاول .. قد الإمكان

وهذه محاولة أولى!

القاهرة فى أول يوليو ٢٠٠١م

وفوق الدموع .. دموع

يبدو أن هارون الرشيد ، قد ندم طويلاً ، حتى دمعت عيناه ، وجف ماؤها من طول البكاء ، على ما فعل مع البرامكة ، حين استأصلهم من جذورهم ، وانتقم من يحيى وخالد البرمكى انتقاماً شديداً.

وهناك شيئان ، كان الرشيد يتاسى بهما ، هول ما فعل ، ويجد فيهما بعض النسيان : الشعر . . والدموع.

وقيل أنه بعد أن ولى عهد البرامكة ، كان يحضر بعض جواريهم بين يديه ، ويطلب منهن أن يغنين ، ويصفن ما كان من أمره مع قومهم شعرا ، حتى وقفت إحداهن يوماً لتقول ، وآخر دمعة فى عينيها قد فارقت حدقتها :

فظللت أبكيهم طوراً وأندبهم

حتى إنثنيت وما فى مقلتى ماء!

وكان الرشيد يزيد على دموعها ، دموعاً أخرى ، ويبكى اليوم الذى سمع فيه كلام امرأته زبيدة ، واعتقد خطأ أن البرامكة يدبرون للاستيلاء على دولته.

وكما نقول فى أمثالنا الشعبية ، أن طول الأسى يعلم البكا ، فإن طول عهد الرشيد بالحزن ، على ما فعل ، جعل منه شاعراً ، يصف ما كان فى كلمات منظومة وموزونة ، ولها معنى.

والحكاية أن رجلاً اسمه أبو طاهر ، مر يوماً على ديار البرامكة ، وامتد بصره فوقها حتى نهاية الأفق ، فلم يقع على شئ إلا الخرائب ، ومن بينها ينبعث نعيق البوم ، ونواح بعض الطيور التى كانت تجد ما تحب بين أهل تلك الديار.

وحين وصل الرجل إلى دار كبير البرامكة ، وهو يحيى البرمكى ، هاجت نفسه ولم يدر ماذا يقول ، حتى ضبط لسانه وهو يلهج ببيتين من الشعر ، فيهما كل ما أراد :

يا منزلاً لعب الزمان بأهله

طوراً يفرقهم وطوراً يجمع

أين الذين عهدتهم بك مرة

كان الزمان بهم يضر وينفع

ولم يشأ الرجل أن تكون عبرته ، وعبراته ، أى دموعه ، له وحده ، وإنما أحب أن يصادفها آخرون وأن يستفيدوا أو يعتبروا مما كان ، فقام وحفر بيتيه على لوح من الطين ، ثم علقه على أول ديار البرامكة ، ومضى إلى حال سبيله ، يرددهما ودموعه تنسال على خديه.

وقد عرفنا فيما بعد ، أن فتاة من البرامكة كان الرجل قد أحبها ، وأنه حين قال بأن الزمان كان ينفع بأصحاب تلك الديار ، ويضر فى أن واحد ، فإنه كان يعبر عن ساعات الوصل ثم الهجز التى كانت بينه وبين فتاته ، ولكنه جعل العام فى الخاص ، كما يقول أهل البلاغة ، ووجد فى نكبته هو ، نكبة عامة أيضاً.

ليس هذا فقط ، وإنما يبدو أنه كان على علم بأن الرشيد ، من وقت لأخر ، يتسلل إلى تلك الديار ، ويأسى طويلاً على ما بدر منه دون روية ، ولذلك أراد أبو طاهر ، أن يغسل الرشيد بعض خطاياه بالدموع والكلمات.

وهو ما حدث فعلاً ، حين مر الرشيد متخفياً ، فتوقف أمام أشعار صاحبنا ، وظل يقرأها ، ويعيدها ، حتى جادت قريحته ببيت واحد ، كشف عن أسفه العميق ، ومأساته التى لا حد لها ، فى فقدان البرامكة.

إذ يقال أنه هو الذى وضع بيتا ثالثا ، فوق البيتين اللذين ثبتهما أبو طاهر ، وكان بيته هو :

ذهب الذين يعاش فى أكتافهم

وبقى الذين حياتهم لا تنفع

أرأيت إقراراً بالجرم ، واعترافا بالذنب ، وبوحاً بالحزن ، أبلغ من كلمات الرشيد ؟!

ولا تعرف ما الذى كان سيفعله ، لو لم تسعفه الأشعار والدموع ؟!

إلا .. حب ليلى!

عشنا حتى رأينا المجنون وهو يتوب.

وكما كان فى حياته وعشقه فريداً ، غير مسبوق ، فقد كانت توبته كذلك على ذات المستوى.

ومن الممكن أن يسأل سائل : ومن هو المجنون؟

عندئذ سوف لا يكون عند السائل ، فى سؤاله هذا حق أبداً ، لأنه يصبح كمن يسمع ـ الآن ـ لقب أمير الشعراء ، أو سيدة الغناء العربى ، ثم يستفسر عن الأسماء التى تحمل مثل هذه الألقاب.

ومن العجيب أنه رغم كثرة المجانين ، على طول التاريخ ، إلا أن واحداً فقط هو الذى حمل اللقب وارتبط به ارتباطاً وثيقا ، إلى الحد الذى إذا قيل معه : المجنون . .ثم سكت المتحدث ، كان مفهوماً أن المقصود هو واحد فقط على وجه التحديد ، وليس غيره : قيس بن الملوح.

ورغم أن هناك قيساً آخر ، كان حبه لفتاته لبنى ، أعنف وأقوى ، وفضائحه كانت أكثر شيوعاً وانتشاراً ، وهو قيس بن ذريح ، إلا أن ابن الملوح قد ذهب بالجنون كله ، وترك العقل لبقية المحبين!

والأمر هنا ، كما تقول : المقتول . . ثم تسكت أيضاً عندئذ من الواجب على السامع أن يفطن فوراً ، إلى أنك تقصد واحداً فقط ، هو الذى صار مقتولاً على امتداد التاريخ: السهر وردى ، ذلك المتصوف الشهير ، الذى زاد تصوفه ، أو بمعنى أدق كلامه عن تصوفه ، إلى حد لم يحتمله عامة الناس ، ولا السلطان كذلك ، فانقضوا عليه وقتلوه ، كما قتلوا أخا له من قبل هو الحلاج . . ولكن اللقب ارتبط به وحده!

والمهم . . حين نعود إلى المجنون ، هو أن نفهم أن جنونه لم يكن من النوع الذى يدفع بصاحبه إلى المصحات العقلية أو النفسية ، بعد أن يلفوه بالقميص الأبيض الشهير.

كان جنونه بليلى ، نوعاً من التعلق الزائد عن الحد ، والذى يمتلك على الرجل عقله كله ، فلا يدع له فرصة واحدة ، كى يفكر فى معنى الذى يفعله ويمضى فيه .. وكيف أنه عبث فى عبث !

ولا نزال حتى اليوم ، إذا وصفوا لنا واحداً متعلقاً بشئ أو بشخص إلى درجة الهوس، قلنا : مجنون ، حتى نريح ونستريح!

والمجنون ، حين أحس أنه لم يعد فى العمر بقية ، أو أن ما بقى منه ليس بقدر ما مضى ، قرر أن يتوب !!

عن كل شئ فعله فى دنياه . . إلا حب ليلى.

فكأن حب ليلى جريمة تستدعى التطهر والتوبة ، إلا أنه رأى بكامل قواه العقلية - وهو المجنون - إن يموت على ذنبه القديم !

طاف المجنون حول الكعبة ، ومضى يتأمل الساعين والطائفين ، ويردد معهم ما يقولون ، ويسمع لدعاء واحد ، ونحيب أخر ، ثم اختلى بنفسه في ركن بعيد ، ورفع يديه إلى السماء ، وقال ودموعه تسبقه :

أتوب إليك يا رباه مما

جنيت فقد تكاثرت الذنوب

فأما من هوى ليلى وحبى

زيارتها فأنى لا أتوب !!

ولم يكن المجنون المسكين ، يدرى أن ما يقوله ليس إلا تحصيل حاصل ، وإن الشطرين الأخيرين من كلامه ، ينفيان تماماً ما جاء فى الشطرين السابقين عليهما ، فليس فى حياته شئ يتوب عنه ، أن كان قد قرر فعلاً أن يتوب . . إلا حبه وجنونه بليلى.

وبما أنه قد أراد أن يتوب عن كل شئ ولا يتوب عما يستأهل التوبة فعلاً ، فإن الحاصل فى هذه الحالة ، وبالعقل والمنطق يساوى صفراً!

وغادر الكعبة ، وفى ذهنه أنه قد تاب حقاً ، وأنه قد اغتسل من كل ذنوبه ، وعاد كيوم ولدته أمه ، والحق أنه قد عاد كما ذهب ، وليست توبته إلا خدعة تضاف إلى الخدع القديمة.

ولك أن تتصوره بعد عودته ، ووفود المهنئين تتوالى إلي بيته ، ليتقدم كل واحد ، يشد على يديه ، ويبارك له ثم يقول : حج مبرور وذنب .. غير مغفور!!

لا ماء..ولا شجر!

مفارقة عجيبة ، بين فارس وشاعر ، كان لهما مع عمر بن الخطاب شأن عظيم.

والفارس ، الذى لم يكن يخلو من الشعر ، هو أبو محجن الثقفى ، الذى لم يكن أحب إلى قلبه ، من خوض المعارك ، فقد كان يطرب كثيراً لسماع صليل السيوف ، وهى تحصد الخصوم وتقطف الرؤوس.

والشاعر ، لابد أنك تعرفه ، وهو الحطيئة ، الذى خلق الله بين فكيه لسانا ، جعله سوطاً يضرب به وجوه وظهور الناس فى غير رحمة.

وكان بإمكان الأول ، أن يصير فارساً بغير منافس ، وأن تذيع شهرته أكثر وأكثر ، لولا أن الخمر قد أفسدته ، ولم يكن هناك بد من سجنه حتى يقلع عن إدمانها.

ومن طول حبه للقتال ، وعشقه للحياة فى ميادين النزال ، تسلل من حبسه ، ولحق بجيش المسلمين فى معركة القادسية ، لولا أن سعد بن أبى وقاص ، قد عرف أصل حكايته . فأعاده إلى السجن مرة أخرى.

وكان الشرط الذى وضعه عمر للإفراج عنه ، هو أن يكف عن الخمر ، أو أن يتعهد بذلك.

وكان ذلك ، فيما يبدو شيئاً ثقيلاً على نفسه ، فقد لبث فترة طويلة فى حبسه ، ينعى حظه أن يكون قعيداً فى زنزانته ، بينما رفاقه يتنافسون فى أرض القتال.

ولم يكن الحطيئة ، بلسانه ، بعيداً عن الثقفى إذا ما شرب ، وذهب عقله وراح يخلط فى الحديث ، ويحدث الرجل على أنه امرأة . . أو العكس.

بل ربما كان الحطيئة أرحم ، لأنه كان يسب أعداءه ، أو حتى غير أعدائه، وعقله فى رأسه ، يعرف ماذا يقول ، وإن كان ما يقوله لا يليق.. المهم أنه منتبه إلى نفسه.

ويمكن القول ، أن الإفراج عن الحطيئة ، قد جرى لأسباب إنسانية ، وأنه قدم ما يشبه التظلم إلى عمر بن الخطاب ، وقال أن أولاده لا يزالون صغارا ، كالعصافير التى هى زغب الحواصل ، وأنها فى حاجة لرعايته . . فلا ماء عندها .. ولا شجر.

ولم يكن ذلك كافياً للإفراج عنه ، وإنما كان عمر قد أنذره من قبل ، بأنه سوف يقطع لسانه ـ فعلاً ـ إذا لم يكف عن هجاء الناس ، والخوض فى أعراضهم ، طلباً للمال ، وابتزازاً للأثرياء منهم.

وقد أطلق عمر سراحه ، وجعل الحكم الصادر عليه ، سارياً مع وقف التنفيذ ، بمعنى أن أية جريمة أخرى ، سواء كانت من ذات النوع الأول - السب والهجاء - أو من غيره ، كفيلة بعودته مرة أخرى ، يستأنف تنفيذ حكمين معاً : القديم والجديد.

وحين أحس الحطيئة ، بالجد فى كلام عمر ، قرر بينه وبين نفسه،أن يشترى راحته ، وأن يجعل توبته عما أدمنه إلى أجل مسمى.. وهو رحيل عمر.

ولكن الثقفى ، لأنه رجل فارس ، فقد حسبها بينه وبين نفسه أيضاً ، وأراد أن يجعل من محنته انعطافه كبرى فى حياته ، وأن تكون هذه المرة ، هى أخر عهده فعلاً ، بالسجن والخمر معاً ، فكتب إقراراً بذلك ، فى بيت من الشعر ، وأرسله إلى سعد ، ومنه إلى عمر، يعاهدهما فيه ، أنه لن يعاود الشرب مرة أخرى أبداً.

وارفق بإقرار توبته ، إقرارا آخر ، يشهد فيه بأنه لم يحزن فى حياته قط ، قدر حزنه على أنه قد فاتته القادسية ، وأنه من العار على فارس مثله ، أن تلتقى الخيل بالقنا ويمكث هو مشدودا فى قيوده . . وأنه كان يود أن يمضى بين رفاقه ، من الفرسان.

ولكن . . تبين فيما بعد ، أن توبة الثقفى كانت صادقة ، بدليل أنه لم يدخل الحانات بعدها أبداً . أما الحطيئة فكان مخادعاً ، وكانت توبته خدعة وأكذوبة.

ولكن السجن الذى جعل الثقفى يقلع عن الخمر ، لم يفلح فى دفع الحطيئة لنسيان الشعر ، فقد مضت موهبته ، بعد رحيل عمر ، تتدفق فى ذات الإتجاه!!

وكان بينهما ما كان !

هذه المرة ، كان الطلاق جاداً ، وكان الزوج يقصده ، ولم يكن يهزل ، كما فعل من قبل رجل آخر ، فطلق امرأته ثلاثاً ، لأن أغنامه كانت ترعى الجثجات وهو نبات ينمو في الصحراء ، يشبه الصبار وتتغذى عليه الحيوانات.

أما الرجل الذى أضاع امرأته ، فى سبيل الجثجات ، فقد تأمل دوابه وهو ترعى ، وامرأته وهى قادمة إليه بالطعام ، وراح يتنقل ببصره بين الأغنام تارة ، وبين أم عمرو امرأته تارة أخرى ، وأدار فى فمه - سراً - جملة أعجبته ، وعبارة رأى أن لها رنيناً ومعنى ، رغم أن فيها خراب بيته ، فلم يخجل ، وفاجأ بها أم عمرو :

أغنامى تأكل الجثجاثا

وأم عمرو طالقاً ثلاثاً!

وكان بينهما ما كان !

وأما الذى كان طلاقه جاداً ، ويمينه الذى ألقاه على امرأته قاطعاً ، لا رجعة فيه ، فهو هارون الرشيد . . الخليفة العظيم . .

وامرأته ، هى زبيدة ، أم الأمين ، وصاحبة العقل والصيت فى الجمال والذكاء معاً .

ولا ندرى هل كان هارون ، يقيس قدرتها على تحمل يمين لطلاق ، ويريد أن يرى أن كانت ستطيعه وتخضع لما يرى ، أم تتمرد وتثور . . أم أنه كان يود أن يختبر علماء عصره ، وفقهاء ذلك الزمان .

أن علاقتهما ، هارون وزبيدة ، لم يعرف عنها أحد ، أنها كانت واهية ، أو أن الدسائس والمؤمرات يمكن أن تنال منها ، فهى التى لفتت انتباهه إلى البرامكة ، وخطرهم المحتمل .. وبقية القصة نعرفها .

المهم ، أن هارون قد فاجأها ، فقال ما معناه ، أنها طالق ثلاثاً ن إذا باتت فى مملكته . . كلام واضح ، ومعنى لا خلط فيه ، ولابد من الطلاق ..

وكان عليها أن تلملم حاجاتها ، وأن ترحل عن مملكته .

ومملكة الرشيد ، تمتد ما امتدت حدود الدولة الإسلامية ، أيام الخلافة العباسية ، وهى فى قوتها .

وإذا استحضرنا العبارة التى كان هارون ، يخاطب بها السحاب العابر ، من شرفة قصره ، فأننا يمكن أن نتصور استحالة حل تلك المشكلة ، إلا بأن يتم الطلاق علناً ، وفعلاً ، وإن تتزوج زبيدة رجلاً آخر ثم يطلقها إن أرادت أن تعود إلى الرشيد مرة أخرى . . فيما بعد .

ولأنها امـرأة الرشيـد ، أولاً ، وزبيدة بجـلالة قـدرها ، ثانيـاً ، وأم الأمين ثالثاً.. إلى آخره ، فقد كان لابد من البحث عن حل.

ولما سألوا العلماء ورجال الدين ، أجابوا بأنه لا مفـر ، وأن الطلاق نافذ ، لأن الذى ألقاه جعله ثلاثاً.

وكان من السهل ، على هارون الرشيد ، إذا أراد أن يقع على واحد من رجال الدين ، يجد له مخرجاً شرعياً ومعقولاً ، أو حتى غير ذلك .. فالذين فعلوا ذلك ، قبل الرشيد وبعده ، كثيرون.

ولكن الرشيد ، حين سألوه عما إذا كان يقبل الحل الوسط ، الذى لا يتنافى مع أحكام الدين ، بشأن الطلاق ، قال أنه لا يمانع ، بشرط أن يكون الحل فهما أعمق للدين ، وفقها من جانب صاحبه - صحب الحل - وليس احتيالاً من اليسير على أى إنسان أن يأتيه.

ولم يكن لهـا ، إلا أبو يوسف ، القـاضى المعـروف والذى أكـرمـه هارون بما فعل ، فجعله قاضياً عاماً.

قال أبو يوسف أنه ليس على زبيدة ، إلا أن تبيت فى أى مسجد . . لها أن تختار أقرب المساجد إليها ، وتقضى فيه ليلتها ، فلا يكون طلاق ولا يحزنون . . ولا يكون على الرشيد حرج !!

والمعنى طبعاً ، أن المساجد ، كما أفتى الرجل - عن فقه وعلم - بيوت الله فى الأرض ، بنص القرآن الكريم ، واستنتاجاً كما يقول أهل المنطق ، تخرج المساجد من بين مملكة الرشيد ، ولا يجرى عليها ما يمضى على غيرها من البيوت العادية.

وهذا هو الفرق بين الجد ، والهزل ، وبين العقل واللاعقل!

ربما لا يعود !

حين ذهبت أفتش فى باطن التاريخ ، عن رجل مثل المتنبى ، صدق فعله قوله ولو مرة واحدة ، وقعت على رجل لا يذكر أحد اسمه ، وليس ناراً على علم كما هو الحال مع شاعرنا الكبير ، المتنبى ، غير أنه ، على كل حال ، كاد يهلك لأنه صادق مع نفسه ، فانكتبت له النجاة !

وأنت قد تعزم على شئ ما فى حياتك ، أسلوباً للعمل ، وتمضى عليه لا تحيد ، حتى تلقى بك الأقدار أمام واحد من أضعف خلق الله ، فيدفعك لأن تعيد النظر تماماً ، فيما كنت قد استرحت إليه .

والنعمان بن المنذر ، ملك من ملوك العرب المعروفين ، القدامى ، الذين كانت لهم شنة ورنة ، كما يقول عامة الناس . وهو رجل كانت عنده عادة عجيبة جداً ، لا تدرى هل هى حقيقة فعلاً ، أم أنها بعض

من خيال ، أضافه إليه وعلى سيرته الرواه ، وهم يزوون عنه ويكتبون ما كان!

والمهم أنه قيل عنه ، أنه قد جعل فى كل أسبوع يومين ، أحدهما يوم شؤم ، إذا لقى فيه أحداً فى الطريق ، قتله فى الحال ، والآخر يوم تفاؤل ، إذا ما قابل فيه أى بنى آدم ، أغدق عليه من فضل الله.

وقد عرف عنه رعاياه ذلك ، فالتزموا جميعاً بتجنب الخروج فى يوم الشؤم ثم الانتشار على كل طريق فى اليوم الآخر، عسى أن تصادفهم ساعة حظ ، وتنفتح لهم طاقة القدر ، فيطلع عليهم الملك ، أو على أحدهم ، ويهبه ما يشاء!

ولم يكن من عادة النعمان ، بطبيعة الحال ، أن يقع بصره على إنسان ، فى يوم الشؤم ، فالجميع يعرفون ذلك ولا يلقون بأنفسهم إلى التهلكة ، كما أنه ليس هناك أدنى مبرر للمخاطرة بتجاوز عتبة البيت فى ذلك اليوم .. الشؤم.

لذلك كانت دهشة النعمان بغير حد ، حين صادف فى يوم شؤمه ، رجلاً يمشى مطمئناً ، غير مبال بالملك ، حتى وهو بين يديه!

ولم يكن أمام النعمان ، إلا أن يسأل صاحبنا عن هذه الجرأة التى واتته ، وعن نفسه التى حدثته بالسوء ، فجعلته يغامر وهو يعرف عاقبة ذلك.

ولكن الرجل أجاب وهو أكثر اطمئناناً ، بأنه لم يغامر ، ولا يحزنون، وأنما هو على وعد مع آخر ، ولم يشأ أن يخلف وعده وأراد أن يكون صادقاً مع من ضرب له موعداً للقاء!

ولما أفهمه النعمان ، أن الكل يعرف ، أن الموت هو مصير من يخرج فى يوم الشؤم، لم ينكر الرجل ، وأنما طلب مهلة يذهب للقاء صاحبه ، ثم يعود ليفعل به النعمان ما يشاء.

وقد بدت على وجه النعمان بوادر عدم الاطمئنان ، وخشى أن يكون ذلك احتيالاً من الرجل حتى يفر من بين يديه ، وليكن بعد ذلك ما يكون ، ولذلك حسم النعمان الأمر ، بأن رفض امهاله ، إلا أن يضمنه أحد الحاضرين من حاشيته ، حاشية النعمان ، فتقدم واحد وأعلن أنه كفيل بأن يضمن الرجل.

والعجيب أن الرجل قد انصرف ساعة عاد بعدها مستعداً لما يخب النعمان ، الذى استراب فى أمر الاثنين : الكفيل والرجل معاً .. كيف عاد الأخير ، وهو يدرك أنه مقتول حقاً ، وكيف ضمنه الأول وهو يعرف مسبقاً أنه ربما لا يعود؟!

غير أن الرجل أجابه ،بأنه قد تعلم من حياته كلها ، أن يكون صادقاً مع نفسه ، دون نظر للعواقب ، وأسرع الذى ضمنه يثنى عليه ، ويجزم بأنه استجاب له وهو يستجير به ، حتى لا يقال قد ذهب الكرم وأهله.

ولم تمضى لحظات ، حتى كان النعمان يهتف ، بأنه قد عفا عنهما، وأقلع عن عادته تلك العجيبة ، حتى لا يقال قد ذهب العفو!!

قصة قد تبدو ساذجة فعلاً ، ولكن لها ألف معنى!

أغلب الظن أنها كذلك !

سؤال لا يطرحه أحد على نفسه : ما رأيك فيك ؟!

هو سؤال بسيط ، كما ترى ، ولكن الجواب عليه صعب جداً ، فليس من السهل أن تفتح بابك عليك ، أمام الآخرين ، أو حتى على انفراد !

أما أبو الطيب المتنبى ، الرجل الذى أعطى نفسه حقها ، ولم ينتظر حتى يأتى الذين هم بعده ، يقولون رأيهم فيه ، ولم يشأ كذلك أن يطلب ممن عاصروه ، أن يفعلوا ذلك ، لأنهم كانوا جميعاً ، فى رأيه هو طبعاً، أقل من أن يتحملوا مهمة ثقيلة كهذه !!

أسرع أبو الطيب ، فيما يبدو ، وطرح السؤال على نفسه ، ثم أجاب ، وفى جوابه كان عجيباً ، فقد جاء بشهود يقطعون ببطولته وسمو قامته ، وشهوده لم يكونوا من بنى الأنسان ، لأنه لم يكن يطمئن إليهم ، وأن اطمأن ، فلا أحد ممن عاشوا وقتها ، يستطيع أن يجلس مستريح البال ، ويزن قدر وقيمة أبو الطيب.

شهود أبو الطيب كانوا سبعة ، كل شاهد منها كفيل بأن يصنع - على حدة - أبطالاً ليس لهم مثيل !

الشاهد الأول ، كان هو الخيل ، وقد شهدت الخيل بأن فارساً مثل أبو الطيب لم تقع عيونها عليه ، وأنه كان إذا امتطى فرسه ، وقطع طريقاً ، أو خاض حرباً ، جف الصهيل في صدر كل الخيول التي على الجانب الآخر !! وليس غريباً ، والأمر كذلك ، أن يغادر أبو الطيب ، دنيانا ، وهو يقاتل دفاعاً عن حياته ، من فوق ظهر هذا الشاهد الأول!!

والشاهد الثاني ، كان هو الليل ، الذي لم يجد صديقاً ولا رفيقاً ، كما وجد في أبو الطيب وكم ائتنس كل منهما بالآخر ، وحشرات الأرض تناجي نجوم السماء!

وكانت الصحراء هي الشاهد الثالث ، ففيها عاش أبو الطيب ، ودار من بغداد إلى دمشق إلى القاهرة ، وفي أرجائها كانت تتردد أشعاره ، وهو يجيب على السؤال هاتفاً : أنا من نظر الأعمى إلى أدبي ، وأسمعت كلماتي من به صمم !!

وأما السيف ، فقد كان هو الشاهد الرابع ، أن على يد أبو الطيب من قبضته ، قبضة السيف ، علامة لا يمحوها الزمان وهو السيف الوحيد الذي لم يعرف الصدا إلى حديه سبيلاً ، وقد كان يقطر ، كما قال حسان بن ثابت يوماً ، من النجدة دماً!

وتقدم الرمح ، ليعلن في فخر ، أنه هو الشاهد الخامس ، وأنه كم انطلق من أيدي كثيرين ، وكم طاشت سهامه ، وكم خابت قذائفه ، إلا من أبو الطيب الذي كان وكأن بينه وبين الرمح اتفاقاً غير مكتوب ، فحواه ألا يخيب سهم ، وأن يكون دائماً في مقتل.

وامتدت ورقة بيضاء ، طويلة عريضة ، عليها أبيات من أشعار أبو الطيب وفى الأبيات معان تكاد تنطق لتسأل سؤالاً واحداً ، ثم تسكن وتخمد بعد ذلك . هذا السؤال الذى حير المعانى كثيراً مع أبو الطيب هو: كيف يقتنصها هذا الرجل بسهولة هكذا ؟!

صحيح أن الأفكار ملقاة على قارعة كل طريق فى انتظار من يفتش عنها ويلتقطها ، ولكن ليس أبرع من أبو الطيب فى اصطياد المعنى الذى يريد ، وفى الوقت الذى يشاء!! وانتفض الشاهد السابع والأخير ، وكان هو القلم ، لتخرج منه قطرة مداد ، ثم تتشكل عبارة واحدة فقط ، هى ملخص شهادته : لم أهتز أبداً بين أنامل هذا الرجل . . أبو الطيب!!

فكيف يكون الجواب ، لو قام الشهود السبعة ، على مسافات متساوية من المحيط للخليج.

أغلب الظن ، أنها من القلم إلى الخيل ، ستنطق فى نفس واحد : كان رجلاً ؟!

ثم تنام إلى جانبه إلى يوم القيامة !!

فلا والله.. لا أنساك !

مكتوب فى بطاقتها : نائحة !

وهى امرأة ، كانت ولا تزال ، تدور فى المآتم ، تؤدى واجب العزاء، نيابة عن أهل الميت ، ولكن بالأجر.

والعرب من طول ما شهدوا نائحات كثيرات ، وقارنوا بين التى تنوح بالمال ، دون أن يكون بينها وبين الفقيد أدنى صلة ، وبين التى تنوح لأنه ابنها أو زوجها أو أحد أقربائها.. قد مات من طول ما عاينوا ذلك ، نحتوا مثلا صار شائعاً ، وكأنه حكمة تسعف الإنسان إذا أعجزته الكلمات!

قالوا : ليست النائحة الثكلى ، كالنائحة المستأجرة.

والأولى هى التى تمت بصلة قرابة للراحل العزيز . . أية صلة!

والثانية هى التى لا تعرفه ، ولا تريد ، ولكنها تؤدى فاصلاً طويلاً

من البكاء المر– يبدو مرا – ثم تتجه إلى مأ تم آخر تردد نفس الكلمات والعبارات ، أو حتى غيرها.

ولا بد أنها وظيفة عجيبة ، وغريبة ، لبعض النساء ؛ منذ الخنساء ، أشهر نائحة ثكلى ، وحتى أفقر امرأة في أقصى قرية مصرية أو عربية.

وقد يكون مقبولاً من امرأة في حجم الخنساء ، وهي شاعرة موهوبة، أن تبكي وتنوح على أخيها صخر فلا تكف عن البكاء حتى تدركه في قبره.

قد يكون ذلك مقبولاً منها ، لأنها أولاً شاعرة ، أي عندها حساسية شديدة في مسألة العواطف ، وثانياً لأن الذى مات هو أخوها.

كانت تقول : ولولا كثرة الباكين حولي لقتلت نفسي ..!

أو تقول : فلا والله لا أنساك حتى ألقاك ، أو يشق رمسي . . والرمس هو القبر.

وهكذا عبارات من هذا القبيل ، وأبيات من الشعر بهذا المعنى.

أما أن تأتي امرأة ، لم تسمع بمن مات من قبل ، ولا هي رأته أو جلست إليه ، ثم تصفه فيما تنوح به من كلمات بأنه عزيز و غال و فقيد إلى آخر هذه الأوصاف. . فهذا هو الشئ الذى يستحق التأمل.

وقد تسأل : التأمل لماذا ؟

وأقول أنها ـ أي النائحة ـ من الخنساء حتى اليوم ، تلحن عباراتها حين تنطق بها ، ولا تطلب من أهل الفقيد إلا اسمه فقط ، والباقي عليها!

أنها تتوسط حلقة من النساء المتشحات بالسواد ، ممن جئن ليجاملن، أو ليعـزين عن صـدق ، ثم تبـدأ فى إرسال آهات ونواحـات قـصيـرة ، خفيفة ، على سبيل التسخين لا أكثر.

وبعد دقائق ، يكاد من لا يعرفها ، يعتقد عن يقين أنها أم الميت بغير شك ، فهى التى تتحكم فى درجـة عويل وبكاء الأخـريات ، وبين الحين والآخـر تطلق الصوت الحيانى تتبعه موجة كثيفة ، وفى وقت واحـد ، من أصوات النساء الأخريات !!

وهى تحفظ عبارات جاهزة ، تستدعيها ، وتركب عليها اسم العزيز وبعض أوصافه وفضائله وكراماته !.

والذين لاحظوا أداء بعض النائحات المستأجرات ، قطعوا بأن المسألة فعلاً ، فن وموهبة!

وإلا . . فـهل تسـتطيع الآن ، أن تضـحك فـوراً ، وبصـدق ـ ظـاهرا على الأقل ـ وتضحك من حولك إلى حد البكاء ؟!

طبعاً صعب جداً ، رغم أن الضحك أسهل من البكاء بمراحل !

والذى يحـيـرك ، فى أمـر كل نائحـة ، لا أراك الله إحـداهن ، أنـها تؤدى عملها بحرقة تبدو بها ، وكأن الفقيد أخ لها لم تلده أمها!

كيف ؟ . . لا تعرف ، فلله فى خلقه شئون !

وليتنا نخلص فى العمل ، إخلاص النائحة المستأجرة ـ لا الثكلى ـ فى البكاء !

سألوه أن يأكل .. فأعتذر !

سألوه أن ينزل ليأكل معهم ، فأعتذر فى أدب ، وقال : إنى صائم !! فأنعقد لسانهم جميعاً عن الحديث ، ولم يستطيعوا النطق ، ثم نظر بعضهم لبعض ، وانخرطوا فى ضحك متصل ، ثم بكاء أكثر إتصالاً !

وأما الذى رفض أن يشاركهم الطعام ، كان هو الزعيم .. وكانوا هم أفراد عصابة اعتادوا أن ينقضوا على عابرى السبيل ، فيجردونهم من المال والأمتعة ، وفى نهاية اليوم ، يجلسون معاً ، ليقتسموا الغنائم.

ولم يكونوا قد عهدوا هذه التقوى الكاذبة ، والورع المزعوم ، من زعيمهم الذى يدبر ويخطط لهم ، كيف يهاجمون ، وكيف يفرون عند الضرورة.

ولكنها قصة حقيقية ، وقعت فى صدر الإسلام ، وحكاها أحد أفراد تلك العصابة ، بعد أن تاب الله عليه.

وحين أعتذر زعيمهم ، لم يكن يتظاهر بما ليس فيه ، ولا كان ينوى أن يقلع عن السرقة ، وقطع الطريق ، وإنما كان يحب ، كما شرح لهم وجهة نظره ، أن يكون بينه وبين الله ، خيط متصل ، فلا ينقطع أبداً ، فكأنه شعرة معاوية الشهيرة.

والرجل اللص ، أراد أن يترك الباب إلى السماء مفتوحاً ، أو مواربأ حتى إذا قرر العودة ، كان ذلك ممكنا ، إذ ربما كانت سرقاته رغماً عنه، وكان مضيه فى طريق الجريمة بدوافع خارجة عن اراداته ، فإذا زالت ، عاد إلى أصله : إنساناً يحب الخير.

والرسول عليه الصلاة والسلام ، كان يأتيه المجرم معترفاً ، ومقراً بما ارتكب ، ويريد أن يعاقب على ما فعل ، فلا يزال الرسول يراجعه حتى يرجعه من حيث أتى ، إنساناً غير الذى كان تماماً ، ولو شاء الرسول الكريم ، لأسرع إلى عقابه ، ومستنداً إلى الاعتراف ، الذى هو سيد الأدلة كما يقول أهل القانون.

ويقال أن عقد العصابة قد انفرط ، فانفضوا جميعاً ، وذهب كل واحد فى طريق ، يمارس هوايته فى السطو على الناس ، بعيداً عن قائدهم الصائم ، إلا أن واحداً منهم لم يكن ليمضى هكذا ، دون أن يعرف بالضبط ما هو أصل الحكاية.

وقبل أن يسأل هو ، اللص الصائم ، كان اللص قد بادره : كن صادقاً مع نفسك ، وليكن بعد ذلك ما يكون.

ولم يفهم الرجل شيئاً ، ونظر إلى صاحبه الصائم (عن الطعام فقط) بما معناه أنى لا أفهم شيئاً ، فأما أن تصوم بحق ، وتهجر ما نحن فيه ، وأما أن تمارس اللصوصية على أصولها !!

ولم يفهم الرجل أيضاً أن الإسراف فى العبادة ، بمعنى الانقطاع لها، شئ غير مطلوب ، كما أن السرقة خطأ فى حق النفس والآخرين معاً.

ولكن الزعيم اللص صارحه فجأة ، بأنه صادف يوماً طفلاً فى طريق ، فجرده من كل ما معه ، وبينما كان يهم بالانصراف ، ناداه الطفل وأعطاه بعض المال كان قد أخفاه فى طيات ثيابه ، ثم أتبع ذلك فى براءة شديدة ، بأن أمه أوصته بأن يكون صادقاً أينما كان ، ولا يأبه بأى شئ بعد ذلك !!

من يومها ، رد اللص للطفل حاجته ، وقرر أن يقلع عن السرقة تماماً ، فلم يستطع ، وكانت نفسه الأمارة بالسوء تغالبه فتغلبه ، ولم يجد فى نفسه - صادقاً - إلا القدرة على الصوم ، يوماً بعد آخر ، حتى يشاء الله.

إن الصدق مع النفس ، هو البداية ، بل هو الأمل فى أن يكون هناك إصلاح لك ولغيرك ، ولا شئ أبداً سوف يكون فى وضع أحسن ما هو عليه ما دام الكذب والخداع على كافة المستويات ، أقنعة بعضها فوق بعض !!

ذنبه في رقبه حماته !

ذنبه فى رقبة حماته ، إلى يوم القيامة ، ذلك البائس المسكين ، الذى تعلق قلبه بابنة سيدته ، فكان له الويل كله ، وكانت عروسه التى لم يدخل بها ، من نصيب سواه من الرجال ، لأنه بصريح العبارة لم يكن هو العريس اللائق ، لا فى المال ، ولا فى الجمال.

ويبدو أن شاعرنا أبو العلاء المعرى ، كان على حق ، حين أقلع عن الزواج نهائياً ، ومحا فكرة ارتباطه بامرأة من ذهنه تماماً ، لأنه ربما قرأ سيرة عريسنا البائس ، فأراد أن يكرم نفسه ، ويرتفع بها عن الدنايا قبل أن يهينها أحد.

والعريس البائس ، الذى لم يتأهل ولم يدخل دنيا كما يقال عمن تزوج ، كان يعمل خادماً عند امرأة ثرية ، وكانت لها ابنه جميلة ، وعلى قدر من العقل والدين ، ولم يكن الخادم، وهو فى سن الشباب ،

على خطأ حين مال إليها ، وأحس بأن شيئاً يربطهما معا ، وكانت هى الأخرى تجاوبه.

وتلك حكاية من حكايات ألف ليلة وليلة ، وفيها أطلقوا على الخادم اسم العبد حامل النور .. يحمله لمن ؟! لا تعرف ، ويضئ الطريق بمصباحه لمن ؟! لا تعرف أيضاً ، أو إذا أردت الدقة ، فهو يحمله ويضئ لمن هم فوقه فى المجتمع ، ولمن هم ، كما رأت سيدته ، وحماته التى حرمته من ابنتها ، واختارت لها عريساً آخر ، عنده شقة - كما نقول اليوم - وسيارة - ورصيد فى البنك ، ولا ينقصه شئ .. فقط تنقصه عروسه هذه الجميلة ، كى ترفل فى نعيمه ، وتتنقل بين أملاكه.

وعندما تعود لقصص الحب عند العرب ، من مجنون ليلى ، إلى عبلة وعنترة ، إلى ابن قيس الرقيات ، إلى كثير عزة ، وجميل بثينة ، وغيرهم ، سوف تدرك أن العريس منهم كانت عنده كرامة ، وكانت له قيمة ، بمعنى أنه كان إذا أحس صدوداً من العروس وأهلها ، فإنه لم يكن يتمسح فيها ، أو يبيع نفسه فى سبيل الفوز بها ، وإنما كان يعبر عن أحزانه وندمه فى أشعار ، يتحدث فيها فى ذات الوقت عن مميزاته وحسنات قومه وأهله جميعاً.

إن أحدهم أتهمه والد العروس ، بأنه قد جاء ليعاكس ابنته ، ويغازلها على مرأى من الجميع ، وأنه لا ينوى زواجاً ولا يحزنون.

غير أنه ، وأظنه عنترة ، قد سارع ونفى التهمة عن نفسه ، بل وانتهزها فرصة وسجل لنفسه هدفاً فى مرمى حماه الذى لم يفهم طبيعة الرجال . قال يخاطب أباها :

وأغض طرفى ما بدت لى جارتى

حتى يدارى جارتى مأواها

لذلك، لا تفهم لماذا أصرت والدة العروس ، فى حكاية الخادم هذه ، أن تهين الرجل ، وأن تزوج ابنتها لغيره ، وترغمها على ذلك ، وأن تجبر الخادم على أن يحمل مصباحاً ، كالشمعة التى يحملونها اليوم فى مقدمة زفة العروسين ، ثم أمرته أن يتقدم ابنتها ، وأن يضئ لها ولعريسها الطريق ، وأن يظل على حالته هذه ، حتى ينفض الفرح ، وحتى يفرغ المعازيم من أداء الواجب !!

فإذا كانت الإبل لا تستطيع أن تنطق أو تشكو أو تثور على ما هى فيه ، لأنها مسخرة لذلك ، فما عذر الذين يستطيعون أن ينفضوا عن أنفسهم الذل والإستعباد ، ثم إنهم لا يتحركون نحو ذلك خطوة واحدة ؟!

من الليلة الأولي .. إلي ماشاء الله

لابد أنه رجل عبقرى ، ذلك الذى احتفظ بالملك شهريار ، حياً ، من الليلة الأولى ، حتى الأولى بعد الألف ، فى ليالى ألف ليلة وليلة ، وهو لا يفعل شيئاً ، إلا أن يتكئ على وسادته الحرير ، وحوله الحراس والخدم، وأمامه شهرزاد ، تحكى كل ليلة وتسليه ، وتبذل ما فى وسعها كى تنسيه تعطشه للدماء ، ورغبته فى قتل المزيد من الضحايا.

وحتى اليوم ، لا نعرف على وجه التحديد ، مؤلفاً واحداً ، أو حتى عشرين ، لتلك الليالى التى نقرأ أحداثها ، وما كان يدور فيها ، على سبيل الترفيه والتسلية ، مع أنها ليست كذلك أبداً.

ورغم أنها كلها ، من واحد إلى ما بعد الألف ، خيال فى خيال ، وليست دماء شهريار ، ولا حكايات شهر زاد له ، من الحقيقة فى شئ ، إلا أن تشابكها العجيب ، وامتلاءها بالشخوص التى تتحرك فى حبكة

فنية رفيعة ، كل ذلك يؤكد أن لها ظلا من حقيقة ، وأنه كما تقول عامة الناس ، ليس هناك دخان بغير نار ، فالمرأة التى قتلت فيها ، أمامها ألف ألف فى أرض الواقع ، والرجل الذى تصوره الليالى على أنه مخدوع ، ومستدرج إلى حيث لا يدرى ، أو حتى يدرى ، ليس رجلاً على الورق فقط ، وأنما هو من لحم ودم ، سواء كان قبل صياغة تلك الليالى ، أو حتى بعدها .. المهم أنه موجود.

أن شمشون كان صاحب قوة خارقة ، وكان يستطيع أن يطارد جيوشاً من الأعداء ، وحده ، ثم يطردهم ويهزمهم ، وكانت عنده نقطة ضعف لا يعرفها أحد ، اللهم إلا دليله التى اندست عليه من أعدائه ، وراحت تمنيه وتخدعه ، حتى استقرت على نقطة ضعفه ، والتى منها يمكن هزيمته بسهولة.

وبسرعة كانت قد أبلغتهم بما عرفت ، وبأنها تستطيع أن تحلق له شعر رأسه ـ مصدر قوته ونقطة ضعفه فى ذات الوقت ـ فإذا صار بغير شعر ، فإن طفلاً صغير يستطيع أن يسقطه صريعاً بحجر.

ولو كان شمشون قد سمع عن المثل الشعبى ، الذى يقول : دارى على شمعتك . . تولع ، وتزداد توهجاً ، لما كان قد اطمأن لدليلة ، ولا غيرها ، ولكن يبدو أن هذا المثل ، هو خلاصة حكاية المسكين شمشون، الذى تحولت قوته إلى ضعف ، حين فشل فى أن يحمى شمعتها ، وحين لم يجد حرجاً فى أن يعطى الأمان لامرأة.

غير أن الفرق الكبير ، بين دليلة ، وبين عروس البحر فى ليلة من ليالى شهريار ، أن دليلة قد مهدت الطريق ، وتركت الباقى للأعداء ..

نزعت الفتيل وحاولت أن تفر هاربة ، كى ينفردوا هم بشمشون ، فلم يشأ هو الآخر أن يموت وحده ، وأنما كانت لديه بقية من قوة ، فتساند وجعل عاليها سافلها ، عليه وعلى أعدائه معاً . . أخذاً هو بنصحية المتنبى ، بأنه إذا لم يكن من الموت بد أو مفر ، فمن العار والعجز أن تموت جباناً .. فلن تموت أكثر من مرة أبداً.

أما عروس البحر ، فكانت هى التى اهتدت إلى موقع الطلاسم ، التى يتحكم بها حبيبها فى بقية خلق الله ، وكانت هى أسرع إلى فهم شفرتها ، ثم الإستيلاء عليها ، لتسيطر بعد ذلك على صاحبها وأعدائه وأعدائها جميعاً.

وفرق كبير طبعاً ، بين البطلتين ، ولكن تجمعهما فكرة واحدة ، لا معنى لها إلا أن النار التى فى يدك ، يمكن أن تجعلك أنت فى مقدمة ضحاياها ، وأن ما تملكه وترهب به الآخرين يمكن أيضاً أن ينقلب فى لحظة ، إلى ثغرة فى ، مقتل ، فيطمع فيك من كان يحتمى بحماك!!

أبو العباس محمد !

فى ساعة رضا ، وصفاء ، قال شاعر قولة حق ، ثم لم يمهله الزمان كى يرى إن كان يستطيع أن يعدل ويبدل فيما نطق ، أو يدعه هكذا إلى يوم القيامة.

فشاعرنا قال إنه لكل داء دواء يستطب به ، إلا الحماقة أعيت من يداويها ، أى وقف الطب والدواء كله عاجزا أمامها.

وهذا الشاعر ربما لا يعرف ، أن نصف مقالب ومواقف جحا ، الضاحكة والساخرة ، تقوم على الحماقة أحياناً ، أخرى ، وأنه كان يتكسب مالاً وفيراً من وراء ذلك . ولو عاش الشاعر الذى نطق بهذا الحكم ، لكان مضطراً إلى تعديل بعض كلماته ، أو على الأقل كان قد رفع الكلمة الأخيرة ، ووضع بدلاً منها ـ مثلاً ـ يجازيها أو يكافئها خيراً وبراً وإحساناً.

وليس أدل على ذلك ، من شاعر اسمه أبو العباس محمد ، واشتهر بـ أبو العبر عاش أيام هارون الرشيد ، ثم ابنه الأمين ، والخليفة المتوكل بعد ذلك.

هذا الرجل كان عاقلاً ، وزينة الرجال ، وكان يملك عقلاً ، يجعله سيداً على آلاف الرجال ، وكان يجذب السامعين إذا تحدث ، والقارئين إذا كتب ، وكان منطقه قوياً عجيباً لا يجاريه منطق آخر ، ولكنه ودع كل ذلك ، وقرر بمنتهى العقل والاختيار من جانبه – أن يكون ، غبياً متغابياً حتى اشتهر بذلك ، وصاروا يضربون به المثل فى الحمق وسوء التصرف.

والحمق ، هو أن تضع الشئ ، أو الكلمة فى غير موضعها الصحيح ، بغير مبرر ظاهر أو معقول ، يمنعك من ذلك.

ولقد تمادى أبو العباس فى حمقه ، وأدعائه الجهل والغباء ، حتى تبرأ منه أبوه ، وحتى أصبح مما يعاير به الأعداء أهله ، إذا جاءوا فى موضع جد.

وقد جاء شاعر آخر ، يوماً ، يسأل أبا العباس الأحمق ، عما مدفعه إلى التزام هذا السخف الذى اشتهر به ، رغم أنه له عقل يمكن أن يخرج به من هذا العبث.

ولكن أبا العباس نظر إلى صاحبنا الذى جاء ينصحه ، نظرة لها معنى ، وفهمها الشاعر الناصح على الفور ، إذ استعاد من الذاكرة موقفاً جمعه ، مع البحترى فى مجلس المتوكل ذات صباح.

وكان مطلوباً من كل واحد أن ينظم بيتاً من الشعر ، يصف به المتوكل ، أو مجلسه ، أو حكمه ، أو حكمته . . المهم أن يكون المتوكل هو المحور ، أو النجم ، وكل الذين سواه كواكب يدورون في فلكه .

ولقد استفتح البحتري ، وسمى الله ، وخاطب المتوكل وهو يقول :
عن أى ثغر تبتسم ، وبأى طرف تحتكم ؟!

ولم يظهر وقتها . أن المتوكل قد فرح ، أو أخذه السرور مما قاله البحترى ، وإنما استدار ناحية الشاعر الذى جاء لابى العباس ناصحاً فيما بعد يطلب منه أن يقول ، ولم يكذب الأخير خبراً ، حتى قال كلمات لا معنى لها ، ولكن على نفس نظم وقافية بيت البحترى ، إلا أن تركيبها يدل على حمق وذكاء غير مقصود فى ذلك الوقت ، ويثير الضحك الشديد ، وهو ما أعجب المتوكل فظل يضحك ، ولا نعرف إن كان قد استلقى على قفاه من طول الضحك أم لا ؟! لأن كل الذين يحدثوننا عن مجالس الخلفاء والحكماء القدامى ، أن جاءوا يصفون واحداً منهم أخذته نوبة ضحك ، لا بد أن يجعلوه ضحكاً يستلقى صاحبه على قفاه ، وكأنه إن لم يفعل ذلك ، فلن يكون ضاحكاً . . ولله فى خلقه شئون .

وليس أدعى إلى التأمل ، مما قال الذين جاءوا فيما بعد يكتبون سيرة أبى العباس ، فقالوا إنه كان أديباً فاضلاً ، وإنساناً عنده ذكاء ملحوظ ، ولكنه ، ويا للآسف ، وجد الحماقة أنفع وأجدى ، فتحامق حتى الموت . . هل تصدق ؟!

اللهم إنى نائم !

هل من الممكن ، أن تغرب الشمس ، من حيث تطلع ؟

طبعاً غير ممكن أبداً ، وإن كانت إحدى علامات القيامة ، أن تشرق الشمس من مغربها !

ولكن ، إذا استثنينا هذه الحالة ، تبقى الشمس تقطع مسيرتها اليومية، دون أدنى خلل.

غير أن شاعرا ، رأى هارون الرشيد يوماً ، فجعله شمساً تغرب من حيث تطلع ، لأنه من الغريب ، أن المكان الذى التقيا عنده ، كان ، فيما بعد ، قبرا للرشيد ، فرأى الشاعر ، وأسمه أشجع أن الشمس ، ويا للعجب ، قد غربت من حيث طلعت !!

ولم تكن تلك هى المرة الأولى ، ولا الأخيرة ، فقد وقف أبو تمام ، هو الآخر ذات يوم ، يصف المعتصم بأنه شمس ، والملوك كواكب !

وهو معنى كبير ، لأنه يشير إلى أن الملوك ، يستمدون ضياءهم ونورهم - الذى هو أساس وجودهم وفيضهم على الناس - من المعتصم . فالذى يميز المعتصم ، وكذلك الرشيد ، عن كل من هو سواهما من الملوك ، هو نفسه ما يفرق بين الشمس من جهة . والأرض أو أى كوكب آخر من جهة أخرى !

وحين رأى هارون الرشيد ، فى منامه أن امرأة تقطع من الأرض ملء كفها من التراب ، ثم تشير له إلى الموضع الذى اقتطعت منه ، بما يعنى أن هذا الموضع ، هو القبر الذى سيضمه قريباً . . حينئذ ، لم يكذب الرشيد نفسه ، ولم يصدق كل الذين حاولوا إقناعه بأن مارآه ، لا يتجاوز أضغاث الأحلام ، وأن الرؤيا فى المنام ، ليست حقاً إلا لدى الأنبياء.

إنها ، أى الرؤيا ، بإستثناء ما يراه الأنبياء ، تبدأ من التهاويم التى لا تستند إلى شئ له قيمة ، وتمضى بعد ذلك ، ليختلط فيها الحق بالباطل حسب صفاء نفس وعقل الإنسان الحالم ، وحسب الكوابيس المزعجة التى يعيشها فى حياته ، فتنعكس فى نومه.

ولما وجد الرشيد نفسه ، وجهاً لوجه مع المرأة التى عاينها فى حلمه القديم ، ولم يكن قد مر وقت طويل على رؤياه ، لم يشك لحظة واحدة ، فى أن حلمه فيما يبدو ، قد تحقق بحذافيره وتفاصيله كما نقول !

وقد لجأ إلى أمر عجيب ، يشبه تمثيل المجرمين لجرائمهم ، اليوم ، أمام رجال النيابة!

فأحيانا ، يكون من بين إجراءات استيفاء التحقيقات فى جريمة ما ، أن يقوم المجرم بتمثيل ما ارتكبه ، بالضبط ، على مرأى ومسمع من المحققين.

وهو ما طلبه الرشيد من المرأة ، التى صادفها فى طريق من طريق بغداد ، وهى لم تكن مجرمة بالطبع ، وإنما الرجل أراد أن يتيقن مما لا يزال منقوشاً فى ذهنه ، كالنقش على الحجر ، من أثر الحلم القديم.

وقد وقفت المرأة ، تمثل ما يأمرها به الخليفة ، فتأخذ من الأرض ملء كفها من التراب مرة أخرى ، ثم تشير إلى ذات الموضع ، وتعيد التراب حيث كان ، والرشيد واقف مأخوذ ، ومذهول ، من هول وغرابة ما يرى ، فكأنه ، بلغة هذه الأيام ، أمام شريط فيديو ، يعيد عليه فيلماً من جديد !

وأعجب ما جرى فى حكاية تمثيل الجريمة هذه ، أن رجلاً طلبوا منه أن يعيد تمثيل جريمته التى أغرق فيها رفيقه فى بئر ، فما كان منه - وهو يمثل - إلا أن ألقى الشخص الذى يمثل عليه فى البئر ، فأغرقه، ثم انتحر هو !! فصارت الجريمة ثلاثاً ، والقتلى ثلاثة !

والحمد لله ، أن الرشيد لم ير شيئاً يشبه ذلك ، فى منامه ، وإلا كانت المرأة قد تولاها الفزع ، وتخلصت من حياتها.

ذكاء هذا الرجل

فى الذكاء لم يكن عند العرب أذكى من إياس حتى ضربوا به المثل، وزادوا فقالوا: إقدام عمرو ، وسماحة حاتم ، وحلم الأحنف.

ومن الواضح أن كل هذه الأسماء كانت فى الجاهلية أو فى مطلع الإسلام ولو أن الذى صنفهم هكذا قد أدرك يوماً شاعرنا أبا تمام ، لكان قد رفع إياساً - دون تردد - ووضع أبا تمام عن جدارة وهو مطئن.

ولو ذهبت تستقصى ما قبل عن ذكاء هذا الرجل ، أبى تمام ، والحدة التى تميزت بها ذاكرته فسوف تأخذك الدهشة ، وتقف مذهولاً أمام ما يروونه عنه ، وتصدق أنه فعلاً كان رجلاً ضحية لذكائه.

وليس معنى الضحية هنا أنه مات مقتولاً أو أى شئ من هذا القبيل ، وإنما الذين عاشوا أيامه نهاية القرن الثانى الهجرى ، وأول الثالث ، قالوا أنه كان رجلاً قصيراً ، لا يكاد يظهر على وجه الأرض ، وعللوا هذا القصر المفرط - لا تدرى كيف - بأنه من علامات الذكاء الشديد.

بل قالوا أنه كان مع مرور الأيام يزداد قصراً ، وأنه يتآكل من فرط الذكاء وحدة الذاكرة.

ويمكن لهذا القول أن يستقيم ، إذا عرفنا انه شاعر على ما حققه من مجد لا ينقضى ، مات فى الأربعين من عمره ، وأنه - يوماً - كاد يدفع البحترى إلى الانتحار خجلاً.

فقد أقدم البحترى ، ذات صباح ، على واحد من أبناء طىء - قبيلة أبى تمام - وكان هذا الواحد أميرا ، له من الأخلاق والثراء ما يدفع الشعراء إلى التسابق بين يديه . . شعرا.

وقف البحترى يجود بما أفاض الله عليه من أشعار يصف بها كرم وقوة ذلك الطائى ، وكان على يمين الجالس ، غلام صغير ، لا يعرفه البحترى.

وما أن فرغ الأخير مما جاء من أجله ، حتى قام إليه الغلام ، يعنفه ويلومه ، على ملأ من الحاضرين ، ويطلب إليه أن يخجل ، وألا يفعلها مرة أخرى فيسرق أشعار الآخرين ويسطو عليها ويزعم أنها أشعاره !!

ولم يكن البحترى بطبيعة الحال يفهم شيئاً مما يدعيه الغلام الذى لم يترك البحترى فى حيرته طويلاً ، وراح يتلو على الحاضرين القصيدة ، التى ألقاها البحترى قبل قليل ، وبذات الترتيب والنظم ، والبحترى واقف مأخوذ ، يكاد يغمى عليه ، لأنه - بينه وبين نفسه على الأقل - يعرف جيداً أنها قصيدته ، وأنها أشعاره من وحى موهبته هو وأنه أبداً لم يسرقها من أحد.

ولم يكن أمام البحترى من سبيل ، لإثبات عكس ما قال الغلام ، الذى هو أبو تمام !! فأنصرف البحترى خجلاً ، وهو يتوارى من الناس، ويعزم بينه وبين نفسه أن يهجر الشعر ، ولا يقول شيئاً بعد اليوم.

وقبل أن يغادر المجلس ، كان الغلام - أبو تمام - قد أرسل يستدعيه ، ويعترف له وللحاضرين جميعاً ، أن القصدية فعلاً من إنشاء البحترى ، ولكن أبا تمام حفظها عنه - وهو يلقيها - عن ظهر قلب كما نقول ، فهى منقوشة فى ذهنه كأنها نقش على حجر !!

من يومها ، أدرك البحترى أنه أمام شاعر ، ليس من اليسير أن يكون له مثيل ، فظل ملازماً له ، يتعلم منه حتى الموت . . موت أبى تمام.

ولا تعرف لو لم يقيض الله لأبى تمام ، خليفة كالمعتصم ، وبالمثل بالنسبة للمتوكل مع البحترى ، وسيف الدولة مع أبى الطيب المتنبى ، هل كان لمثل هؤلاء الفطاحل الثلاثة أن يظهروا ، وأن تتوهج مواهبهم بمثل ما رأينا ونرى ؟!

قيض الله لهم ، الظروف .. والمسئولين الذين آمنوا بالشعر ، والثقافة، واحترموا العقل ، فكان لهم ، والمجتمع فى أن واحد شأن عظيم.

ألقاها بعيداً .. ثم مضى !

بالكلمة فقط ، وليس بغيرها ، استطاع هذا الرجل أن يسابق المنجمين جميعاً ، فيسبقهم ، وأن تكون له هو الغلبة ، ولصاحبه ، الذى وقف ينتظر . . النصر.

أما الرجل فهو أبو تمام الذى ملأ الدنيا وشغل الناس ، وأما صاحبه فهو الخليفة المعتصم ، بطل موقعة عمورية الشهيرة مع الروم.

ويبدو أن الله ، إذا أراد شيئاً ، هيأ له من الأسباب والأشخاص ، ما ينهض به ، ويضطلع به على النحو الذى ينبغى.

فالروم ، حين أغاروا ، وكانوا قد استمرأوا ذلك على بلاد العرب فى الشمال ، كان المعتصم يفكر كل يوم فى ضربة قوية سريعة ، تأخذ زمام المبادرة ، ولا تدع العدو يفيق إلا وهو مهزوم يلملم ما تبقى من عتاده ، ويلعق الجراح ، فيما بعد ، بسنين.

ولو أن المعتصم قد أخلد إلى المنجمين وحدهم ، ما كان قد رد العدوان بمثله ، ولا كان قد دخل عمورية أو غيرها ، بل كان الروم - لو اتبع نصائح المنجمين - قد داهموا العرب فى عقر دارهم ، وكان على المرأة التى راحت تصرخ يوماً : وامعتصماه . . وامعتصماه - كان عليها أن تصرخ حتى الموت ، دون أن تقع على شئ يرد عليها كرامتها المهدرة والمهانة !

قال المنجمون أن طوالع السماء ، تنبئ بشر عظيم ، وأنه ليس من الممكن أن يخرج المعتصم للقاء الروم ، حتى تشير بذلك النجوم .. وانتظر المعتصم.

وكان من عادة القادة فى ذلك الوقت ، أن يستشيروا المنجمين قبل خوض أيه معركة ، بل وقبل الخروج فى سفر أو رحلة صيد ، وكانوا يخضعون دون نقاش ، لما يرى المنجمون ، على أساس أنهم يطلعون على الغيب - هكذا اعتقدوا - وأن ما يرونه خلف الحجب هو الحق والحقيقة.

ولكن المعتصم ، بفضل أبى تمام ، كان خروجاً على تلك القاعدة ، وكان هو القائد الأول -- ربما -- الذى ألقى بتخاريف المنجمين وقارئ الكف والفنجان بعيداً ، وجعل أبا تمام منه قريباً واستشاره ، وأخذ فوراً بما قال :

قال المنجمون : لا تخرج ، وإلا فسوف تلقى هزيمة ليس لها مثيل.

وقال أبو تمام : أخرج ، فالسيف . . والسيف فقط ، أصدق أنباء وعلماً من الكتب ، ففى حده ، أى حد السيف ، الحد والفاصل ، بين الجد من ناحية ، واللعب من ناحية أخرى.

والكتب هنا ، هى تلك المراجع الصفراء ، التى كان المنجمون يعودون إليها ويزعمون أن بها خبر ما فات ، وما هو آت.

والسيف ، طبعاً ، هو قوة السلاح ، التى تحسم كل وأية معركة ، حيث تميل هى ، لا حيث تميل كتب المنجمين .

وقد صدق ظن أبى تمام ، وكان للمعتصم نصر لم يحققه لا قبل ذلك ، ولا بعده ، وارتبط اسمه بمعركة هى من أشهر وأكبر معارك العرب والمسلمين : عمورية.

وكما اقترن أبو الطيب المتنبى بسيف الدولة وجعل له شأنا عظيماً بما كتب عنه وفيه ، ارتبط ذكر المعتصم بأبى تمام ، ولم يبق اسم واحد فقط ، من أولئك المنجمين الذين أشاروا عليه بأن يقعد ، لأنهم معه ها هناك ، كانوا قاعدين !!

وبين الاثنين ، سيف الدولة ، والمعتصم ، هيأ الله للمتوكل ، البحترى ، الذى كان له فى قصر ومجالس المتوكل كلام طويل ، وعظيم.

وكان كل شاعر من هؤلاء الثلاثة العظام ، بالنسبة للخلفاء الثلاثة الكبار . كانوا كما قال أبو الطيب يوماً : على قدر أهل العزم ، تأتى العزائم.

بقى أن نعرف ، أن أبا تمام نشأ فى قبيلة طيء احدى قبائل العرب المعروفة ، وبه كانت تفتخر مع اثنين آخرين انجبتهما : حاتم الطائى ، ورجل كان أشهر الزاهدين اسمه داود.

كانوا بالثلاثة يفخرون . فبمن وبماذا نفخر نحن اليوم ؟

ولكن .. بشرط واحد

يا موسى . . !

لو جاءك واحد ، يعرض عليك ورقة ، ويطلب منك أن تقرأها عليه ، وليس فيها - بالضبط - إلا هذه الكلمة الوحيدة . . فما رأيك ؟!

طبعاً ، سوف تتردد فى القراءة والجواب ، وتطلب مهلة من الوقت - إذا كنت من الذين يحذرون - خشية أن يكون فى المسألة فخ ، من تلك الفخاخ اللغوية ، التى ينصبها المغرمون باللعب بالألفاظ ، والغوص فى بحار اللغة .

وقد تنظر إلى صاحب الورقة والسؤال معاً ، بارتياب وشك كبيرين ، بإعتبار أن عقله قد أصابه لطف وأنه ، لذلك ، قد جاء يسأل عما يعرف جوابه مسبقاً .

واحتمالات أخرى كثيرة ، يمكن أن تطوف بعقلك ، إذا ما كنت أنت الذى وقع عليه الاختيار ، ليجد حلاً لهذا اللغز!

فإذا كان الذى جاءك ، ليس فى عقله خلل ، ولا هو من الشغوفين بالخداع ، عن طريق ألفاظ اللغة العربية ، التى يشتمل كل لفظ فيها على معان عديدة ، وليس معنى واحداً ؟!

لو كان الأمر كذلك ، فما رأيك ؟!

والمؤكد ، أن هذا السؤال ، لو صادف تلميذاً نبيها ، لا يزال فى السنة الأولى من المرحلة الابتدائية ، فمن السهل عليه أن يفسره بسرعة ، وبغير ابطاء ، ولكن بشرط واحد.

هذا الشرط ، هو أن يكون التلميذ ، من الذين أطالوا النظر فى القرآن الكريم ، والذين حفظوه كاملاً ، أو جانباً كبيراً منه على الأقل.

عندئذ ، سوف يفهم صاحب القرآن ، تلميذاً كان أو غلاماً ، أو رجلاً ، أن هذه الكلمة اليتيمة ، ليست إلا رسالة طويلة جداً ، ولكنها مختزلة ومختزنة فى كلمة ، لدواعى الأمن ، حتى إذا وقعت فى أيدى الخصوم أو الأعداء لم يفهموا منها شيئاً.

أنها ، أقرب إلى كلمة السر ، التى يشيع استخدامها بين الأفراد والجماعات ، الذين يريدون أن يقصروا فهم ما هو متبادل بينهم ، عليهم هم فقط ، فمن المعروف أن العصابات الكبيرة - مثلاً - يكون بينها كلمة سر ، يعرفها أفرادها فقط ، ولا علم لغيرهم بها ، ولا بمعناها .. حتى إذا سمعتها أنت ، لم تجد لها أى معنى ، فى سياقها الذى تقال فيه ، لأنها من الممكن أن تكون اسم طير أو حيوان أو أى شئ آخر.

ولكنها ، عند أهلها ، لها معناها ومغزاها ، ويسير على هداها ، العالمون بها ، دون غيرهم من الناس.

من أجل ذلك ، كانت الكلمة التى بدأت بها هذه السطور، رسالة تحذير ، إذا وصلت صاحبها ، أنقذته من مؤامرة يدبرها له خصوم ، ومن قتل مؤكد اعتزمت جماعة من المجرمين ، على أن تشرع فيه.

إنها قصة قديمة جداً ، عندما جاء رجل من أقصى المدينة يسعى ، يطلب من موسى عليه السلام ، أن يخرج فوراً ، لأن الملأ فى المدينة يأتمرون به ليقتلوه.

القرآن الكريم يقول : يا موسى أن الملأ يأتمرون بك ليقتلوك ، فأخرج أنى لك من الناصحين.

وتلك لغة ، كان يفهمها أهل العلم ، زمان ، بعضهم عن بعض.

كانت موجة الاستقبال ، مضبوطة على ذات الموجة التى يجرى الإرسال عليها.

وكانت الكلمة الواحدة ، كما ترى ، تطوى فى جوفها ، رسائل وإشارات وتلميحات ، تحتاج إلى صفحات مطولة ، لو أراد أحد المتعالمين اليوم ، أن يعبر عن طرف منها.

أرأيت كيف كان من الممكن أن تأتى الكلمة ، ذات أبعاد لا تنقضى، ثم يطول كلامنا نحن - اليوم - ركاماً فوق ركام . . بغير معنى!

ولا تزال تطارده !

تهمة باطلة ، التصقت بسيرة الرجل ، ولا تزال تطارده حتى اليوم ، على لسان عامة الناس ، وبعض الخاصة أحياناً.

أما الرجل فهو هارون الرشيد ، الخليفة العربى الكبير ، الذى بلغت الإمبراطورية الإسلامية فى عهده ، درجة من القوة ، ليس بعدها متسع!

ولا نعرف لماذا إذا فكر أحدنا فى أن يحيى ليلة ساهرة ، أو يقيم فرحاً تشهد به الركبان كما كانت تقول العرب ، فإنه يقرر بلا تردد ، أن ليلته هذه ، ستفوق ليالى الأنس التى لم تكن تنقطع فى قصر هارون الرشيد.

ويبدو أن حب الرجل للأدب والأدباء ، وإكرامه لهم ، وتكريمهم دائماً بالهدايا والحفلات ، ودفعهم للمباراة فى الشعر ، حتى يجود كل

واحد ، ويأتى بأحسن ما عنده .. كل ذلك قد أساء إليه ، وجنى عليه ، أكثر مما أحسن ، وبقى له فى ذاكرة التاريخ.

وقد كانت للرجل امرأة ولا كل النساء أو حتى الرجال ، هى زبيدة ، التى أن ذهبت تقرأ فى سيرتها ، فلن تمل أبداً.

وهناك حكاية مشهورة عن الرشيد ، تبين إلى أى مدى كانت قوته وقوة دولته ، وتشير بالضبط إلى أى حد كانت دعائم مملكته راسخة ، وتدفع كل الأباطيل التى تدور وتظن حول سيرة الرجل.

إن كل واحد يعرف أن هارون كان إذا أتكا فى شرفة قصره ، ووقع بصره على سحابة قادمة فى الأفق من بعيد ، استقبلها بترحاب قلب ، وهتف قائلاً : أمطرى حيث شئت ، فسوف يأتينى خراجك!!

مذا يعنى هذا ؟!

إنها عبارة لها ألف معنى ، ومن كثرة تكرارنالها بغير بوعى أحياناً، وبغير وعى أحياناً أخرى ، فقدت معانيها رويداً رويداً ، حتى صارت تحسب عليه ، وليس له ، وأصبح البعض يستشهد بها ، حين يود أن يدلل على بطش هارون ، وسطوته ، وجبروته ، الذى لا يدع سحابة - حتى السحابة - تمر ، دون أن يكون له فيها نصيب !!

ولم يلتفت أحد إلى أن من معانيها الكثيرة جداً ، أن هارون كان مطمئناً إلى أن خراجها وعائدها سوف يأتيه ، حتماً .. لأن مسئوليه لم يكونوا من المرتشين ولا من اللصوص ، الذين لا يجدون أحداً يقول لهم تلت الثلاثة كم وأن هذا العائد حين يأتيه فسوف يتجه فوراً ، وبغير

أدنى شك ، إلى خزانة بيت مال المسلمين ، ولن يتسرب فى الطريق. حتى لا يتبقى منه إلا الملاليم !!

ولم يلتفت أحد ، إلى أن الرشيد ، كانت له هواية عجيبة جداً .. إذ كان يحلو له أن يستدعى وزيره جعفر البرمكى - كثيراً - ويطلب منه أن يتخفى فى ثياب التجار ، أو فى أية ثياب أخرى ، ويفعل هارون نفس الشئ ، ويخرجان معاً ، يندسان بين الناس فى الشوارع ليريا بالضبط ، كيف يحيا الناس ، وأن كانوا يعيشون فى جهنم أم لا ؟!!

كل ذلك انمحى بقدرة قادر ، أو بفعل فاعل ، وتحولت الحسنات - لا تدرى كيف إلى سيئات ، ولم يبق من سيرة هارون الرشيد إلا الليالى الملاح والسهر حتى الصباح ، وسط الغلمان والجوارى والعبيد !!

ولا تدرى كيف يمكن لأمة ، أن يكون لها مكان ومكانة بين الأمم ، إذا كانت تمارس تشويه ذاكرتها بهذه الصورة ، فلا يكون لنا قدم فى ماض ، ولا أمل فى مستقبل فضلاً عن هذا الحاضر المتداعى ؟!

لا علم .. لا عقل !

لم يكذب الشاعر ، ولا ذهب بعيداً ، حين قال ، نعيب زماننا والعيب فينا ، وما لزماننا عيب سوانا ، فقد أراد أن يقطع بأن الإنسان هو أصل كل شئ، وأنه إذا صلح صلحت الظروف والحياة معها ، والعكس لابد يكون صحيحاً.

وإذا رأيت الكتابة والقرف على وجوه الجميع ، سمة ثابتة يكادون يعرفون بها ، ، فأعرف أن خللاً ما يدب وينخر فى حياتهم ، وأنه لا أمل فى أن تنمحى الكابة ، ويزول القرف ، إلا باستئصال ذلك الخلل من جذوره ، وكل ما عدا ذلك ، من حلول ، ليس إلا دوراناً للخلف ، أو حول أصول الداء.

ونحن نعرف أن رجلاً جاء الرسول صلى الله عليه وسلم ، يشكو مرض أخيه ، ويرجو الرسول الكريم أن يصف له علاجاً يشفيه ، وكان أخوه ، فيما يبدو يعانى من مغص مزمن ، كاد يفتك به.

رد الرسول الرجل ، وطلب منه أن يسقى أخاه عسلاً ، وأن يصبر عليه حتى يشفى من علته.

وراح الرجل يسقى مريضه العسل ، ويكيل له بدلاً من الكيلو اثنين وثلاثة ، حتى اشتد مغصه ، وراح يصرخ من شدة الألم ، وكان المريض كلما مضى فى صراخه ووجعه ، سقاه أخوه عسلاً ، ثم زاده مرة أخرى ، عملاً بنصيحة الرسول الكريم . . وظناً منه أن الألم والصراخ والوجع ، ليس كل ذلك إلا من بوادر الشفاء.

ومضى حالهما على ذلك أياماً : الرجل لاهم له فى حياته ، إلا سقاية أخيه المريض ، والأخير أشرف على الموت وليس هناك بادرة أمل فى شفاء قريب.

ولما يئس الاثنان ، عاد الرجل مسرعاً إلى الرسول ، يقص عليه حال أخيه ويصف له ما كان ، وبعد أن سمع منه الرسول طويلاً ، صارحه مطمئناً : صدق الله . . وكذب بطن أخيك.

إن القرآن الكريم ، يقول بأن العسل فيه شفاء للناس ، وهو كتاب لا يأتيه الباطل من بين يديه ، ولا من خلفه ، والخالق الذى وضع القرآن الكريم ، خلق فى ذات الوقت الأخ المريض ، وهو سبحانه أدرى بالاثنين ، فالعيب إذن ، لابد ، فى بطن المريض ، وليس فى العسل ، أو القرآن ، على كل حال !

وبعد ذلك ، اتضح أن الرجل الذى راح يداوى أخاه ، كان يسقيه فى إفراط شديد ، وكان يعمل بالمثل الشائع والخاطئ : وجع البطن ولا رمى الطبخة ، وهو مثل سائد . لا تعرف كيف اندس هكذا بين الأمثال

الشعبية ، والتي يغلب عليها الحكمة والمنطق ، وتشير إلى تجربة عميقة وطويلة لقائليها.

ونفس الخطأ الذى وقع فيه الرجل وعاد يشكو للرسول ، يقع فيه كثيرون ، حين يريدون التداوى من مرض ما ، فترى الواحد منهم يتجرع عبوة من الدواء - مثلاً - ولا يكون مطلوباً منه أن يتناول أكثر من نصفها أو ربعها ، ولكنه يخشى أن يشفى قبل نفادها ، فتمكث عنده فتفسد ، أو يتخلص منها فتكون عليه خسارة ولذلك فإن أفضل مكان ، وأجدى شئ ، هو قذفها فى بطنه ، وليكن بعد ذلك ما يكون من مصائب نطالعها كل يوم.

والشاعر الذى قال البيت ، أول الكلام ، كان قد خلص إلى أن هذه القاعدة ، ليست فى المرض ، أو العسل فقط ، وإنما هى قانون لا هزل فيه ، قانون طبيعى معناه أنه لا عيب فى الزمان ولا فى الأشياء ، فى حد ذاتها ، لأنها ، كلها ، مأمورة ، والمركب الذى يمكن به انقاذ الناس، ونقلهم من شاطئ إلى شاطئ ، آمنين ، يمكن أن يتحول إلى مقبرة جماعية ، تستقر فى القاع ، إذا صادفت قائداً جهولاً ، لا علم عنده ، ولا عقل !!

نعم .. هي كذلك !

الحرب خدعة !

وقد دارت حروب كثيرة ، وتساقط القتلى والقتلة على الجانبين ، فلم يحسن تدبيرها فريق دون آخر ، فيكون له النصر.

وأشهر حصان فى التاريخ ، أو فى تاريخ الحروب ، هو حصان من خشب ، ولم يكن من لحم ودم ، ورغم ذلك فقد حسم حرباً كادت تهلك الطرفين !

كان اليونانيون ، قبل الميلاد ، قد استماتوا فى سبيل فتح طروادة فعجزوا تماماً ، وأرهقهم طول الكر والفر ، وقسوة الطرواديين في القتال، وكان على رأس طروادة هذه ، رجل حرب بمعنى الكلمة ، لا تعرف الرحمة إلى قلبه طريقاً ، وقد يئس اليونانيون تماماً ، من إمكانية الاستيلاء على طروادة ، ودخلت الحرب بينهما فى مرحلة الاستنزاف ،

التى يتفنن كل فريق فيها ، فى إضعاف خصمه ، والنيل من قوته قليلاً . قليلاً.

غير أن أسلوب الاستنزاف ذاته ، لم يصلح فى التعامل مع طروادة وأهلها ، فقد كانوا يدفعون كل يوم بالمئات ، ممن يحبون الموت ، كحب أعدائهم للحياة !

وليس أشرس ، لوا أعنف ، من ذلك الذى يحارب عن عقيدة راسخة فى ذهنه وقلبه معاً ، وليس مهما أن تكون هذه العقيدة صحيحة أو خاطئة ، المهم أنه قد آمن بها.

هكذا كان أهل طروادة.

لذلك أسرع اليونانيون يفكرون فى وسيلة ، تنهى هذه العبث الذى طال بينهما أكثر مما ينبغى . ولا تعرف من هو الذى أشار عليهم بفكرة الحصان الخشبى هذه ، وهى فكرة قد لا تدخل العقل لأول وهلة ، ولا يقتنع بها إنسان ، ورغم ذلك كانت هى التى وضعت كلمة النهاية !

صنعوا حصاناً خشبياً ضخماً ، وملأوه بالسلاح والجنود واحكموا إغلاقه جيداً ، واجتهدوا فى أن يسحبوه إلى أرض القتال دون أن تقع عليه عيون الأعداء الطرواديين ، وذات ليلة أثاروا التراب والغبار حوله، واحدثوا أصواتاً على سبيل التمويه ، ودفعوا به إلى ثغرة داخل أرض طروادة ، وفروا هاربين وكأنهم وراءهم من بين السبايا التى فرح بها الطرواديون.

وفجأت انشقت الأرض عن جهنم ، وانفتحت بطن الحصان عن فرسان من الرجال يأكلون البشر ، وعن سلاح لم يره أحد من قبل ، وتحول جيش طروادة كله إلى أشلاء متناثرة ، وصار الجنود كأنهم فئران تفر من مركب عصفت به الريح ، ولم تمض ساعات حتى كان قائد الطرواديين أسيراً ، وحتى كان الطرواديون أنفسهم يسلمون بما أراد اليونانيون ، ويدفعون الفدية كى يستردوا قائدهم الجريح !!

ومن يومها ، والحرب لا تضع أوزارها ، إلا بخدعة أو ثغرة .

حتى الحرب الأسطورية ، التى دارت بين قوم زرقاء اليمامة وبين أعدائها ، لم تصل لخاتمتها إلا بخدعة فروع الأشجار التى حملوها وجاءوا بها من بعيد ، فلم ينتبه أهل الزرقاء ، إلا والفروع تتساقط على جيش هائل.

وإن كانت الزرقاء قد أنذرتهم طويلاً ن فلم يستبينوا نذيرها إلا عند ضحى الغد ، وإلا عندما تكسرت النصال على النصال!

ومن الخدع التى كانت معروفة فى الحروب القديمة ، أن القائد كان يكلف أفرادها ، بأن يثيروا التراب خلف صفوف الجنود ، فيعتقد جيش الأعداء أن مدا كبيرا قد وصل على الجانب الأخر ، فلا يكون أمامه إلا أن يفر هارباً ، أو على أقل تقدير ، يسلم بأدنى الشروط.

وإذا كانت الحرب خدعة ، فإن السلام كذلك لا يخلو أبداً من الخدع والمناورات الطويلة ، بل أن المجال هنا أوسع ، والعقل أقدر على التفكير.

السجن أرحم !

الزواج على طريقة جحا ، فى البيع ، سبيل مريح ومضمون ، ولكنه قيد على رقبة العريس ، يزيده اختناقاً ، وربما أفضى إلى الموت ، الذى هو الطلاق فى مثل هذه الحالة.

إن جحا كان إذا أراد أن يبيع حماره - مثلاً - قام مبكراً ، وتوسط السوق واقفاً فى صدره ، حيث يراه كل الوافدين ، ثم ينادى بأعلى صوته ، بأن حماره هذا ، أشهر حمار فى التاريخ ، سوف يباع فى مزاد، وأن ثمنه لا يزيد على جنيه واحد . . نعم جنيه واحد ، إذا دفعه أى واحد ، فسوف أسلمه الحمار وأمضى إلى حال سبيلى.

وكان المشترون يتزاحمون على الحمار ، غير منتبهين إلى الفخ الذى نصبه جحا ، وعلى الخدعة التى نسجها لصاحب النصيب ، إذ ما يكاد أحدهم يتقدم من الحمار ، حتى يستوقفه جحا قليلاً ، منبهاً أياه إلى أن الحمار - صحيح - بجنيه ، وهو فى واقع الحال يساوى أضعاف ذلك

ربما مائة مرة ، ولكنه أى جحا متنازل عن بقية الثمن فى سبيل أن يدفع المشترى مائة جنيه ثمنا للجام الحمار لأنه لجام ، أو قياد نادر جداً، ومطلى بماء الذهب !!

ولم يكن جحا على هذا الحد ، الذى نتصوره ، من العبط ، ولا كان زبائنه ـ وقد تكرر هذا الموقف منه كثيراً ـ على ذلك الحد ، الذى يمكن أن نتصوره أيضاً ، من الغفلة ، وإنما كانت عملية البيع والشراء تتم بإتفاق ، والطرفان يفهمان بعضهما البعض !

والشاعر سعدى الشيرازى ، أحد فرسان الشعر والحكمة فى إيران ، فى القرن السادس الهجرى ، لم يكن يتخيل أنه سيقف يوماً ، موقف جحا ، ولكن فى مسألة أخرى تماماً ، مسألة توفيق بين رأسين فى الحلال.

وقع الشاعر يوماً ، أسيرا لدى أعدائه ، الذين رفضوا أن يفكوا أسره ، إلا إذا افتداه من يرضون وساطته.

وكان تاجر من أثرياء حلب ، بأرض الشام ، عنده بنت عانس ، لا جمال ولا جاه عندها ، ولكن لديها مال كثير ، وهو مال أبيها ، ولأن كل العرسان كانوا يتجنبون سوء الفهم من جانبها هى ، أو من جانب أبيها ، فإن أحداً لم يتقدم لها ، حتى لا يواجهوه بأنه جاء متخفياً فى زى عريس ، ولكنه فى الحقيقة يطمع فى أن يموت الأب وابنته فى أقرب فرصة ، كى يفوز هو بما جاء من أجله.

وكان التاجر على علاقة جيدة بأعداء سعدى ، ولذلك راح يتوسط ، ويطلب الإفراج ، ويساوم الشاعر على أن يفك أسره ، نظير أن يتزوج ابنته.

هكذا دون مواربة أو خجل!

ولأن سعدى كان فنانا ، لا يطيق أن يبقى فى قيوده ، فقد قبل العرض ، غير مدرك إلى أن التاجر ، حين كتب عقد الزواج جعل مؤخر الصداق مائة دينار ، بينما كل ما دفعه مقابل فك أسر الشاعر ، كان عشرة دنانير !!

ورغم أن سعدى ، فكر بطريقة أن بلاء أهون من بلاء ، وأن قيود الزواج تهون بجانب أسوار الحبس ، إلا أنه ما لبث أن اكتشف ، أنه صار شبيهاً بزواج الاثنتين ، الذى يتصور أن راحته عند الأولى ، وعندما يستقر فى بيتها يجد أن العكس صحيح ، وهكذا إلى ما لا نهاية !!

أصبحت البنت العانس ، أو التى كانت كذلك حتى فك قيدها هو ، وأمست ، وهى تعايره بأن أباها أنقذه من عبودية كان يمكن أن تدوم عليه حتى الموت ، وأن عرسانها كانوا كثيرين ، ولكنها كانت تتأبى وتتدلل.

وحين ضاق الشاعر بقيده الجديد - الزواج - طلب أن يختاروا ما بين أن يعود هو مختاراً إلى عدوه ، وما بين الطلاق ، واختاروا الحل الأول، فعاد متطوعاً إلى سجنه ، وكانت هى المرة الأولى ، ربما ، التى يجد فيها رجل ، السجن أرحم من الزواج !!

إن الهوى .. تعب !

أسخف سؤال تلقاه زوج فى حياته ، كان هو السؤال العجيب ، الذى واجهه زوج ليلى العامرية ، حبيبة قيس ، ومجنونته ، التى ذهبت بعقله ، أو ذهب هو بعقلها ، على رأى عميد الأدب العربى طه حسين.

كانت المشاكل قد كثرت بين أهل العروس ، ليلى ، وبين أهل العريس ـ قيس بن الملوح ، الذى أطلقوا عليه فيما بعد ، مجنون بنى عامر ، حين هام على وجهه فى الصحراء ، ذاهلاً ، مأخوذاً من وطأة الخبر عليه .. خبر رفض والد ليلى له ، ثم تزويجها لرجل آخر.

ولا بد أن نعرف أولاً ، أنه كان هناك فى تاريخ العرب ، قيسان .. واحد منهما هو المذكور الآن ، والآخر قيس بن ذريح ، حبيب لبنى ، وقد كان له هو الآخر ، معها شأن عظيم . . وكان كيد النساء ، سبباً مباشراً فى طلاق لبنى منه ، ثم محاولته لاستعادتها فيما بعد.

لا نعرف ما هو شعور أى زوج اليوم لو تزوج امرأة وهو يعرف أنها كانت تحب رجلاً آخر ، وأنها قد نسيته تماماً ، وعزمت على أن تكون كلها ، لزوجها الجديد ، الذى اضطرت هى إليه ، تجنباً لوجع الدماغ ، واختاره أهلها ، على طريقة قصر الشر . . أو البصق على الشيطان !!

لا نعرف ما هو شعور الزوج حين تنشق له الأرض ، عن الحبيب القديم ، بعد أن فقد عقله ، ثم يسأله سؤالاً لا يخطر على بال زوج أبداً.

سأله ، بما معناه : بربك هل ضممت إليك ليلى . . أو قبلتها .. إلى آخره !!

وهل رفت إليك قرون ليلى ، رفيف الأقحوانة فى نداها ؟!

وهل . . وهل ؟!

أن الذين قالوا بأن الهوى تعب ، لم يكذبوا ولم يبالغوا ، والهوى هنا ، بمعنى العشق والحب ، الذى يرتقى إلى مدارج الصوفية ، وليس الهوى الذى يقال أحياناً فيعنى الغرض ، والنوايا الشخصية.

ولقد أتعب الهوى ، بالمعنى الأول ، قيس بن الملوح ، وأرهقه ، وأفقده القدرة على التمييز بين ما يقال وما ينبغى على العاقل أن يستحى منه ، فلا ينطق به.

بل وصل به جنونه ، وهيامه بليلى أنه إنطلق فى الصحراء عارياً فى بعض الأحيان وحرم على نفسه ، تماماً .. أكل لحم الغزلان !!

لماذا ؟!

لأنها .. أى الغزلان ، فى رأيه تشبه ليلى وهو لا يحب أن يجرح - مجرد جرح - أى شئ أو كائن يشبه ليلى ، حتى يجمع الله بينهما ، فقد كان عنده أمل دائماً.

ويبدو أن الزوج الذى سئل هذا السؤال المحرج فضلاً عن سخافته ، كان زوجاً متحضراً بالمعنى العصرى لهذه الكلمة ، لأنه صرف قيساً بإحسان ، وحاوره وطلب إليه أن ينصرف وأن ينسى حكاية ليلى هذه !!

ولم يستل الزوج سكيناً ليقتل قيساً ، ثم يستدير إلى ليلى ، بحجة أن الحب القديم لا يزال متصلاً بينهما وأنهما حسب سؤال قيس لا يزالان - فيما يبدو - يلتقيان من خلف ظهره !

وكان الزوج ، الذى لم يحافظ التاريخ اسمه إلا قليلاً .. يسترضيها تارة ويحاول أن ينسيها تارة أخرى ، بغير عنف ، وهو فى قرارة نفسه ، كان يعلم أنه يراهن على جواد خاسر ، وأن ذرة واحدة من قلبها ليست له على الإطلاق ، ولكنها فى ذات الوقت ، كانت تحترم بيته جيداً ، فلا تنظر مجرد النظر فى وجه قيس !

وإذا كان القرآن الكريم ، ينصح الأزواج ، ويأمرهم بأن يمسكوا زوجاتهم بمعروف ، أو يسرحوهن بإحسان فقد أدرك زوج ليلى بعد طول تفكير أنه لا مفر من الخيار الأخير !! ثم كان بعد ذلك ما سوف نعرفه.

ولكنه..عاطل!

الله وحده أعلم ، بمصير هذا الرجل ، لو كان قد عاش بيننا اليوم ، وقال ما أفتى به قبل ١٢ قرناً من الزمان ، أو يزيد ، تقريباً ، وهو الرجل الذى بلغ فى عصره مبلغاً فى العلم ، ليس بعده متسع أو مزيد ، وإلا فهل هناك متسع لعالم ، يصفونه فيقولون إنه إذا كان موجوداً ، فليس لأحد سواه أن يتقدم للفتوى ، أو للجواب على أى سؤال حائر .. إنه موجود!

ومعنى الكلام ، يشير إلى شخصية الرجل ، وهو مالك بن أنس ، ثانى الأئمة الأربعة الكبار ، فى الترتيب الزمنى.

لو كان بيننا ، وعقد مجلساً من مجالس علمه الشهيرة ، ثم نودى إلى صلاة الظهر - مثلاً - فأسرع الجميع يؤدون الفريضة ، وبقى واحد فقط - يسمع إلى الإمام ، لأثنى عليه الأمام وأعاد على أسماعه ،

وأسماعنا ، ما سبق أن قاله ، من أن العمل ، والعلم ، ليسا بأقل من العبادة على كل حال.

ولكن الأمة ، حين تصاب فى عقلها ، تنقلب مقاييس الأمور ، وتجد الشاب من إياهم يسد عليك الأفق ، هائماً فى دنياه ، ذاهلاً ، ويكاد يكون زاهداً ، لأنه يسعى إلى الأخرة ، ويكره الدنيا !

لقد حدث ، والله ، أن كان الإمام مالك مستقراً فى مجلس علمه ، وحوله أو بين يديه تلميذ من تلاميذه ، يتلقى عنه العلم ، وبينما الإمام مستغرق فى درس العلم ، فوجئ بالشاب ، الذى بين يديه ، يلملم حاجاته ويقوم.

وكم كانت دهشة الإمام ، وهو يسأله عن وجهته ، وعما هو ذاهب إليه ، فيعرف أنه ذاهب للصلاة ، لأن الظهر قد حل موعده !

وكأنه ، أى الشاب ، أكثر تقوى ، وتعبداً ، وأحرص على دينه ، وأشد تمسكاً بتعاليمه من الإمام !

يا بنى ، قال الإمام ، إن ما قمت إليه ، أى الصلاة والعبادة ، ليست بأفضل مما كنت فيه !

ولكن الشاب ، عن سذاجة ، لم يسمع الكلام ، وأعتقد ساذجاً ، أن الإمام يمزح ، أو أنه يريد أن يسبقه إلى الله ، وأن ينافسه فى الخير ، فيتفوق عليه.

ونحن نعرف ، أن عمر بن الخطاب ، واجه موقفاً شبيهاً ، جعله يضع شيئين يعرف بهما الرجل ، وهما شيئان لا يخطئ مقياسهما أبداً.

كان عمر يقول إنه يرى الرجل من الرجال ، فيعجبه ، حتى يتكلم ، وحتى يتبين إن كان عاطلاً ، ، أو عاملاً . . عندئذ ، وحسب الكلام ، والعمل أو عدمه ، يسقط الرجل من العين والإعتبار ، أو يظل محترماً ويرتقى ، كما كان قبل أن يتكلم فيفصح عن حقيقة عمله ، ومهنته فى دنياه .

ولكن أحداً ، لم يطلع على عمر ، ولا على الإمام فيما بعد ، يتهمهما فى عقلهما ، أو بأنهما على عداء للدين ، ولن تعدم ، اليوم ، واحداً ، يصف الإمام مثلاً بأنه كان يحض على الحياة ، وبما أن الحياة كلها شرور وشهوات ، وهى فى نهاية المطاف زائلة ، فنحن فى حل منها ، وعندنا الآخرة تكفينا وتزيد !!

ولقد لاحظ الرسول الكريم ، ذات يوم ، إن أصحابه لا يكفون عن امتداح شاب غائب ، وكلما جاءت سيرته ، أثنوا عليه ، وسأله الرسول عن السبب ، فقالوا إنه شاب عابد ، لا يكف عن ذكر الله ، ولا ينقطع عن المسجد ، ويعمل لأخرته بكل ما أوتى من عزم وقوة . . إلى آخره .

وسأل عمن يكفيه ، وعمن ينفق عليه ، فقالوا ، إننا يا رسول الله جميعاً ، نكفيه !

إذن فهو شاب عابد ، وكله خير ، ونور ، ولكنه بصريح العبارة . . عاطل !

وكان لابد للرسول ، عليه الصلاة والسلام ، أن يصحح لهم المفاهيم التى انعكست فى أذهانهم ، ويخبرهم ، بأنهم جميعاً ، خير منه . .إذا ما ظل متعطلاً عن العمل مشغولاً بالعبادة وحدها !

ولا تفهم ، كيف يمكن لإنسان عاقل ، يدع عمله ، ويقطعه ، بل وأحياناً يبقى بغير عمل ، حتى لا يتعطل عن العبادة.

ولم يعترض أحد ، بطبيعة الحال ، على العبارة ، ولم ينكرها ، ولكن العمل ، وعمارة الأرض ، فى الدرجة والمنزلة ، لا يقلان بحال من الأحوال عن العبادة ، إن لم يسبقاها .. هكذا يقول منطق العقل . . ولا أمل فى شئ بغير العقل ، فى كل الأمور.

ست الستات !

بنت فقرية ، تلك التى أراد لها أبوها ، السعد كله ، وأن تكون ست الستات ، حين اختار لها عريساً ليس من السهل أن يتيسر لأية عروس ، غير أنها تابت ، ورفضت ، ورأسها وألف سيف أمام حل نهائى ، ورأى لا رجعة فيه : الطلاق!

وحين نعرف أن العريس ، هو معاوية بن أبى سفيان ، فسوف نستنتج على الفور ، أن المسألة كانت إرهاباً ، أو قل رهبة وتخوفاً من جانب والد العروس ، تجاه مطلب معاوية ، الذى افتتن بجمال البنت : هند.

ولأن معاوية ، فى ذلك الوقت ، القرن الأول الهجرى ، وبالتحديد من سنة ٣٠ فصاعدا ، كان صاحب جاه وسلطان ، وكانت خدعته لعلى بن أبى طالب قد انطلت على كثيرين ، وكان الأمر قد استقر له ، فقد راح يخطب البنت ، وهو متأكد من أنها إذا تجرأت ورفضت ، فإن أباها لن يجرؤ على مجرد التفكير فى الرفض.

ومسألة الحب ، التى تعللت بها هند ، رأى معاوية أن نظريته الشهيرة ، (شعرة معاوية) كفيلة بأن تعالج وتتعامل مع أى عائق قد يقف فى طريق الزواج ، سواء كان هذا العائق حباً أو كرهاً.

ونعرف أن معاوية ، بعد أن تولى الحكم بخدعة ، عن طريق عمرو بن العاص ، أقام سياسته مع الشعب على أساس أن ما بينه وبين الرعايا جميعهم ، ليس إلا شعرة ممتدة ، يحرص معاوية على أن يرخيها إذا شدوها ، ويشدها إذا أرخوها ، فيستقيم الوضع على ما يريد هو ، وهى نظرية ثبت فعلاً إنها فعالة ، وأن الكرسى بها يبقى ثابت الأركان.

ولكن تلك النظرية ، لم تفلح مع هند وأن أفلحت مع ملايين من الرعايا رجالاً ونساء.

كانت هند ، على طريقة بنات هذه الأيام ، متعلقة بشاب أخر من شباب قبيلة مجاورة ، ولم تكن الأمور قد تطورت ، إلى الحد الذى يسمح بهروبها معه ، فى حالة رفض أبويها ، لوضعهما أمام الأمر الواقع ، ولذلك ، أفهمت إياها ، منذ البداية ، إنها لا تريد معاوية ، رغم ثرائه ، ورغم جاهه وسلطانه ، ورغم أنه كان معروفاً بداهية العرب وأنها تفضل عليه شاباً صعلوكاً ، تحت ضغط شئ عرفته ، ولم تعرف كيف تصارح به أباها وهو : الحب.

وقد فهم أبوها ، من لهجة رسول العريس ، أن الأخير مصمم على الزواج ، وأن مستعد لأى شئ ، ونقل الأب المسكين ، رغبة معاوية إلى ابنته وأسر إليها بأنه لا يستطيع أن يرد للخليفة طلباً ، وأنها أن كانت تود أن ترفع عنه الحرج ، فتخرج هى إلى الرسول ، لتضع أمامه حقيقة شعورها.

وخرجت إليه ، وطلبت إليه أن ينقل إلى معاوية ، أنها تحترمه ، وتجله ، ولكنها لا تريده ، ولا تطيقه زوجاً ، فلينظر ماذا يرى.

والذى رآه معاوية : أما الزواج ، وإما . .

ولم يفصح عما عزم عليه ، بعد إما الأخيرة هذه.

ويبدو أن جمال البنت ، كان بغير مثيل ، إذ راح معاوية يتودد إلى أبيها تارة ، ويغريه ويغريها هى أيضاً تارة أخرى ، ويرهبهما - ضمنا - تارة ثالثة.

ولم يكن هناك بد ، من أن يتم الزواج مع أن الطرفين ، معاوية وهند ، كانا يعرفان أنه مقضى عليه بالفشل ، ومع ذلك فقد أرادها هو زوجة ، على سنة الله ورسوله ، ولو ليوم واحد ، ورأت هى أن ترفع الحرج عن أبيها ، وأن تدوس على قلبها - رغماً عنها - وبعد الزواج يكون لكل حادث حديث.

وهذا ما حدث فعلاً ، فقد اكتشف العريس ، أن الحياة بينهما - فعلاً - ليست ممكنة بأى حال من الأحوال ، وأنها رافضة لكل الإغراءات ، وعندها ، بقدرة قادر ، قوة المستغنى_!!

والذين عاتبوها ، وعابوا عليها رفس النعمة التى كانت فيها ، بالطلاق ، أفهمتهم ، وقالت بأنها تفضل أن تلبس العباءة (الملس) وتقر عينها ، على أن تلبس الحرير ، وتبيت على الجمر !!

فهل كانت على حق ؟! مسألة حولها خلاف !!

إصلاح..وتهذيب !

ملايين من البشر ، مروا على بيوت كثيرة تقام ، وأخرى تتهدم ، فلم يستوقف أنظارهم شئ ، ولا وجدوا فى إقامة بيت جديد ، أمراً يستحق التوقف والتأمل ، أو يستأهل السؤال.

وليس مقبولاً ، ولا مطلوباً ، بطبيعة الحال ، من كل واحد ، أن يقف عند كل جديد بوجه عام ، وعند البيوت بوجه خاص ، ليرى فيها عبرة أو فائدة مثلاً . . وإلا لتوقفت الحياة وتعقدت تماماً ، وفرغ الناس لمشاكل لا تخطر على بال ، ولكن اثنين فقط ، أحدهما أقام بيتاً جديداً ، والآخر مر على بيت فى طريقه لأن يكتمل ، وتقوم أركانه وأعمدته ، فسأل الأخير وتلقى الجواب ، وسئل الأول وأعطى جواباً أيضاً ، وفى الحالتين هناك معنى.

أما الذى مر على قرية ، يقوم رجالها بتشييد بيت فخم ، أو هكذا بدا له ، فهو الإمام الشافعى ، وكان رجلاً يحب أن يوسع الإنسان على

نفسه ، في بيته ، حتى يسعه فيلزمه إذا عمت الفتن ، ويجد في ذلك كفايته.

ولكن الإمام ، لاحظ أن الذين وضعوا الأساس قد ضيقوا على أنفسهم أكثر من اللازم ، وجعلوا كل حجرة لا تزيد على متر في متر حتى إذا وقف فيها إنسان . . وقف فقط ..كاد أن يختنق.

توقف الإمام يسأل عن سبب معقول ، لهذا التضييق على النفس ، بينما أرض الله واسعة ، وفيها متسع لمن أراد ، فنصحه البناؤون بأن يكف عن السؤال ، وألا يحشر نفسه فيما لا يعنيه ، حتى لا يلقى ما لا يرضيه كما نقول نحن في حياتنا كل يوم.

ولما أصر على معرفة السبب ، وأفهموه بأنهم يقيمون سجناً للمجرمين واللصوص ، وأن السجن ليس مكاناً للنزهة والفسحة ، كي يوسعوا فيه وينشروا الحدائق ، ولكنه إصلاح وتهذيب !!

وفاجأهم الإمام ، بأن ذلك أدعى لأن تتسع الحجرات ، وتمتد مساحات الغرف ، لأنكم - هكذا كان يخاطبهم فيما أتصور - قد تكونون من بين نزلاء هذا السجن ذات يوم ، إذا دار الزمان دورته ، وجعل الذي بنى وأحكم الجدران والأبواب ، حبيساً للغرفة المغلقة التي اجتهد في تصميمها على النحو الذي يكفل أقصى حد من التعذيب والإصلاح والتهذيب.

وسقراط ، فيلسوف اليونان الأكبر ، أقام يوماً بيتاً على الصورة التي رأها - فيما بعد - الإمام الشافعي ، وأنكرها أن تكون سجناً ، فضلاً عن أن تصلح سكناً تؤوي أحداً ، وعندما سأله تلاميذه وحواريوه ، وكانوا

كثيرين كما نعرف ، عما أغراه بأن يكون منزله خانقا إلى هذه الدرجة ، قال إنه لا يتمنى على الله شيئاً ، إلا أن يملأ بيته هذا ، بالصادقين.. قبل أن يموت !

على ضيق البيت ، واختناق الغرف استبعد سقراط أن يستطيع حشده بالصادقين ، فى حياته الطويلة ، وتمنى أن يمكنه الله من ذلك ، وكأنه كان يردد ، دون أن يعلم ، قول الحكيم العربى : إذا ظفرت بذيل حر فتمسك به ، فإن الحر فى الدنيا قليل !!

هكذا كانوا ، الإمام وسقراط وغيرهما ، إذا أرادوا نصح الناس ، فليس بغير الحسنى والقدوة ، ثم بدأوا بأنفسهم - أولاً - كى يصدقهم الآخرون.. فابدأ بنفسك !!

الذي في قلبه مرض !

لا عجب في أن يكون صوت المرأة جميلاً ، مثيراً في بعض الأحيان ، محركاً للأحزان في أغلبها حتى إذا خضعت صاحبته بالقول، طمع الذى فى قلبه مرض ، وإذا وقفت تتغنى طربت وأطربت ، حتى كأن الحاضرين جميعاً على رؤوسهم الطير !

والعرب تضرب المثل بالإنسان على رأسه الطير ، حين يكون السامع منجذباً إلى الدرجة التى يبدو فيها كأنه مغشى عليه ، أو ميت ، فإذا جاء طير وهبط فوق رأسه استقر تماماً ولم يجد شيئاً يدفعه أو يغريه بالفرار!

وأشهر المطربين العرب ، اسحاق الموصلى فى بغداد ، وكذلك إبراهيم بن المهدى ، وكان لكل منهما صوت جميل ، وإن اختلفا فى طريقة الأداء.

والمطربات لم نعرف منهن ـ قديماً ـ أسماء تذكر ، اللهم إلا الجوارى والوصيفات اللاتى كن يتغنين فى مجالس الخلفاء.

وعدد المطربين ، فى الغالب ، قديماً وحديثاً ، أكثر من عدد المطربات ، ربما بسبب ظاهرة الحداء للأبل ، التى كانت منتشرة ، ومشهورة جداً عند قبائل العرب القدامى ، ولا تزال عند بعضها ، وخاصة تلك التى تعيش فى عمق الصحراء وأطرافها.

والحداء للابل ، هو أن يصحب احد الرجال ، وعادة ما يكون أحسنهم وأنداهم صوتاً، قطيع الجمال ، ويقطع بها الصحراء ، وهو يحدو أى يغنى لها ، وهي تتبعه مستسلمة.

وقد كان الحداء . ذهاباً وإياباً ، تدريباً مجانياً ، وكاملاً ، للصوت كى ينمو ويتطور ، ويصير أندى وأجمل.

وقد بلغ جمال أصوات بعض فتيان العرب ، حدا أسطوريا لا يكاد يتصوره عقل.

منه مثلاً أن رجلاً نزل على ضيف فى خيمته بالصحراء ، ولاحظ وهو فى طريقه إلى الخيمة ، أن إعدادا كبيرة من الجمال مطروحة أمام الخيمة ، ميتة أو تبدو كذلك ، وبينها جمل واحد فى النزع الأخير ، بينما صاحبها ملقى على الأرض ، وهو مقيد بالحبال ، ولما سأله الضيف، عرف منه أن سيده يعاقبه لا لشئ إلا لأن صوته جميل ، وإلا لأنه إذا غنى جعل الجمال تمضى ربما لمسيرة أيام ، بغير أن تشعر بالتعب!

ولما جاء صاحبه ، سأل الضيف ، فأجابه بأن هذا العبد قد حرمه الله من كل شئ ، وأعطاه بغير حساب فى صوته ، ولقد ذهب ليحضر أعدادا من الأبل اشتريناها ، فحملها فوق طاقتها ، وجعل يحدو لها ، وهى تتبعه كأنها مشدودة إليه ، فلما انتهت إلينا ، وقعت منهكة كما ترى ، ونفق بعضها من هول ما وجدت فى طول الطريق.

ولأن العرب كانوا ، ولا يزالون ، ينزلون الضيف أكرم منزلة ، ولا يردون له طلباً أو سؤالاً ، إن كان ذلك فى وسع المضيف ، فإنه لم يرد رجاء الضيف بأن يفك أسر العبد ، وأن يعفو عنه ، إذ لا ذنب له فى جمال صوته ، وجمال الصوت ، ليس شيئاً يعاقب عليه صاحبه على كل حال ، إلا إذا أساء كما فعل العبد ، الذى تعهد بأن يترفق بالسامعين فيما بعد ، سواء كانوا من بنى الإنسان ، أو من الإبل والطير.

وأراد الضيف أن يرى بنفسه ، فطلب من العبد ، بعد أن صار طليقاً، أن يحدو بالقرب من جمل مشدود يشرب من بئر . . ولم يكد العبد يفعل، حتى هاج الجمل ، وحطم البئر ، وانطلق نحو الصوت !

هنالك آمن الضيف ، بسطوة الصوت الجميل ، إن كان للرجل ، فما باله مع المرأة ، التى تستطيع أن تجعل مفعوله بعيداً ، ولأى مدى ، إن أرادت هـ . .. مع غير الإبل !

ربنا عرفوه.. بالعقل !

قطة سوداء ، غير موجودة ، يفتش عنها صاحبها ، في غرفة مظلمة. . ويظل على حالته هذه ، حتى يهلك ، أو يفوز بها.

هذه هي الصورة العامة ، التي ارتسمت ورسخت في أذهان كثيرين، عن الفلسفة والمشتغلين بها إلى يوم الدين.

والفيلسوف العربي الكبير ، ابن رشد ، كان له رأي آخر تماماً ، وكان يدافع عن الفلاسفة ، وراح يطاردهم ، ويتهمهم في عقائدهم ، وقد وضع في ذلك كتابه المعروف تهافت الفلاسفة.

ولكن تبين فيما بعد ، أن معركته الأساسية ، كانت مع فيلسوفين كبيرين على وجه التحديد ، هما : الفارابي وابن سينا.

أما الأول فهو عالم في الرياضيات كبير ، وله في الموسيقى باع أكبر مما له في العلوم الأخرى ، وكان ماهراً في العزف والضرب على

أوتار الآلة الموسيقية إلى حد مذهل . وأما ابن سينا ، فهو ليس فى حاجة لتعريف ، ويكفى أن نعرف ، أن كتابه القانون فى الطب ، كان - ولا يزال - من المراجع التى لا غنى عنها فى هذا المجال ، فى أوروبا وعند العرب أيضا.

ولكن يبدو أن اسرافهما فى الاعتماد على العقل ، واتخاذه طريقاً وحيداً إلى كل موضوع ، بغض النظر عما يمكن أن ينتج عن ذلك ، أحياناً ، من تعارض ظاهرى - وهو ليس كذلك - بين العقل ، وبين بعض أمور الدين .. يبدو أن ذلك هو الذى جلب على الفارابى ورفيقه المشاكل ، وجعل الغزالى يحمل عليهم بعنف ، ويقاتلهم بضراوة .. بالكلمة والفكرة طبعاً .. وليس بالرصاص.

ولا نزال حتى اليوم ، نسمع عامة الناس ، وهم يقولون فى سذاجة فطرية : ربنا عرفوه بالعقل !

وفى معنى هذه الكلمات الثلاث ، أنفق الفلاسفة المسلمون والعرب وغيرهم ، أعمارهم كلها ، فمنهم من وصل إلى شئ من الحقيقة ، ومنهم من مات وفى نفسه شئ من حتى كما كان الأمر مع العالم العربى الكبير الذى انشغل يوماً بالبحث فى أصل وفصل كلمة حتى.. حتى مات وفى نفسه شئ منها !!

وابن رشد ، فيلسوفنا الكبير ، حسن اشتبك مع الغزالى ، لم يذهب لأبعد مما تضمنه هذا المثل العربى الشائع ، الذى يتداوله الناس ، ربما بغير تأمل لمعناه ، أو بغير وعى : ربنا عرفوه بالعقل.

ويضربون مثلاً آخر ، شبيهاً بما سبق ، وهو بالغ الأهمية فى دلالته : عقلك فى رأسك .. تعرف خلاصك !!

كلمات بسيطة ، وجميلة ، وتبدو سهلة ، ولكنها ليست كذلك ، فعندما يصطدم العقل بأى شئ آخر ، مهما كان هوان هذا الشئ ، فإننا مع شديد الأسى والأسف ، نأخذ بأى طريق ، وبأى حل ، إلا الطريق أو الحل الذى يشير به العقل .. وهذا بالضبط هو الفارق بيننا وبينهم هناك فى أوروبا ، فقد انتفعوا بتراثنا أكثر مما فعلنا نحن بكثير!

وابن رشد لم يذهب لأبعد من ذلك أبداً ، لأنه وقف يسأل الغزالى وأنصاره .

- من الذى خلق العقل؟

- الله .

- ومن الذى أنزل القرآن؟

- الله .

إذن فمن الواضح ، وبكل بساطة نجد أن المصدر واحد ، وهل من المتصور ، والحال كذلك ، أن يصدر عنه متناقضان ؟!

مستحيل بطبيعة الحال ، إلا إذا انحرفنا نحن ، عند التفكير أو التأمل والنظر ، فليس أوضح من الدين ، ولا أيسر منه ، وكذلك العقل . . فهل بعد كل ذلك ، نقول عمن ينشد الحقيقة بعقله ، أنه يطارد قطة سوداء فى حجرة مظلمة ، ويبلغ بنا الهوس حد الزعم بأن القطة نفسها غير موجودة . . أرأيت؟!

ما معني هذا ؟

أنت فى حـاجـة ، للعودة سـريعـاً ، إلى القـرآن الكريم ، كى تتـأمل ظروف وقصة ذلك الحمار الفريد من نوعه ، الذى ورد ذكره فى سورة البـقـرة ، فى مـعـرض سـرد وقـائع الجدل الذى دار بين إبراهيم عليـه السـلام ، وبين رجل أدعى وزعم أنه يسـتطيع أن يـحـيى الموتى ، بأن يقبض على اثنين من عبيده فيحكم على أحدهما بالإعدام ، ثم يعفو عن الآخر ، فيكون بذلك قد أحيا واحداً ، وأمات الآخر !

ولابد أن عـامـة الناس ، يسمعون عن حـمـار جحا ، أشهر حمار فى التـاريخ ، لأن جـحـا كـان يركبه ، ويمضى متنقلاً من مدينة لأخرى ، يعظ النـاس ، ويشـيـر لهم إلى الصحـيح والخطأ ، وليس له فى الدنيـا إلا الحمار وبعض الأمتعة يحملها على ظهره ويتوكل على الله !

ولكن المصـادفة ، طبعاً ، هى التى جعلت شهرة حـمار جـحـا تطبق الآفـاق هكذا ، فلو كـانت هناك وسـيلة مـواصـلات أخـرى ، كـان تكون سيارة مثلاً ، لكنا اليوم نسمع ونردد : سيارة جحا !

غير أن الحمار الذى تناوله القرآن الكريم ، بالحديث ، ضمنا ، أثناء استعراض قضية الحياة والموت . . هذا الحمار كانت له ظروف لم يمر بها أى حمار آخر ، على مدى التاريخ كله !

كيف . . ولماذا ؟

الثابت أن صاحبه ركبه ، ومر به على قرية خاوية على عروشها ، وينعق فيها البوم فوق الخرائب ، فتساءل تلقائياً بما معناه ، كيف يحيى الله هذه القرية بعد موتها ، وكيف تدب الحياة فى هذا الدمار مرة أخرى ؟!

والثابت كذلك ، أن الرجل مر على تلك القرية وكانت فى مكان ما على أرض فلسطين ، وكان ذلك فى الصباح الباكر ، وكان معه بعض التين ، وبعض العصائر أو الشراب . . ولم يتمالك نفسه وهو يسأل - حائرا وبصدق - عن الكيفية التى ستعود بها نبضات الحياة إلى القرية التى كانت أرضاً لمعركة جعلت عاليها سافلها !!

وأنت تكاد تتصور الرجل ، وهو يتساءل ، ثم يتثاءب ، وتأخذه غفلة أو غفوة نوم قصيرة ، فتدوم عليه مائة عام ، ولا يقوم إلا عند مغرب الشمس ، وبعد مائة عام بالتمام والكمال ، وبجواره التين والعصائر كما تركها ، ولكن الحمار كان قد مات بنوم صاحبه ، أو بموته ، لأن القرآن الكريم يذكر أن الله أنامه وأماته فى ذات الوقت ، فظل نائماً تلك الفترة كلها .

ولما قام ينفض التراب عن وجهه ، ويتحسس معالم أمتعته ، والمكان الذى يحيط به ، جاءه السؤال : كم لبثت ، يعنى كم من الوقت نمت ؟!

وأجاب الرجل صادقاً أيضاً : لبثت يوماً أو بعض يوم . . ساعات يعنى !

ولم يكن هناك بد ، من وضعه أمام الأمر الواقع ، عندما جاءه الصوت من الله ، يخبره بأنه لبث مائة عام ، ثم طلب منه أن ينظر إلى طعامه وشرابه ، وهو على حالته التى تركه عليه ، فلم يصبه أى سوء أو عفن!

ولم يكد الرجل يفيق من هول المفاجأة ، أو الصدمة التى تلقاها ، بأنه غاب عن الحياة مائة عام ثم عاد إليها كما كان تماماً ، غيران قوانين الموت كانت قد فعلت فعلها فى الحمار ، فمات هو الآخر مثل صاحبه ، ولكن لم يبعث معه ، فوقعت عينا الرجل عليه ، وهو عظام بيضاء جافة ، وهيكل عظمى لا أثر فيه للحم أو شحم.

وأصبح الرجل أمام ثلاث حالات تكاد تذهب بالعقل ، فهو قد نام ومات واستيقظ من النوم والموت معاً !!

وشرابه وطعامه كذلك من مائة عام ، أما حماره فقد كانت حكايته يشيب منها شعر الرأس ، ولا يملك الواحد أمامها ، إلا أن يدعو بدعاء الرسول عليه الصلاة والسلام : يا مقلب القلوب ثبت قلبى على دينه!

هذا ما حدث !

لو سألوك : ما هى أشهر وأكرم ناقة فى التاريخ ؟!

سوف تقول أنها القصواء ، ناقة الرسول عليه الصلاة والسلام ، والتى كان يتنقل بها من مكان لآخر ، وعندما سار بها فى شوارع المدينة ، كان كل واحد يحاول أن يقودها نحو داره هو ، لتبرك هناك ، فيكون له كل هذا الشرف ، وكان الرسول الكريم يصرفهم فى رفق ، ويقول لهم ما معناه : أتركوها فإنها مأمورة !!

سبحان الله !

وسؤال آخر : وهل هناك ناقة أخرى ، أشهر من القصواء ؟!

أما الجواب فهو : نعم ، ولكن الشهرة فى اتجاه آخر تماماً ، فعدد النوق عند العرب القدامى كثير كثير ، ولكن ناقة واحدة ، لم يحفظ لها التاريخ اسماً ، وأن كان قد حفرت ذكراها فى عمق الزمان ، ببحور من

الدماء ، إنها الناقة التى كانت سبباً فى حرب البسوس ، بين بنى بكر ، وبنى تغلب ، وهما قبيلتان من قبائل العرب ، شردت ناقة أحداهما فى حدائق الأخرى ، فكانت الحرب التى لم تنطفئ نارها ٤٠ عاماً !! أربعون عاماً ، والنفوس مشدودة ، والأعصاب محروقة على الجانبين ، والضحايا يتساقطون بالمئات ، والحرب لا تضع أوزارها إلا لتشتعل من جديد ، ولا تشتعل إلا لتأكل زهرة رجال الطرفين.

أن الطريق إلى تلك الحرب ، وخلالها وبعدها ملئ بالتفاصيل العجيبة ، التى تجعلك تتساءل : إلى هذا الحد كانت النخوة ، وكان الحرص على الثأر للشرف والعرض والمال ؟! أم أنها لم تكن إلا استعراضا للقوة والعضلات ، واستنكافاً من أى القبيلتين ، أن تكون احداهما هى البادئة بالسلام ، فتوصف بالاستسلام والخنوع والتراجع ، وبأنها باعت القضية ؟!

وإذا كان التاريخ لم يحفظ لنا ، اسم تلك الناقة المشئومة ، التى حصدت من النفوس أكثر من عدد شعرات جلدها ، فإنه قد احتفظ بالبيانات كاملة ، فى واقعة أخرى ، ليست أقل بشاعة وعنفاً ، ولا هى أدنى فى تعداد القتلى والقتلة !

أن داحس ناقة من نوق أو نياق العرب ، والغبراء ناقة أخرى ، وهما معا كانتا ، دون أن تقصدا طبعاً ، سبباً فى ثأر أخرى ، اسمها حرب داحس والغبراء ، دارت رحاها ، حتى تناثرت أشلاء ضحاياها كما تتناثر حبوب القمح تطحنها الرحى !

كانت الناقتان من أمهر النياق فى السباق والجرى ، ولم تشتهر طاقتهما على العدو المتلاحق بغير تعب ، أو ارهاق ، إلا بعد تجارب طويلة ، وتدريبات أطول على كيفية الإنطلاق ، وكيفية تنظيم الخطوات والقفزات ، وكانتا - داحس والغبراء - كفرسى رهان يستويان دائماً ، وكأنهما على إتفاق وهى حالة كانت ترضى القبيلتين على كل حال ، فلا غالب ولا مغلوب!

ولكن إحدى الناقتين ، تعثرت يوماً فظن أصحابها أن فى الأمر مؤامرة وأنه إذا كان تخلف ناقتهم لم يحدث أبداً من قبل ، فإن شيئاً ما، اضمره ودبره رجال الطرف المنافس ، حتى ينعقد لهم لواء البطولة والتفوق.

ولم يقتنع أصحاب الناقة المتعثرة ، بأنه من الطبيعى ، أن تتعثر ناقتهم ، ولا ارتضى فرسان الطرف الآخر ، بأن يعيدوا الكرة مرة أخرى ، مما جعل الشك يتأكد لدى المهزومين ، ولم يهدأوا حتى سالت الدماء وجرت ، بقدر المسافة التى قطعتها الناقتان فى كل سباق.

وأعجب من كل ذلك ، أن كل طرف منهما وهما عبس وذبيان ، أعتبر تلك الحرب من مفاخره ، حتى أن كل رجل عاش ورأى الحرب أو شارك فيها ، كان يتباهى بأن من فضل الله عليه ، أن أحياه حتى خاض غمارها !!

لقد كانوا رجالاً !

اليوم الأول من السنة الثامنة !

لو صبر القاتل على المقتول .. لو . . لكانت معالم الجريمة قد تغيرت ، ولكان القاتل قد نجا ، لأن المقتول - كان سيسقط من تلقاء نفسه ، ولكنه قدر الله ، وقضاء اللحظة الحاسمة التى تبدل وتغير أشياء كثيرة ، رغم أنها .. لحظة !

ويحدث كثيراً فى حياة كل واحد منا ، أن يظل طويلاً فى انتظار شئ ما ، ثم يمل الانتظار فيمضى إلى حال سبيله ، وفى اللحظة الفاصلة التى تنصرف فيها ، يكون ما أنفقت العمر تترقبه قد حضر ، ولكن لا معنى لحضوره على الإطلاق !

والعريس العربى تقدم يطلب يد فتاته التى أحبها ، واتفقا معاً على الزواج ، ورغم انه كان زواجاً على سنة الله ورسوله ، إلا أنه كان مرفوضاً ، وكان زواجاً لا يمكن أن يتم على طريقة الأفلام العربية ، فالعريس فقير ،وليس عنده شئ ، والعروس متمسكة به ولا تريد غيره.

ويبدو أن الفقير مظلوم ومهان ، فى كل أرض ، وحتى فى الأساطير التى لا أصل لها فى الحقيقة ، وإن كانت الأساطير ، على كل حال ، تعكس ما كان قائماً فى وقت ما ، سلباً وإيجاباً.

والعرب القدامى لاحظوا أن الكلاب - حتى الكلاب - تكشر على أنيابها ، إن هى رأت فقيراً ، وتتمسح فى الأثرياء ، وتهز ذيلها إمتنانا!

لذلك كان حتماً أن يفشل زواج العريس الفقير ، وأن يصده والد العروس فى غير رحمة ، وأن يتفق العريس مع حبيبته - سراً - على أن يرحل فى بلاد الله خلق الله ، يجمع المال بصوته الجميل ، ويعود كى يرضى عنه أبوها ، وقد وعدته العروس أن تنتظره سبع سنوات بالتمام والكمال ، وأن تفى بوعدها معه ، بشرط ألا يتأخر هو عما اتفاقا عليه.

وأنت يمكن أن تقرأ هذه الأسطورة ، أو الحكاية ، فى أكثر من كتاب ، وعند أكثر من شعب ، لأنها فى نهاية المطاف ، تصور نفس الإنسانية.

وهذا الزواج الذى لم يتم ، يقال أنه حدث فى أرض الشام ، وأن ملكاً استحسن صوت العريس البائس ؛ ففعل معه ما فعله سيف الدولة مع المتنبى ، حين قربه وأعطاه مالاً كثيراً ، فلما اختلفا معاً ، افترقا ، وسبه المتنبى ولعن أباءه أجمعين.

ولكن العريس الفقير ، لم يلعن أحداً ، وإنما كان اتفاقه مع الرجل الذى رأى فى صوته شجناً وجمالاً ، أن يمكث عنده سبع سنوات إلا يوماً ، ففى هذا اليوم سوف يقطع الأرض إلى عروسه ، وسوف يلقى بكل ما جمع فوق رأس أبيها.

ويشاء القدر أن يتأخر يوماً واحداً ، وأن يحضر في اليوم الأول في السنة الثامنة ، فيجد أن فتاته قد جلست في الكوشة وبجوارها رجل آخر، فلا أمل في أن تتراجع هي ، أو يتراجع أهلها.

عندئذ ، لم يكن أمام هذا الشاب الذي انهارت أحلامه ، إلا أن ينتحي جانباً ، وعيناه على العريس الجديد يلاطف عروسه ، والدموع تنسال من عين الشاب ، وفي ذهنه يدور شريط السنين السبع ، ويسترجع صورة رجل صادفه في طريقه عندما كان يعمل عند أحد الأثرياء الذي وعده بأن يعطيه من الأرض ما يشاء ، بشرط أن يمتطي الحصان ، وأن يقطع المساحة التي يريدها ، وأن يعود قبل مغرب الشمس !!

ولكن الرجل كان يطمع في أرض واسعة وكان طموحه أكثر من قدرته ، وكان ينظر إلى الشمس من ورائه ، والأفق الممتد من أمامه ، ثم يلهب ظهر الحصان كي يقطع مسافة أطول ، ولما خاف أن تغيب الشمس ، عاد مسرعاً ، إلا أن الحصان سقط منهك القوى ، قبل نقطة البدء بأمتار !!

إذن فالشاعر لم يكن كاذباً ، حين قال دقات قلب المرء قائلة له.

أن الحياة دقائق وثوان.

وهي كذلك فعلاً ، وبأي معنى تريد .. وترى!!

وأنا .. صاحبها !

هل اشتهر واحد ، بالظلم والطغيان والاستبداد ، كما اشتهر الحجاج بن يوسف الثقفى ، الذى حكم العراق عشرين عاماً ، فقطف خلالها من رؤوس أبناء العراق ، وغير أبنائه ، عدداً يساوى أو يزيد على عدد الدقائق التى قام فيها سلطاناً على البلاد ؟

أغلب الظن أن أحداً من حكام العراق ، لا قبله ولا بعده ، لم يخرج من عهده مشيعاً بهذا الكم الهائل من اللعنات والاتهامات التى لا تزال تلاحقه.

والشىء العجيب أنك عندما تقرأ فى سيرته ، وتاريخ تلك الفترة من الحكم الأموى ، ثم ترتد لتطالع أحكام المؤرخين المعاصرين عليه - أى على الحجاج - فسوف تفاجأ بأن عدداً لا بأس به منهم يؤيدونه ، ويعتبرونه رغم ما فعل - مستبداً عادلاً.

وليس معروفاً بالضبط ، كيف يمكن أن يجتمع الاستبداد والعدل فى أن واحد ، أو فى شخص واحد.

وأنت قد تجد نفسك متعاطفاً معه ، أو حتى مشفقاً عليه ، فى بعض مواقفه ، ولكن أغلبها ، وطابعها العام ، وهذا بالطبع هو معيار الحكم عليه ، يغريك باحتقاره ، والقائه في أشد أركان التاريخ ظلمة وسواداً فى حياة الشعوب.

وقد كان معروفاً لدى الخلفاء الأمويين ،والعباسين من بعدهم ، أنهم إذا بعثوا أميراً على أحد البلاد ، فإن عليه أن يجمع الناس ليلقى فيهم خطاباً رسمياً يعلن فيه مبادئه فى الحكم ، ودستوره الذى سيمضى عليه بين رعاياه.

والطريقة التى اختارها الحجاج لإلقاء كلمته الأولى ، على أهل العراق ، طريقة مريبة ولم تكن تبشر بأى خير ، كما حدث ووقع فيما بعد فعلاً.

فقد اتجه الرجل إلى حيث أمر أن يجتمع له الناس ، وقبل أن يذهب احكم لثاماً على رأسه ووجهه ، حتى لا يعرفه ولا يتعرف عليه أحد . وظل أهل العراق مجتمعين ، ومنتظرين قدوم الأمير الجديد ، حتى فاجأهم الرجل على حالته هذه المريبة ، وراح يتخطى الجالسين ويشق صفوف الواقفين ، فأستقر على منصته ، ثم جلس صامتاً لا يتحرك ، والناس لا يرون منه غير عينيه تدوران ما بين الشمال واليمين ، وتتفحصان الصفوف الأولى ، وتدققان النظر فى الصفوف الأخيرة حتى استراب الجميع فى أمره.

وشيئاً فشيئاً كثرت همهمات الجالسين ، وراح كل واحد يميل على جاره ، ويسأله عما يرى فى أمر هذا الذى يجلس أمامهم ، والذى يزعم أنه جاء عليهم أميراً . وفجأة صالح واحد هل بعثوا إلينا بأمير أخرس ؟!

واكتشف الحجاج أن الوقت قد حان ليكشف عن نفسه ، وأنه إن تأخر عن ذلك فسوف يفلت الزمام من بين يديه ، وفى ثوان كان قد انتصب واقفاً ، وألقى العمامة واللثام إلى جانبه ، وصاح بصوت سمعه الجميع : أن ابن جلا ، وطلاع الثنايا ، متى أضع العمامة تعرفونى . . إلى آخر الكلمة التى نحفظها جميعاً ، حتى قال . . والله إنى لأرى رؤوساً قد اينعت ، وحان قطافها ، وأنا صاحبها .. والله لأجعلن الدماء تسيل بين اللحى . . والعمائم !!

والذين تعاطفوا معه فيما بعد ، قالوا أنه كان يقصد بالرؤوس التى أينعت ، ولابد من قطفها . . كان يقصد الذين اغتنوا من حرام ، وتضخمت ثرواتهم بغير حق !!

الود..والقضية !

سوف تتحرك يداك ، الآن ، تلقائياً وبغير إرادة منك، فى اتجاه وجهك ، وسوف تفاجأ بأنك تتحسس ذقنك، وتمرر أصابعك عليها ، فى فزع!

وسوف تجد أنك تتأمل كل صاحب لحية ، إن كنت من غير ذوى اللحى ، وأنك تتأمل شعيراتها ، والريح تلعب بها ، وتعبث بها فى كل اتجاه.

أكثر من ذلك ، ستجد نفسك حائراً بين موقفين ، إذا ما صادفت لحية طويلة فى طريقك : أتكتم ضحكة فى داخلك ، أم تذرف دمعة إشفاقاً مما ترى ، مقروناً بما كان !

وما كان ، هو أن لحية طويلة ، كانت وراء محنة لا مثيل لها ، لشاعر كبير من شعراء العرب والمسلمين ، عندما كان الأمويون يثبتون دعائم ملكهم ، مع مطلع النصف الثانى من القرن الأول الهجرى.

وإذا كنا نقول أنك سوف تكتم ضحكة ، أو تدارى دمعة ، فإن ذلك بطبيعة الحال ليس سخرية أبداً من أية لحية ولا من صاحبها ، وإنما هو مجرد ذكرى تثير فى النفس ضحكاً وبكاء على حد سواء.

فصاحب اللحية القديمة ، التى نقصدها ، هو عباد بن زياد .. شاب صالح ، من خيرة شباب العرب ، كان حريصاً على أن يطيل لحيته ، وأن يتعهدها بما شاء له الله ، ولها ، من ألوان العناية ، يمشطها كل صباح ، ويقف طويلاً أمام المرآة - إن كانت هناك امرآة فى تلك الأيام ، وما يشبهها - فيتأملها فى عجب وفخر ، ويخرج بها على الناس مختالاً سعيداً.

واللحية فى بعض الأحيان ، تكون سمتا لصاحبها ، وزينة ، فيتخذها سبيلاً من سبل الوجاهة ، أكثر منها دليلاً أو إشارة إلى التدين العميق ، والحرص على الإلتزام بما أوصى به الرسول.

وكان عباد من أسرة عريقة ، ورثت ملكاً وجاهاً عريضاً ، وكان له أخ شقيق يتولى حكم العراق ، فى وقت من الأوقات.

والأهم ، أنه كان له صديق شاعر كبير ، هو يزيد بن ربيعة ، وإن أردنا أن نجمل صفة تميز يزيداً هذا ، عمن سواه من الشباب والشعراء ، فسوف نقول أنه لم يكن يجيد مداراة مشاعره تجاه الآخرين ، ولا كان يستطيع أن يرى شيئاً يعجبه أو

لا يعجبه ، بغير أن يطلق لسانه فيه شعراً.

ومن هنا ، كانت محنته ، وكان بؤسه الذى لحق به.

فقد حدث أنه خرج مع صديقه عباد ، يوماً ، وكانا فى طريقهما إلى إقليم من أقاليم الدولة ، صدر أمر بتوليه عباد أميراً عليه ، وفى الطريق، بينما عباد يمضى وبجانبه يزيد ، وبعض أصحابهما ، بعث الله ريحاً شديدة ، فلعبت بلحية عباد ، حتى أفسدت نظامها ، وبدت اللحية غبراء ، غير مهذبة ، لا تسر فى منظرها العام.

وما تقول فى واحد ، لا يستطيع أن يمسك لسانه ، وفى آخر لا ينسى الإساءة التى انطلق بها اللسان ؟!

فالذى عجز عن التحكم فى لسانه ، هو يزيد لأنه تأمل اللحية ، والهواء يعبث بها ، وقال :

ألا ليت اللحى كانت حشيشاً فنعلفها خيول المسلمينا.

وكان المعنى ، والكلام نفسه ، جديداً وغريباً على رفاقهما ، يزيد وعباد ، مما أثار الحاضرين جميعاً ، فانخرطوا فى ضحك طويل ، أحرج عباد ، وأشعره بالضيق الشديد ، وعزم على الانتقام.

وأنت ، فى الحقيقة ، لا تدرى لماذا كل ما جرى ليزيد ، من تحت رأس كلمته هذه ما داما صديقين ، وما دام هو يقولها على سبيل الدعابة والضحك ؟!

فلقد قضى يزيد ، بعد وصولهم إلى الإقليم المقصود ، أياماً سوداء ، كان يخرج فيها ليسأل الناس الإحسان ، ويسألهم أن يصبروا على ديونه، بعد أن ضيق عباد عليه من كل إتجاه ، وكاد يقتله جوعاً !

وكان يزيد على موعد ، بعد ذلك ، مع صنوف من العذاب ، بسبب ما قاله ، يندر أن يكون إنسان قد صادفها !

وإذا كان كلام يزيد ، فى لحية صديقه ، من قبيل الرأى ، فإن واقعة كهذه تؤكد زيف العبارة التى تقول ، أن الاختلاف فى الرأى لا يفسد للود قضية . . فالاختلاف ، كما نرى ، لقد نسف الود من أساسه !

وعلى السادة .. مراعاة فروق التوقيت !

فعلها البطل العربى ، سيف بن ذى يزن ، فجعلها نموذجاً نضرب به المثل ، وسابقة تبحث عمن يكررها أو يقلدها ، حتى التقطها طارق بن زياد فكانت فاتحة خير على إمبراطورية ذات عزة وكرامة للعرب والمسلمين بالأندلس ، دامت ثمانية قرون متواصلة ، من نهاية القرن الأول الهجرى ، وحتى مشارف القرن العاشر.

كان سيف بن ذى يزن ، أسبق أهل الدنيا ، فى إدراك أهمية الاكتفاء الذاتى وحتمية الاعتماد على النفس ، قبل أن نصبح ، أو يصبح هو عالة على الآخرين.

والرسول عليه الصلاة والسلام ، كان يقول ما معناه ، أنك من الأفضل أن تترك لأولادك وأهلك مالاً كثيراً ، بدلاً من أن يذهبوا بعدك فى الطرقات يسألون الناس الإحسان.

ولا يزال العرب يضربون الأمثال ، بحكاية احراق المراكب ، التى بدأها سيف ، وكررها مرة واحدة طارق بن زياد ، ولم نزل من يومها ، نبحث عمن يحرق لنا مراكبنا!!

وكل واحد ، بالتأكيد ، يحفظ جملة مشهورة من خطبة طارق فى جنوده ، وهم على مشارف الأندلس ، وعلى شواطئ جبل طارق ، يتأهبون للدخول.

كلنا نحفظ قولته : البحر من خلفكم ، والعدو من أمامكم ، ولا مفر.

لا مفر من ماذا ؟! الانتصار أو الموت غرقاً بين أمواج البحر ليصبح كل واحد متعلقاً بأهداب الآخر ، ونصير كما قال شوقى يصف قصر أنس الوجود بأسوان ، ممسكاً بعضنا من الذعر .. بعضا!

ولم يكن طارق يهزل وقتها ، وهو يصيح صيحته تلك ، ولا كان يضحك ، وإنما فعلاً كان قد وضع جنوده أمام تحد كبير ، فإما أن يقتحموا البر ، أو يغيبوا فى البحر.

كان قد أمر بالمراكب التى حملتهم فأحرقها جميعاً أمام أعينهم ، ويقال أنه لم يحرقها وإنما دفع بها بعيداً.

والذين قرأوا ما فعله جنود طارق ، وما كان منهم من جهاد واستبسال فاق كل خيال قالوا إن نظرية إحراق المراكب هذه ناجحة وذات فعالية كبيرة حقاً .. المهم كيف نحرق المراكب ، ومن هو الذى يأخذ بزمام المبادرة ويتجرأ ليخبر الناس بأن مراكبهم لم تعد هناك ، وأنهم أمام تحد ليس له غير نتيجتين حتميتين : الحياة . . أو الموت.

ولم يكن طارق يخترع وهو يفعل ذلك ، وإنما كان يقرأ تاريخ أجداده ، ويعرف أن سيفا لم يثأر لمقتل أبيه على يد الأحباش ، ولم يحقق نصراً ، إلا بعد أن طلب العون من جنود فارس ، فلما أدركه العون كان قد قرر أن يخوض تجربة إحراق المراكب هذه بنفسه ، وأن يبدأ بنفسه أيضاً ليرى كيف تكون النتيجة ؟

ويوم أن حبس سيف جنود فارس ، وأطلق فيهم منادياً يخبرهم بأن مراكبهم التى أتوا عليها من بلادهم قد أحرقت ، وأنه لا تفكير فى العودة ، ولا فى صنع مراكب جديدة إلا بعد شئ واحد ، وواحد فقط : النصر !! وقد كان.

لذلك كان طارق بن زياد ، يصيح فى رجاله ، ويعيد سابقة سيف ، وهو متأكد من أنها شديدة المفعول ، مضمونة ومأمونة النتائج.

وليس من الضرورى ، طبعاً ، أن تكون هناك مراكب من خشب ، وأن يكون هناك بحر ، وأن تكون هناك صيحات قتال واستنفار . . فلكل مقام مقال كما تقول العرب ، ولكل عصر مراكبه ، كما أن المراكب التى أحرقها سيف ، غير تلك التى أخفاها أو أضرم فيها النار طارق بن زياد .. العصر كذلك كان غير العصر.

وما أحوجنا اليوم ، أن نتأمل سيرة الرجلين ، ونقرأ تجربتهما . . ثم نحسب فروق التوقيت !

عندهم..من!

ليس عيباً ، أن تخطئ ، ولا أن تجرب عملاً فتفشل فيه.

العيب أن يستمر الخطأ ، وأن يتكرر ، وأن تصير حياتك ، خطوات مكرورة ، وأخطاء ليس فيها استيعاب شئ مما مضى.

وفى القرآن الكريم ، أن موسى عليه السلام ،قد أخطأ وقتل رجلاً ، بغير قصد ، فلما تبين له حقيقة ما جرى ، استغفر الله ، عن نية صادقة، فغفر له ..

وهى قصة طويلة ، لها تفاصيل يمكن أن تعرفها ، إذا فتحت المصحف على سورة القصص.

ولكن ما يهمنا منها ، هو أنه أخطأ ، ثم أقسم صادقاً ، حين أدرك حجم ما جنت يداه ، على ألا يعود أبداً.. وهذا ما حدث.

والناس العاديون ، الطيبون ، عندهم تفسير جميل ، وبسيط جداً ، لهذه الحكاية.

يقـولون آن الذين يعـملون وحـدهم ، هم الذين يخطئـون . والذين يعملون أكثر يخطئون - بالتالى - أكثر . والذين لا يعملون ، أو يعملون أقل ، ليس عندهم مساحة للخطأ .. وهكذا.

وهو تفسير معقول ، ومقبول ، ، لولا أن فيه نوعاً من التبرير الذى قد يكون مرفوضاً.

فأنا عندى استعداد لتقبل أخطائك ، ولكن بشرط أن تعترف ، وأن تنوى على ألا تعود ، لا أن تلتمس الاعذار ، وتذهب كل سبيل ، لتبرر وتثبت أنك ليس لك ذنب فيما كان.

وعلماء النفس ، والاجـتماع ، هم الوحيدون ، الذين يرفضـون هذا التبرير ، والتفسير معاً ، ويقولون ، أو يتساءلون : وما فائدة الذاكرة فى عقل الإنسان إذن ؟!

وما الفرق بينه وبين أى كائن آخر ، غير عاقل ، يخطئ ثم يرتكب ذات الخطأ إلى يوم الدين ؟!

الذاكـرة ، معناها أن هناك تسـجيلاً يسـتدعى أمام كل مـوقف ، المواقف المشابهة السابقة ، وبسرعة يعرف الإنسان أنه تصرف من قبل ، بالصورة الفلانية ، وطلع تصرفه أى كلام وبالتالى فمن الأفضل له أن يفعل شيئاً غير الذى سبق . . وهكذا . . فى كل موقف ، يحتاج إلى تفكير ، وإلى عقل يعمل.

وعندهم حق ، حين يقولون بأن الحيوان وحده ، هو الذى لا يستفيد من تاريخـه أبداً .. أى أنه بلا تاريخ ، وبمعنى أدق عنده تاريخ ولكن ليس عنده المقدرة على الإستفادة منه.

وتاريخه مكتوب عندنا نحن العاقلين فقط ، ولكنه لا يدرى عنه شيئاً.

ولذلك نكتشف أن الطريقة التى سقط بها أول حيوان مفترس فى التاريخ ، بالشبكة أو بغيرها ، هى ذاتها التى سيسقط بها آخر حيوان مفترس على وجه الأرض.

وفى كتب التاريخ ، تجدهم عقب كل موقعة ، أو بعد أى حدث مهم فى تاريخ ى بلد ، يرصدون شيئاً اسمه : الدروس المستفادة . .

ومعناها أنه إذا تكرر الحدث ذاته ، أو واجهنا موقعة مشابهة ، فمن الغباء ، وقلة العقل ، ألا نستفيد مما مر بنا من قبل.

والشعوب الواعية لا تتحول أبداً ، إلى حقل تجارب . . والوعى فى تاريخ الشعوب تجارب وخبرات تتراكم.

فإذا لم نتعلم أفراداً وشعباً ، مما ذهب فمن أى شئ سوف نتعلم ، ومتى؟!

حياتك..وحياتي !

ينصـحك الحكيم العـربى القـديم ، بأن تمسك أعـصـابك ، وتريح دماغك ، ويطلب منك ألا تحرق دمك ، إذا رأيت شيئاً يناقض العادة ، ويشذ عما هو سائد ، بحيث يمكن أن ينتظم بجوار عجائب الدنيا السبع ، فيزيدها واحدة ، لتصير ثمانى عجائب.

وليس مطلوباً منا ، اليـوم ، أن نمضى لنرصـد العـجـائب السـبع ، واحدة وراء أخرى . . فالمجال لا يتسع.

والمطلوب ، فيـمـا أتصـور ، أن نتـأمل السبب الوجيـه ، الذى رآه صاحبنا الحكيم ، مبرراً كافياً لعدم الإنفعال ، ثم نتوقف قليلاً أمام ما رآه هو أمراً عجيباً.

كان رأيه ، أن الزمن ، كفيل دائمـاً ، بأن يفاجئك بما هو أعـجب ، وأنك يجب أن تكون أشبه بالفيلسوف صاحب العقل الكبير ، الذى كان

يلتزم الصمت ، ويسألونه فيقول أنه يستمتع بالجلوس على الشاطئ ، ليرقب ما يجرى فى نهر الحياة الواسع.

وفى نهر الحياة ، يموج الناس ، بعضهم فى بعض ، ويضرب الطيبون كفاً بكف ، من هول ما يرون ، بينما يستقر الحكيم ، إلى مقعده ، وهو مطمئن إلى أنه ليس أعجب من حياة الإنسان نفسه ، وبالتالى ، فلا وجه للعجب ، لكل ما يتجاوز ذلك.

قال :

فإذا رأيت عجيبة فأصبر لها

فالدهر يأتى بما هو أعجب

ولقد أرانى والأسود تخافنى

فأخافنى من بعد ذلك الثعلب

والمتفائلون جداً ، هم الذين أكثر تفهماً لمثل هذه النظرة ، ولذلك تراهم يقولون : استمتع بالسئ . . فالأسوأ قادم.

فما يبدو لك ، الآن ، شديد الغرابة ، سوف يكون ، غداً .. شيئاً عادياً جداً.

وليس أدل على ذلك من أن هذا المعنى الذى ساقه إليك الحكيم ، وانبهر به جداً ، ثم اكتشف أنه يغالط نفسه ويبالغ . . هذا المعنى ليس جديداً ، وإنما سبقه إليه كثيرون جداً ، وأسطورة الوحش الذى كان يمضى فى شوارع طيبة (الأقصر) قديماً ، يلقى سؤالاً واحداً ويقتل الذين يعجزون عن الجواب.

تلك الأسطورة ، كانت تدور حول ذات الموضوع، الذى انشغل به الحكيم ، وكيف أن الإنسان يبدأ شاباً يخيف الأسد ، وينتهى شيخاً يخيفه الثعلب.

كان الوحش ، يسأل عن الكائن الذى يمضى أول النهار على أربع ، ويستوى عند الظهر على قدمين ، ثم يتساند على ثلاثة مع آخر النهار.

والمشكلة ليست فى السؤال نفسه ، وإنما فى التصور الذى سيطر على الجميع ، بأن أحداً لن يستطيع أن يجيب عليه ، مع أنه أقرب شئ إليك، وإلى أى بنى آدم ، يعمل عقله قليلاً.

وجواب السؤال ، كما نعرفه ، كان أن الطفل يحبو على أربع صغيراً، ثم يقوم على قدميه ويشتد عوده ، ثم يرجع ويتساند على عصا ، مرة أخرى.

وليس هناك إنسان ، لا يمر بهذه الدورة ، خصوصاً إذا مد الله فى عمره ، ودفع به إلى المرحلة الأخيرة ، مرحلة الأقدام الثلاثة فى حالة الأسطورة أو مرحلة الإنسان الذى يخيفه أضعف حيوان ، كما وصفه نفسه ، بمعنى أدق.

وبينك وبين نفسك ، سوف تقتنع بأن المعنى الذى تمسك به الحكيم، أو طافت حوله الأسطورة ، رغم سذاجته التى قد تبدو لأول وهلة . . هذا المعنى هو الحقيقة الوحيدة ، وسط ركام وأكوام من أكاذيب بغير حصر.

وماذا أمامك من الأشياء ، تستطيع أن تقطع بأنه يقين ، غير تلك الدورة في حياتك .. وحياتي.

إذا كان عندك جواب مقنع .. فسوف تكون ثالث ثلاثة : الأسطورة الحكيم .. ثم أنت!!

أحب فعف فمات.. فهو شهيد !

له الجنة ، الشاعر الذى أحب ، فعف فمات ، فهو شهيد ، ولها ما لا ندرى ، حبيبته هند ، التى لم تحبه ، ولكنها ابتسمت ، ووعدت بأن يكون بينهما لقاء ، ومضت تعد وتخلف ، وتعذب الرجل حتى مات هو، وهى تزعم بأنها كانت تنوى أن تلقاه : بعد غد ، مع أن لكل يوم جديد، بعد غد يتبعه بالضرورة.

كانت هند ، امرأة سياسية ، تعرف كيف تصرح بما يريح السامعين، ويريح حبيبها فى أن واحد ، وهى تدرك أنها لن تتعدى مرحلة الكلام ، وكان هو كلما جاءها وعنده أمل ، فى أن تفى بوعدها ، لا ترده ، وإنما تضحك ، وتقول : بعد غد.

وهى أشبه بـ بنلوب فى الأسطورة اليونانية ، التى كرهت أن تغضب أحداً من طالبى يدها للزواج ، ورأت لسبب فى نفسها أن تأخذهم بالحسنى ، وأن تصارحهم جميعاً بأنها سوف تتزوج صاحب النصيب من بينهم ، إن هى فرغت مما فى يديها.

وكانت تخدعهم كلهم ، بأن تهدم ليلاً ما تقيمه نهاراً ، وتفك غزل الثوب الذى تنسجه ، مع أنها قطعت بزواجها من أحدهم ، بمجرد انتهائها من الثوب.. ولكن لأنها كانت تقول ما لا تفعل ، ولا ترغب فى أن تصدم المحبين ، المخدوعين فى مشاعرهم ، فقد وجدت فى كلامها لهم ، سلوى للعشاق من بينهم ، وفرصة لها هى كى يتحقق ما أضمرته فى نفسها من سوء!

هما ، إذن ، امرأتان ، وضعتا وصفة لا تخيب فى خداع الناس ، وارضائهم بالكلام ، ولم يكن غير الكلام بضاعة وحيدة ، تتاجر بها هند ، وبنلوب ، معاً.

ويبدو أن شاعرنا الأعمى ، رهين المحبسين ، أبا العلاء المعرى ، قد أدرك فداحة ما أتته هند وبنلوب ، وما جنته كل منهما على محبيهما ، والمتأثرين بهما فى ذات الوقت ، فجعل الإنسان الفريد ، من وجهة نظره ، هو الإنسان الأخرس ، أى الذى لا يستطيع أن يضرب موعداً ، ثم يخلفه لأنه .. لا يتكلم.

ورغم أن أبا العلاء كان كفيفاً ، ولم تكن تنقصه عاهات أخرى تزيده سخرية بين السفهاء ، إلا أنه يوماً ، وهو يكتب رسالة لأمير يتوسط عنده لأخرسين لقيا . ظلماً فادحاً ، تمنى من كل قلبه أن يكون أخرساً ، وأن يكف لسانه عن الكلام ، ويجعل الله قوة لسانه فى يديه وعقله.

ولما سأله أحد الصالحين يوماً : هل يدعو له ؟! أجاب أبو العلاء بأنه لا يرفض دعوته ، ولكنه ، أى أبو العلاء ، يفضل أن يدعو له أخرس ، على أن يكون ذلك من ألف إمام فوق ألف منبر !!

لماذا ؟

لأن الأخرس ، هو البنى آدم الوحيد الذى يفعل ما يعتقد حقاً ، وينجز ما يراه صواباً فعلاً ، ولا يستطيع أحد أن يستدرجه ليورطه فى ما لا يجب ، أو ما يعجز عن الوفاء به ، فهو ، أى الأخرس ، ببساطة شديدة ، عاجز عن الكلام ، قادر على الفعل !

نظر أبو العلاء ، فى سابقيه ، وفى سيرة هند ، وبنلوب ، على وجه التحديد ، فلم يقع على غير الشقاء ثمرة للكلام الذى أسرف فيه الجميع : الحبيبتان ، وغيرهما على حد سواء!!

والمؤيد الشيرازى كان صديقاً لأبى العلاء المعرى ، نشأ فى شيراز بأرض فارس (إيران) وسمع عن أبى العلاء ، وقرأ له ، فأخذته الدهشة من تلك العقلية الفريدة ، وقطع الأرض إلى حلب يسأل أبا العلاء عن سر تجديده لصناعته : الكتابة والدعوة بها للأخذ بالعقل فى كل شئ ، أجابه أبو العلاء بأنه شب على حب ما زرعه الله فيه ، وشاب وسوف يموت عليه ، وأن كثيرين ـ غيره ـ أحبوا ، فانفقوا أعمارهم فى الحديث عما يحبون ، فلم يكن لوجودهم صدى غير . الكلام !!

الغضب..والطرب !

واحد مات جائعاً ، فى كهف مظلم ، فهو يتضور جوعاً إلى يوم القيامة . . والآخر مات مكتوم الأنفاس ، تحت أكداس الكتب التى انهارت فوق رأسه ، فأخرجوه جثة هامدة ، من تحت أنقاض الكلمات !

أما الأول فهو والد الأعشى ، الشاعر الجاهلى المعروف ، والذى كان يتغنى بشعره كثيراً ، حتى اشتهر بذلك بين العرب . وقد قيل أن أباه كان عائداً من رحلة صيد ، أدركه فيها إرهاق شديد ، ولما اشتد به الإعياء والتعب ، مال إلى مغارة أو نفق تحت الأرض ، يستظل به من حرارة الشمس ، ويستريح قليلاً ، فانحدرت صخرة كبيرة على باب النفق ، وقد انزعج الرجل ، وتولاه الفزع ، وحاول مستميتاً أن يزحزحها قليلاً ، أو يحدث فيها ثغرة يخرج منها أو حتى يستغيث بأى أحد ، فلم يستطع ، وأعيته كل الحيل ، ولم يزل يحاول حتى فقد الأمل تماماً ، ولم يعد قادراً على تحريك أصبعه ، فمات حيث كان ، وسقط خلف

الصخرة صريع الجوع والفزع ، ولم يعثروا له على أثر ألا بعد سنوات طويلة ، عندما اهتدوا إلى أن خلف الصخرة نفقاً ، وفى مدخله كان الرجل هيكلاً عظيماً يتمدد مطمئناً !! أو هكذا كان يبدو!

وقد ظل الرجل عاهة اجتماعية لأبنه الأعشى فيما بعد ، حتى أن شاعراً كان يهجو الأعشى ، فيعايره بأن أباه مات جوعاً ، مع أنه لم تكن له يد فى موته ، ولا كان ذلك طوعاً واختياراً !

وقد كان والد الأعشى ، فى حاجة لكلمة السر افتح يا سمسم التى نقرؤها فى الحكاية الشعبية : على بابا والأربعين حرامى عندما كانوا يدخلون جميعاً ويخرجون من خلال كلمة السر هذه التى كانت تزيح صخرة كبيرة من فوق مدخل المغارة ، ثم تعيدها بمجرد أن ينطق بها زعيمهم ، ثم ما كان بعد ذلك من أمر الخادمة مرجانة .. إلى آخرة القصة المعروفة!

وأما الميت الثانى ، فهو الجاحظ ، الأديب العربى الكبير ، الذى ظل متعطشاً للعلم والمعرفة ، منكباً على الكتاب والقلم ، محنياً يقرأ ويكتب ، حتى مات بالتى كانت هى الداء : القراءة والكتابة.

ولا نعرف ما هو رد الجاحظ ، لو عاد حياً بيننا ، وسألوه عن رأيه فيما كتب وقرأ ، واءن كان سيقيم على ما عاش ومات عليه ، أم سيتخذ له مهنة أخرى تماماً.

صحيح .. تعددت الأسباب ، والموت واحد ، أيا كان شكله وطريقته.

ويظهر أن الأعشى ، وكان ضعيف البصر ، ولذلك أطلقوا عليه هذا اللقب .. يظهر أنه قد أراد أن يعوض ما أدركه من سوء حظ ، فى الطريقة التى مات بها أبوه ، فعكف على تجويد شعره حتى صار واحداً من أبرز أبناء جيله.

وقد سألوا واحداً من حكماء العرب يوماً عن أعظم الشعراء فقال أنهم أربعة كبار: امرؤ القيس إذا غضب ، وزهير بن أبى سلمى إذا رغب ، والنابغة إذا رهب ، ثم الأعشى إذا طرب !

وأنت إذا تأملت الحالة ، التى يكون كل واحد منهم فى قمة إبداعه ، وإذا أدركها ، عرفت سر أو مفتاح كل عظيم من هؤلاء العظام الأربعة.

أنهم يتقلبون بين الغضب والرغبة والرهبة والطرب ، ولكل شاعر حالته ومزاجه الذى عنده تتوهج موهبته وينطلق لسانه.

ولم يكن ارتباط إبداعهم كل على حدة ،بحالة من هذه الحالات عبثاً أو شيئاً من قبيل المصادفة ، وإنما هو تعبير عن مأساة خاصة ، كما هو الحال مع الأعشى . . والثلاثة الآخرين كذلك !

الكذب أنواع .. وهذا أخطرها !

لم يسمع أشعب عن مائدة ، سوف تقام ، إلا وكان على رأس المدعوين إليها ، بغير دعوة من صاحبها ، أو حتى إذن من أهلها . ولم تقع عيناه على دخان يتصاعد من بيت جار أو صديق ، إلا وقد أدرك بفطرته أن شيئاً يطبخ فى هذا البيت ، ,انه مدعو لا محالة لأن يأكل.. شاء الأصدقاء والجيران أم أبوا !

وإذا كان جحا قد أشتهر بنوادره فى السخرية من الأوضاع المقلوبة ، واصطناع الغباء والحماقة ، وأحياناً الذكاء بين أهل المدينة ، فإن أشعب كان رجلاً أكولاً ، شغوفاً بأى طعام ، متهافتاً نحو كل وعاء.

أهدى إليه جاره يوماً ، وعاء مملوءاً باللحوم ، ربما إتقاء لشره كى لا يفجأهم وهم يأكلون فيفسد عليهم متعتهم .. وقد فرح أشعب بوعاء اللحوم فرحاً شديداً ، ومكث أسبوعاً يأكل ويدعو لجاره .. وبينما كان

على وشك الاتيان على ما تبقى ، راح يفكر في طريقة تجعل جاره يعيد إليه الوعاء مملوءاً مرة أخرى..

ووقع عليها أشعب.

اشترى وعاء صغيراً ، من نفس نوع وعاء الجار ، وانتظر حتى طرق عليه ابن جاره الباب يطلب الوعاء ، فحمل إليه الوعاءين معاً ، وقد اندهش جاره وأسرع يسأله ، فقال له أشعب : ولماذا الدهشة يا سيدى ، لقد كان وعاؤك حاملاً فى شهره الأخير !! وقد أدركته آلام الوضع عندى ، فوضع وعاء صغيراً كما ترى ، ولم يكن من اللائق أبداً أن أخفى عليك ذلك.

(كيف يا أشعب .. هل يلد الجماد ؟! (ـ نعم يلد يا سيدى .. والله على كل شئ قدير!

والعجيب أن الجار انصرف من عنده ، وهو شبه مقتنع بما قاله أشعب ، وقد أراد الجار هو الآخر أن يختبر صدق أشعب ويستزيد من الأوعية فأعاد إليه فى اليوم التالى ، وعاء آخر كبيراً ، مملوءاً بما لذ وطاب . . على أمل أن يلد هو الآخر ، فتكون تجارة رابحة.

خرج أشعب إلى جاره وهو يبكى . . ففزع الرجل وسأله عن سر بكائه فأخبره بأن وعاءه قد مات وهو يلد ، فقد أدركته الحمى فى ولادة متعسرة !! صاح الجار : هل تهزأ يا أشعب وتريد أن تقنعنى بأن الوعاء يموت ؟!!

سبحان الله يا جارى .. هل تصدق أنه يلد ، ثم تستبعد أن يموت .. إن الموت نهاية كل حى يا عزيزى ، ولا تحزن فسوف يعوضك الله خيراً !!

وانصرف الجار وهو يغلى ، ويعرف أن أشعب كاذب ، وأنه أحسن المكر والتدبير ، وقد كان عليه ـ كان الجار يحدث نفسه ـ أن ينتبه منذ البداية لألاعيب وفخاخ أشعب.

وقد جاء يوم آخر على أشعب ، لم يقع فيه على كسرة من رغيف ، حتى كاد يهلك من شدة الجوع ، فخرج ينقب فى الطريق على أى شئ، وكان حظه عسيراً سيئاً ، فلم يذق طعماً لشئ فى ذلك اليوم التعيس.

وبينما هو كذلك ، يتداعى من وطأة الجوع ، لقيه رجل فسأله من أين جئت يا أشعب ؟ ولمعت فى ذهن أشعب فكرة فأجاب على أساسها سريعاً : من عند الأمير .. أن عنده مائدة حافلة بكل أنواع الطعام.

وأسرع الرجل يسابق الريح ، وأشعب يضحك ، ويضرب كفاً بأخرى، إذ ليس هناك أمير ولا مائدة من الأصل.

ثم لقيه رجلان وسألاه : لماذا يجرى صاحبنا هذا يا أشعب فأخبرهما بما أخبر الرجل الأول ، فأسرعا كى يصلا قبل الآخرين.

ولم يلبث أن لقيه جمع من الناس يسألونه عن سر الهلع الذى أدرك الرجلين ، وقد كانا عاقلين منذ قليل .. ولم يكذب عليهم أشعب وحفزهم على أن يسرعوا وألا يضيعوا الوقت .. وهكذا .. وهكذا وفى لحظة اكتشف أشعب أن كل المدينة تجرى نحو مائدة أقامها الأمير .. وقف

أشعب وفكر قليلاً ثم استدار وراح يجرى كالمجنون خلف الجميع .. سأله أحدهم فأجابه : لا تعطلنى حتى أدرك المائدة !!

وفى لحظات اكتشف أشعب الحقيقة ، وتكشف الواقع عن لا شئ تماماً .. فقد صنع كذبة وجاهد كى يقنع بها الآخرين ، وما لبث ، وهذه هى المصيبة أن صدقها هو نفسه ، فأسرع يطاردها .. وكان هو أول من يعرف الحقيقة !!

أضعف خلق الله .. إنساناً !

أزمة كبيرة ، وتكاد تكون ورطة ، أن تحب امرأة رجلاً ، وهو لا يدرى ، أو يحدث العكس ، فيهيم بها الفتى ، وهى عنه لاهية.

والورطة الأكبر ، حين يتحاب الاثنان ، ثم تقف دونهما الأعراف والتقاليد المرعية ، عقبة لا سبيل إلى تجاوزها ، إلا بالاصطدام بما تعارف عليه الناس جميعاً ، وقد يكون هذا المتعارف عليه خطأ.

وإذا عدت إلى موضوع ليلى العامرية ، وحكايتها مع فتاها قيس بن الملوح ، فسوف ترى عجباً.

فالبنت تحب الولد ، وهو يحبها ، ولا شئ على الإطلاق يمنع أن يكون بينهما حب ثم لقاء فزواج بعد ذلك.

ولكن أهل العروس ، كانت رؤوسهم وألف سيف ، ألا يكون هذا الولد زوجاً لإبنتهم ، حتى وأن كان الرجال جميعاً ، قد اختفوا من على وجه

الأرض ، فتبقى المسكينة عانساً وتلقى ربها وهى على هذا الحال التعس.

والسبب الذى رفضوا من أجله ، أن تلقاه أو يلقاها ، هو أن العريس كان لا يكف عن قول الشعر ، وفى أشعاره لم يكن له هم ولا عمل إلا إظهار محاسن ليلى ، وجمالها ، ومفاتنها التى تخفى على العيون.

غير أنهم كانوا يحبون لابنتهم أن تحتشم ، وأن تخرج من بيت أبيها، إلى بيت العدل مباشرة ، دون أن يدرى أحد عنها شيئاً ، ودون أن تكون هى قد رأت رجلاً فى حياتها.

مع أن المتتبع لنشأة الحب بينهما ، سوف يجد أنهما كم تلاقيا وهما يرعيان الأغنام أو البهم على حد قول ابن الملوح حين كان ينعى تلك الأيام ، ويود أن تعود مرة أخرى!

وقد قرأنا فيما بعد عن امرأة جميلة جداً ولكنها جارية كانت تحب واحداً من أبناء الذوات ، وكان هو لا يلتفت إليها ، ولا يعرف أنها قد نذرت نفسها له ، وأنه قد عقدت العزم على شئ واحد : أما أن تتزوجه هو .. وأما فلا أحد من بنى آدم بعده.

وقد أتت من الحيل والالاعيب ، ما يكفى لأن تتعلق بها قلوب مائة رجل ،إلا هذا الفتى الذى كان ولا هو هنا تماما !!

ولما راحت الفتاة تستشير امرأة مجربة ، نصحتها بأن تتعرض له فيما تقول من أشعار ، وألا تكف عن التعريض به ، بالهجاء والقذف تارة وبغير ذلك تارة أخرى.

ولكن الوصفة ، كانت سيئة ومفسدة ، ولم تدرك المرأة وهى تنصح البنت أن المرغوب ـ فعلاً ـ ممنوع ، وبمعنى آخر ، المطاردة فى الحب لا تجدى ، وأن شيئاً لم يفسد أمر ليلى وقيس ألا أنه كان يطاردها بين الجبال ، ويترصد لها ، ويفاجئها وهى بين رفيقاتها ويتعقبها فى كل مكان ، فإن عزت عليه لجأ إلى الشعر ، يبث فيه ما عجز عنه فى أرض الواقع.

ولما اكتشف أن الشعر لا جدوى منه فى المطاردة وأنه قليل المفعول، تسلل إلى بيتها يطلب ناراً يستدفئ بها ، وكان منظره يدل على أنه لم يأت للنار ، ولا يحزنون ، وأنما هو عاشق ولهان ، يتعلل بأى شئ كى تجود عليه التى اختبات فى الداخل ، بنظرة !

والشاعر الذى وصف نفسه ، وزملاءه الشعراء ، بأنهم أضعف خلقه الله إنساناً .. لم يذهب بعيداً ، ولم يبالغ لأن شاعراً واحداً حقاً من قيس وامرئ القيس ، إلى آخر عاشق بينهم ، لم يستطع أن يتجاوز الكلام.

وغاية ما يستطيع أن يفعله بعد ذلك أن يتعرض لها فى بعض الطريق ، كما يفعل فى الشعر ، أو أن يدفع عليها أحداً سواه !

وليس من بينهم واحد قطع عرقاً ، أو سيح دما حتى ولو كان هذا الدم هو دم التى فتحت قلبها لرجل آخر !

اسألوا الحمار!

والحمار أيضاً ، يحب ويعشق ، كما أن للحمير فيما تهوى .. مذاهب!

فحمار بشار بن برد الشاعر العباسى الأعمى ، كانت له قصة حب طويلة ، مع حمارة لأحد أصدقاء بشار ، وقد استحى الحمار أن يعترف بذلك صراحة لصاحبه ، فمات أو نفق كما تنفق الحمير ، وحبه مكتوم فى صدره ، ثم زار صاحبه فى المنام ، يلومه ويعتب عليه !

ومن الواضح أنه قد أحب ، كالإنسان أحياناً ، من أول نظرة ، وكان ذلك عندما امتطاه بشار ، ليزور صديقاً له اسمه الأصبهانى ، وما أن وقع بصر الحمار على التى رآها فى بيت صديق صاحبه ، حتى أخذت بجماع قلبه ، وكادت تسلبه عقله - لو كان للحمار عقل - ثم قام بشار ، وركبه إلى البيت ، وهو لا يدرى أن المحروس - الحمار - قد عاد وقلبه معلق عند الأصبهانى!

كل ذلك رواه بشار لأصحابه ذات يوم ، على أنه رآه فى المنام ، وكانوا لا يصدقونه ، وهو يقطع بأنه حزين ، لأن الحمار قد مضى عن الدنيا ، ولم تسعفه الظروف ، ولا تهيأت له الأيام ، كى يهنأ بالتى هام بها ، من الحمير !

طبعاً ، من الممكن أن تكون المسألة ، خيالاً من خيال ، ولكن بشارا يقول إن الحمار حين زاره فى المنام نهق نهقتين وهو يخاطبه مغاليا دموعه :(سيدى مل بعنانى نحو باب الأصبهانى (إن بالباب أتانا فضلت كل أتان !!

فهو يطلب من بشار أن يميل بحبله نحو باب الأصبهانى ، لأن هناك أنثى حمار ، رآها مرة واحدة ، وبعدها لم تفارق صورتها خاطره أبداً !

لماذا ؟

إذا قرأت ما سرده الحمار لبشار ، وما نقله الأخير إلينا ، سوف تموت من الضحك ، من أمر ذلك الحمار.

فهى أنثى حمار - حسب رواية محبوبها الحمار - لها حسن ودلال ، وثناياها أى أسنانها حسان بيضاء ، وذات بنان وأصابع أصابته بالجنون من رقتها ، وخدها أسيل ، أى ناعم متورد أحمر ، ليس له مثيل .. إلى آخر تلك الأوصاف ، التى إن قرأتها دون أن تعرف حقيقة قائلها ، لم يخامرك الشك أبداً ، أنك تطالع أوصاف وملامح وسمات ، إحدى جميلات العالم ، التى لا سبيل إلى تكرار جمالها لدى أية فتاة أخرى !

ولو طوح بنا الخيال بعيداً ، ربما تصورنا وهو يتسلل من بيت صاحبه ، تحت جنح الليل ، ويناجيهما عند باب الأصبهانى ، ثم لا يلبث تناجيها أن يبلغ مبلغه ، حتى يأخذه الوجد ، ويغالبه الشوق ، فينهق نهقة مدوية ، توقظ بشارا والاصبهانى معاً ، ولا يكون لهما نصيب، إلا علقة ساخنة ، وعصا تهوى على ظهريهما لقاء ما باح به من حب ، لا يليق بالحمير !!

ولكنه ، كان حماراً يستحى ويعرف الخجل ، ولم يكن يريد أن يجرح شعور صاحبه ، ولا يحرجها هى فى بيت الأصبهانى ، فقرر أن يترك الأمر للصدفة ، إن شاءت ومال بشار نحو الأصبهانى ، كان بها ، وإن لم يكن ، فيكفيهما إنهما ذاقا طعم الحب ، ومن ذاق عرف ! وكان يعرف ، أنه لا صاحبه بشار ، ولا الأصبهانى ، ولا غيرهما من سائر الناس ، سوف يسمحون لهما بممارسة هذا الشئ الذى لا يعرفونه ، والذى اسمه الحب .. فقرر أن يأخذها من قصيرها ، ويموت ، حتى لا يطول هوانه !

وأظرف ما فى الموضوع ، أنه أبلغ بشارا ، فيما أبلغه ، أن خدها مثل خد الشيفران ولما سألوا بشارا عن معنى الشيفران ، قال : اسألوا الحمار !

ولم يسألوه طبعاً ، لأنه كان قد مات غما من بنى الإنسان !!

الصيت..ولا الغني !

لا شئ يدفعك إلى هذا الشاعر ، إلا اسمه ، ثم فعله ، وما كان من أمره مع زوجته :ورد.

وأحياناً يكون الاسم ، بلغة هذه الأيام ، اسماً فنياً موسيقياً ، يعلق بالأذهان ، ويضمن لصاحبه الشهرة السريعة ، والصيت الذى فضلوه على الغنى.

ولا ينطبق هذا المثل - الصيت ولا الغنى - على واحد من الشعراء ، كما ينطبق على صاحبنا : ديك الجن !! نعم ديك الجن.

إن اسمه كما ترى يغريك بأن تبحث فى أصله وفصله ، لتعرف كيف كان ديكاً للجن ، ثم ما هى الفرخة .. فرخة الجن ، ان كان هو الديك ، وهل هى امرأته ورد ، أم إنها فرخة أخرى.

آسف أقصد امرأة أخرى.

ولن تجد ما يشفى غليلك ، اللهم لا أنه لقب ، خلعوه عليه ، واشتهر به ، من قبيل الأسماء الغريبة ، والشاذة ، التى كان أهل الريف ، ولا يزالون يطلقونها على صغارهم ، كى يعيشوا ولا تمتد إليهم عين الحسد.

فهو واحد من شعراء العصر العباسى ، لا يرتقى بطبيعة الحال ، إلى قامات بقية شعراء ذلك العصر ، من أمثال بشار بن برد ، أو أبو نواس أو أبو تمام وغيرهم.

ويبدو أنه قرأ عن بعضهم ، أنهم كانوا يشربون ، فتتفجر فيهم مواهب الشعر.

وتنطلق ألسنتهم بالقصائد التى تصل من الأبيات مائة ثم تزيد .. فأراد أن يقلد ، وأن يشرب ويعب ويسرف فى الشرب ، على نفسه وعلى الآخرين ، حتى كان فى ذلك هلاكه ، وهلاك امرأته ورد معاً .. ثم خادمه كذلك.

وكانوا كلما طالبوا منه أن يترفق بنفسه ، وأن يشرب–أن كان لابد من ذلك - فى غير إسراف ، رفض وكان حاضر الجواب على كل من يلومه أو يعتب عليه : تسقيك كأس مدامة من كفها وردية .. ومدامة من ثغرها !

والمدامة ، أو المدام هى الخمر.

وكان حتف ورد على يديه ، وبطريقة الخطأ ، التى أورثته ندماً لا ينقضى ، وحزناً ظل ينفثه أبد الدهر ، حتى وافاه أجله.

فـقد كـان له خـادم يسـاعـده فى بعض أمـوره وكـانت امـرأته ورد ، جميلة ، تزوجها عن حب ، وقال فيها شعراً ، وهام بها صادقاً.

ولكن واحداً من أولاد الحرام ، دسوا لها عنده ، وكان عائداً من سفر، فأوهمه أن علاقة غير شرعية تقوم بين امرأته ورد ، وبين خادمه .

وعلى طـريقـة حـوادث القـتل ، التى تطـالعـهـا كل يوم ، أسـرع ديك الجن ،يرمى ورداً بسيفه فى نحرها ، حتى ماتت ، ثم رمى الخادم فقتله هو الآخر ، وبجوار الجثتين جلس يبكى ويعترف أنه القاتل !

وليـتـه أكـتـفى بذلك ، وإنما قـيل أنه صنع من رفـاتهـا ، أى تراب جثمانها كأساً يشرب فيها ، وصنع كذلك من رفات الخادم كأساً أخرى ، وكان إذا هجم عليه الحزن ، أحضر الكأسين ، وجلس يتأملهما ساهماً ، ثم يرفع هذه إلى شفتيه فيقبلها ، ويكرر قبلته للكأس الأخرى ، ويبدأ فى قول الشعر والبكاء ، حتى يذهب وعيه أو يغالبه النوم فيغلبه .. فينام !

كان كلما أراد أن ينسى ، أحضر الكأس ، فإذا أدار الكأس بين يديه ، ذكرها ، وظل يبكى ، حتى يغيب عقله ، فإن عاد إليه بدأ من جديد !

طال به الشوق !

كم مرة ، مررت على عصفور ينتفض من قسوة البرد ، أو غراب جريح ، فاقتحمته عيناك دون أن تتوقف عند أي منهما ، أو غيرهما ؟

كثير جداً طبعاً ، فلا أحد عنده وقت أو عقل ، يقف عند كل عصفور أرهقه الصقيع ، ولا أمام كل غراب طارده الصبية حتى أدموا قدميه !

لكن الرجل العربى البسيط ، الذى نشأ فى الصحراء قديماً ، ولم يكن عنده إلا الناقة يمتطيها فى أسفاره الطويلة ، وبعض التمر واللبن ويقيم عليهما حياته على وجه الأرض ، هذا الرجل لم يكن يفوته شئ من هذا ، دون أن يرى فيه حكمة ، أو يلمح فيه شيئاً غير ظاهر للعين المجردة .

إن رجلاً طال به الشوق لحبيبته ، وأضناه طول البعد عنها ، وكانت هى تلاوعه ، وتتدلل عليه ، وتريد أن تختبر مدى قوته ، وصبره

عليها .. هذا الرجل رأى ذات العصفور ، فأنتفض على انتفاضته ، وبسرعة كان قد سجل كلمات قليلة ، من وحى العصفور ، كانت سبباً فى أن تعجب به ، فتاته ، وتستجيب له سريعاً ، لأنه - ببساطة كان يراها كامنة خلف كل شئ يصادفه فى حياته .. بعث إليها رسالة من بيت شعر واحد ، موجزه : وإنى لتعروني لذكراك هزة ، كما انتفض العصفور بلله القطر !!

وهى صورة نادرة كما ترى ، ورغم بساطتها وسهولتها على أى لسان ، إلا أن خلفها معنى جميلاً وعميقا.

هذه واحدة.

وواحدة أخرى ، كانت مع آخر لفت نظره شئ غريب ، وهو أن غراب البين ، والبين تعنى الفراق ، ولا تدرى حتى الآن ، لماذا ظلم العرب الغراب ، وأطلقوا عليه هذا الاسم التشاؤمى ، وجعلوه رمزاً لكل فراق بين حبيبين . هل لأنه يوم طار فى عمق السماء ، وأرسل صيحته المميزة ، كان هابيل قد افترق عن أخيه قابيل ، الذى قتله ، ولم يعرف كيف يخفى أثار الجريمة حتى علمه الغراب ذلك ؟!

ربما ، وأنت تستطيع أن تستخرج من قصة قابيل وهابيل ، والغراب ، فى القرآن الكريم ، ألف معنى ومعنى.

ولكن المهم أن رجلاً عربياً آخر ، الذى لاحظ أن غراباً أعرج ، يحجل على قدم واحدة ، ويقف مع طائر آخر من أجمل الطيور صوتاً وشدواً ، وكان من الطبيعى أن يمر عليهما ، ويخلفهما وراءه ، ثم يمضى إلى حال سبيله ، فليس فى الأمر شئ يستحق الوقوف.

غير أنه وقف يراقبهما طويلاً ، حتى فوجئ بأنهما يحجلان معاً ، وأن شيئاً واحداً أصاب قدميهما ، وكان قبل أن يلحظ هذا الذى جمع بينهما يتساءل : ما الذى جمع الشامى على المغربى ؟!

ولم يكن لتساؤله أن يطول ، حتى انطلق لسانه بكلمة من وحى هذا الموقف ، صارت بعد ذلك مثلاً ، لأنها صادقة تماماً : إن المصائب تجمعن المصابينا !!

تجمعهم ، وليس بينهم أدنى رابط ، إلا أواصرها هى ، إن كانت للمصائب - والعياذ بالله - أواصر !!

وثالثة ..

عندما أراد رجل عربى ، أن يسب أعداءه ويهجوهم ، ولم يجد أمامه فى الصحراء الممتدة ، إلا ناقته ، وما أن رآها ترعى بعيداً ، حتى توقف عندها قليلاً ، وتأمل تركيب جسمها ، وأطرافها كيف يعلو واحد ، وينخفض آخر ، وهنا أعجبه هذا المعنى ، وجرى لسانه بأن قوم أعدائه هؤلاء هم الأذناب ، والأنف غيرهم .. ومن هذا الذى يسوى بأنف الناقة .. الذنب ؟! أى الذيل الذى هو فى أدنى موقع من الناقة ؟!

أرأيت كيف كان كل شئ رغم بساطته الشديدة - والأمثلة لا حصر لها - له معنى جميل ، ثم كيف نبتذل الأشياء ، فتقتحمها العين سريعاً ، ولا تستوقف أحداً فضلاً عن أن يكون لها معنى ؟!

الحب الأول !

ما ندم حامل رسالة أبداً ، كما ندم ذلك الشاب ، الذى اشتغل ساعياً للبريد ، أياماً طويلة ، بين عاشقين ، ثم كتب له الله ، أن تكون الفتاة التى أغرقها بخطابات الحب والهيام – من رجل غيره – هى زوجته على سنة الله ورسوله !

كيف ؟

قضاء وقدر !

فالفتاة ، كانت جارية ، فى بيت من بيوت الملوك ، أيام الفقيه القاضى ، ابن حزم الأندلسى .

والزمان ، بذلك ، يصبح محصوراً فى بدايات القرن الخامس الهجرى .

وشأن آيه بنت ، جارية كانت أم أميرة ، أحست تلك الجارية ، أنها تميل إلى فتى من فتيان مولاها ، صاحب القصر الذى تعيش فيه ،وكان الفتى هو الآخر ، يميل إليها ، ولم يكن من الممكن أن يلتقيا ، أو يبوحا بحبهما لأحد.

وقررا أن يكتفيا بالرسائل المتبادلة ، حتى يقضى الله أمراً كان مفعولاً.

وكان لابد من رسول ، يروح ويجئ بالخطابات بينهما ، وأن يكون ممن يكتمون السر ، ويجعلونه فى بير لتبقى المسألة فى نطاقها المحدود!

واختار الفتى العاشق ، أحد أصدقائه المقربين ليقوم بهذا الدور ، ويسعى بالغرام بينها وبينه ، دون أن يلحظ أحد من سكان القصر ، أن هناك شيئاً يربط ما بين الجارية والفتى !

ومضى الصديق يؤدى مهمته سعيداً لأنه فيما يبدو كان ينوبه من الحب جانب !

وليس كل ما يتمناه المرء ، يدركه .. فكثيراً ما تتاح الفرص الكبيرة، للعاشقين وغيرهم، فى الزمان الخطأ.

والفرصة حين تكون متاحة ، ثم لا تتهيأ لها الظروف ، تبقى شيئاً مهدراً!

وهذا ما حدث بالضبط ، بين الفتى والجارية ، من ناحية ، والصديق من ناحية أخرى.

ففى صباح مشئوم ، وجدت الجارية نفسها، معروضة للبيع فى سوق الجوارى.

وكان على فتاها أن يسارع بشرائها ، قبل أن تذهب لغيره ، ولكنه كان حائراً كيف يبرر لأهله حرصه على جارية وتمسكه بها إلى هذا الحد ، الذى يثير الشكوك والتساؤلات!

ويبدو أنه لما أعجزته الحيل ، دفع صديقه ، ساعى البريد القديم ، كى يشتريها هو ، وتبقى فى بيته ، حتى يتهيأ الظرف المناسب !

واستيقظت البنت ، ذات صباح ، وقد صارت حرة لوجه الله ، لتجد أنها فى بيت قاضى الغرام القديم الذى حفيت قدماه ، بينها وبين الفتى!

ولأمر ما ، زهد فيها الفتى ، وبارك زواجها مع صديقه ، الذى كان يطبخ السم .. أسف ، أقصد الحب ، ثم لا يذوقه أو يتذوقه _ !

وكان الصديق العبيط – الذى صار زوجاً – يعتقد عن طيبة قلب ، أنها كانت تمزق رسائل الحبيب القديم ، أولاً بأول ، وأنها قد نسيت ذلك الحب الأول.

ولو كان قد أطلع على نظرية أبو تمام فى الحب ، وكيف أن القلب ، يبقى حنينه دائماً ، لأول منزل ، لكان قد رفض القيام بدور الزوج ، الذى فرضته الظروف.

فقد اقتحم عليها خلوتها ، ذات يوم ، فإذا هى تقرأ إحدى الرسائل ، التى حملها إليها زوجها ، فى الزمن الغابر.

ولم تكن رسالة واحدة ولا كان المكتوب فى الرسائل المضبوطة ، شيئاً هيناً.

وقبل أن يفتح فمه بكلمة واحدة ، كانت هى قد عالجت الموقف بهدوء متوقع ، فقالت : لقد حملتها أنت إلى بيديك.

ليطمئن قلبي !

فى تاريخ الطيور كلها ، ليس هناك طائر واحد ، مات ثم قام حيا مرة أخرى ، ليقص على رفاقه الطيور رحلة الموت والبعث من جديد !

ولكن هناك أربعة فقط من الطيور ، هى الى ذبحت ، وهى التى تم تقطيع أوصالها ، جزءاً جزءاً ، وتفرقت دماؤها وريشها فوق الجبال ، ثم أراد الله لها أن تقوم من جديد .. فقامت.

ونحن نعرف أن الرجل الذى كان يجادل إبراهيم عليه السلام . زعم أنه يستطيع أن يحيى الموتى ، ولما سألوه كيف يكون ذلك ، قال إنه يستطيع أن يأتى بإثنين ، من المذنبين مثلاً ، فيحكم على أحدهما بالإعدام ، ويعفو عن الآخر ، ويكون بذلك قد أحياه ، وكان يستطيع - من وجهة نظره هو طبعاً - أن يميته !

ولكن إبراهيم عليه السلام ، استدرجه فى الكلام ، وأراد أن يريه أن هناك فرقاً لاحد له ، بين الله الخالق ، وبين الإنسان المخلوق ، فسأله أن يأتى بالشمس من المغرب ، لأن الله يأتى بها من المشرق !

ولم يكن أمام الرجل ، إلا أن ينعقد لسانه عن الكلام ، وإلا أن يتوقف عن المماطلة ، والخداع ، واللعب بالكلمات والألفاظ ، كما حدث فى موضوع إحياء الموتى مثلاً !

والقرآن الكريم يصف الحالة التى انتابت صاحبنا ،، عندما وضعه إبراهيم عليه السلام، أمام هذا الإعجاز : شروق الشمس ثم غروبها .. يصفه القرآن فيقول : فبهت الذى كفر!

وقد أراد إبراهيم عليه السلام ، بعد ذلك ، أن يطمئن قلبه ، فأتجه إلى الله تعالى ، وسأله أن يريه سر هذا الإعجاز ، الذى إسمه الحياة والموت.

كيف يحيا الإنسان ، أو أى كائن آخر ، وكيف تسرى الروح فى جسده ، ثم كيف تصعد تلك الروح ، وكيف يموت ، وما هو بالضبط شكل وحقيقة هذا الشئ الغامض والغريب جداً .. وهو الموت

وجاء السؤال لإبراهيم : أولم تؤمن ؟

وأجاب : بلى .. ولكن ليطمئن قلبى.

ثم جاءه الأمر ، بأن يأخذ أربعة من الطير ، ويذبحهن ، ويفرق أجزاءهن على قمم الجبال ، فيجعل على كل جبل منهن جزءاً ، فإذ دعاهن أتينه سعيا.

ولابد أنها أول مرة ، وآخر مرة ، يموت الطير مذبوحاً هكذا ، بل ويتم تقطيع الأرجل والأجنحة والأحشاء ، ثم يعود ليحلق فى الآفاق ، طائراً من جديد .. إكراماً لإبراهيم عليه السلام ، وتثبيتاً للإيمان فى قلبه.

ولا تعرف ، هل قصت الطيور الأربعة ، على رفاقها بعد ذلك ، ماذا حدث فى تلك التجربة الرهيبة ، وما هو شعورها والسكين تحز رقابها.

وقد كنا، بغير شك ، فى حاجة شديدة لسليمان عليه السلام، الذى أعطاه الله القدرة على فهم الطير ، ومخاطبتها ، وسؤالها والجواب عليها، كنا فى حاجة إليه ، كى يستدرجها من الحياة (الطيور الأربعة) ومن فوق الجبال ، كما استدعاها إبراهيم عليه السلام ، من الموت ، ثم تقص هى على سليمان ، والدموع تتجمع فى أجفانها ، كيف كان طعم وطبيعة الحياة داخل الموت ، إن صح هذا التعبير ؟!

ولكن الطيور الأربعة قد مضت ، وصعدت روح إبراهيم إلى بارئها ، مقتنعاً مؤمناً موقناً ، بأن خلف كل شئ فى هذه الأرض ، قدرة آلهية ليست لها حدود !

غير أننا ، لا نزال فى حاجة شديدة ، لتأمل الظروف الخاصة جداً ، لتلك الطيور الأربعة ، المتفردة !

أول .. وآخر مرة !

أول وآخر مرة ، يقوم فيها شاعر ، بإعداد كوب من السم الناقع ، ثم يدور على الشعراء ، واحداً بعد آخر ، حتى يسقيهم جميعاً ، فيتجرعون كلهم رغماً عنهم ، ثم يتساقطون ، فيرضى صاحبنا بذلك ويستريح !!

أما الشاعر فهو جرير الذى عندما زهق ويئس من معاركه مع الفرزدق ، لم يجد وسيلة أفضل من السم ، يسكت بها تلك الألسنة الطوال الغلاظ الحداد .. ألسنة الشعراء فى نظره هو طبعاً .. فقال :

أعددت للشعراء سماً ناقعاً

فسقيت آخرهم بكأس الأول!

ولم تكن هذه هى المرة الأولى التى يتوعد فيها جرير الشعراء هكذا ، ويتهددهم ، وإنما كان قبل ذلك قد شبع هجوماً على الفرزدق ، وغيره ، حتى بلغ به الأمر أنه شبه نفسه بالنسبة لبقية رفاقه الشعراء بأنه

كالموت الذى إذا جاء فلا مفر لأحد منه ،شاعرا كان أو غير شاعر ، وكان يرد على الفرزدق الذى وصف نفسه هو الآخر ، بأنه كالقطران أو الزفت ، بينما الشعراء جربى ، فلا شفاء لهم إلا به هو !!

ولكن ، على كل حال ، لا الفرزدق ، ولا جرير ، ولا هما معاً مع كل شعراء الأرض يمكن أن يمثلوا شيئاً فى الهجاء والسب والقذف ، إذا ما قورنوا جميعاً بالحطيئة الذى لم يكف عن الهجاء حتى وجد نفسه فى قاع السجن ، والذى عندما لم يجد أحداً يهجوه ـ وكان قد فرغ من سب أمه وأبيه وأهله كلهم ـ عندما لم يجد إنساناً يصوب إليه رصاصاته ، ردها فى وجهه هو ، وهجا نفسه ، وراح يستقبح وجهه ، وينفر من طلعته _!! ويقول كلاماً مؤسفاً فى حقه هو.

ولكنى وقفت كثيراً ، عند المعنى الذى ساقه جرير فى كلماته تلك ، وتصورت أن خلف ما أنتهى إليه من إعداد سم ناقع للشعراء من أولهم لآخرهم ، سبباً قوياً ودافعاً أقوى لأن يفعل ذلك !

وسألت : هل هناك علاقة بين كلماته ومعناها وبين الصورة التى رسمها القرآن الكريم للشعراء ، من أنهم يتبعهم الغاوون ، وأنهم ـ وهذا أخطر ما فى الأمر ـ يقولون ما لا يفعلون ، وأنهم فى كل واد يهيمون ، ثم استثنى القرآن الكريم بعضهم من هذا الحكم القاطع ، ووضع شروطاً أربعة كما يكون الشاعر من تلك القلة التى لا تنطبق عليها ملامح ومعالم الصورة السابقة.

الشرط الأول أن يؤمن الشاعر ، والثانى أن يعمل الصالحات ، والثالث أن يذكر الله كثيراً ، والرابع والأخير أن ينتصر من بعد ما ظلم.

ومن الممكن أن نفهم هيام الشاعر في كل واد على أنه نوع من الخيال ، وشكل من الشطحات التي يشط فيها العقل ، ويشرد بعيداً ثم يعود .. هذا ما يمكن أن نتفهمه .. ولكنك لا يمكن أبداً ، أن تتقبل من واحد ، أن يقول ما لا يفعل ، خصوصاً إذا كان من الناصحين ليل نهار، وإذا كان ممن صناعتهم الكلام ، وإذا كان ممن لا يكفون عن تقريع المخطئين ، وملاحقتهم بسياط الكلام ، وتقريظ فريق آخر ، بالكلمات الحسنة المنتقاه !

غير أنك ، بعد أن نستعرض الشعراء كلهم ، واحداً تلو آخر ، لابد أن تقف وتنحنى احتراماً لزعيمهم قولاً وفعلاً ، أبو الطيب المتنبى الذى صدق قوله - فعلاً - مع سلوكه ، فسقط صريعاً على أيدى أعدائه ، الذين انفردوا به ، ولم يفكر فى الهرب ، فقد آمن بأنه من الضرورى جداً للإنسان ، أن يكون صادقاً مع نفسه ، ولو ساعة واحدة فى العمر.

فما بالك إذا كانت هذه الساعة ، هى لحظة الختام فى الحياة كلها ، كما حدث معه هو؟!

إذا شاب الغراب !

كان الله فى عون الغراب !

أنه طائر مسكين ، بائس ، سمعته سيئة بين رفاقه من الطيور ، وعند الإنسان كذلك ،وليس هناك طائر لاقى من الظلم ما لقيه الغراب ، فلا أحد يقبله ، والجميع يتشاءمون منه ، ويفزعون إذا سمعوا صوته ، أو نعيقه ، ويقرنون بينه وبين كل شر أو سوء قادم ، ولا يطيقون أن يروه فوق شجرة ، ثم لا يطاردونه حتى الموت !! .. لماذا ؟! لا تدرى.

هل لأنه كان شاهداً على أول جريمة قتل ، وقعت على ظهر الأرض ، عندما قتل قابيل هابيل ، فبعث الله غراباً ينعق فى الجو ، ويعلم قابيل كيف يوارى سوأة أخيه ، وكيف يبحث فى الأرض عن حفرة أو قبر ، وكيف يدارى فعلته الشنعاء ؟!

أغلب الظن أن الأمر كذلك ، وأن الإجحاف الذى أدرك الغراب ، والبهدلة التى واجهها على كل لسان ، تعود إلى تلك الواقعة التى روتها

سورة المائدة بالتفصيل ، وقد كان طبيعياً أن يكون شأن الغراب ، كشأن أى شاهد فى أية قضية ،عندما تترك جهات التحقيق الفاعل الأصلى ، والمجرم الحقيقى ، وتمسك بتلابيب الشاهد المسكين ، الذى اراد خيراً، وأحب أن يوفق بين الخصوم ، فلم يخرج من هذه الورطة إلا بتقطيع هدومه ، كما يقول المثل الشائع !

والحق أنك حين تسمع صوت الغراب ، وهو ينعق فى السماء ، أو فوق الخرائب وفروع الأشجار ، فإنك تكتشف فيه قوة ، ليست فى صوت أى طائر آخر ، صحيح أنه ليس شجياً ، ولا هو عاطفياً يخاطب القلوب كالبلابل مثلاً ، ولكنك - لأمر ما - إذا صادفته وهو ينعق يوماً ، فسوف تتعاطف معه تلقائياً ، وسوف تجد نفسك فى صفه دون تفكير ، وسوف تنصره فى مواجهة هذا الظلم التاريخى الذى عاناه.

والذين يكرهون الغراب ، ويمقتون صوته ، لا يعرفون أنه ينفرد بشئ ، يتمنى كل إنسان لو كان عنده هذا الشئ ، ولو تميز به بين بنى البشر ، كما تميز به الغراب بين كافة الطيور والغربان ..!!

أن الغراب لا يشيب أبداً ، وهو يموت كما ولد ، موفور الصحة ، ريشه أسود بنفس الدرجة التى نبت عليها ، وجناحاه كما هما ، وعليهما أثار الضرب والمطاردة التى لقيها الغراب عبر تاريخه وحياته.

والرجل العربى الذى تاه عن أهله ، ولم يعد عنده أمل فى أى يرى أولاده أو أسرته مرة أخرى ، وفقد الأمل نهائياً فى أن يكون له لقاء مع أحبائه وأصدقائه .. هذا الرجل لم يجد أفضل من الغراب ، يضرب به مثلاً ، ويجد فيه شبهاً بحالته هذه المأساوية ويقول بأنه إذا شاب الغراب، عاد إلى أهله ، وصار القار كاللبن الحليب !!

والسؤال هو : هل يمكن أن يصير القار أى الأسفلت والزفت ، مثل اللبن الحليب ؟! الجواب : مستحيل طبعاً .. وعلى نفس الدرجة من الإستحالة ، يقف الغراب وهو يتباهى بما أعطاه الله من فضل ، فجعله لا يشيب أبداً ، وجعل كل النساء يداعبهن الأمل ، فى أن يكن على شئ مما يتفاخر به الغراب ، فلا يشيب لهن شعر ، ولا بشرة ، ولا وجه ..!!

إن المرأة يتولاها الهلع ، إذا أحست بأن الشيب يزحف فى شعرها ، ويشيع فى رأسها الذى كانت تختال به على عباد الله ، بينما الغراب مطمئن إلى ذلك تماماً ، ولا يقلقه شئ !! فمن هو الأحق بالإشفاق .. الإنسان أم الغراب ؟!

لم يسمع أشعب عن مائدة ، سوف تقام، إلا وكان على رأس المدعوين إليها ، بغير دعوى من صاحبها ، أو حتى إذن من أهلها . ولم تقع عيناه على دخان يتصاعد من بيت جار أو صديق ، إلا وقد أدرك بفطرته أن شيئاً يطبخ في هذا البيت ، وأنه مدعو لا محالة لأن يأكل شاء الأصدقاء والجيران أم أبوا !

وإذا كان جحا قد أشتهر بنوادره في السخرية من الأوضاع المقلوبة ، واصطناع الغباء والحماقة ، وأحياناً الذكاء بين أهل المدينة ، فإن أشعب كان رجلاً أكولاً ، شغوفاً بأى طعام ، متهافتاً نحو كل وعاء.

أهدى إليه جاره يوماً ، وعاء مملوءاً باللحوم ، ربما إتقاء لشره كى لا يفجأهم وهم يأكلون فيفسد عليهم متعتهم.. وقد فرح أشعب بوعاء اللحوم فرحاً شديداً ، ومكث أسبوعاً يأكل ويدعو لجاره .. وبينما كان على وشك الاتيان على ما تبقى ، راح يفكر فى طريقة تجعل جاره يعيد إليه الوعاء مملوءاً مرة أخرى..

ووقع عليها أشعب.

اشترى وعاء صغيراً ، من نفس نوع وعاء الجار ، وانتظر حتى طرق عليه ابن جاره الباب يطلب الوعاء ، فحمل إليه الوعاءين معاً ، وقد اندهش جاره وأسرع يسأله ، فقال له أشعب : ولماذا الدهشة يا سيدى ، لقد كان وعاؤك حاملاً فى شهره الأخير !!، وقد أدركته آلام الوضع عندى ، فوضع وعاء صغيراً كما ترى ، ولم يكن من اللائق أبداً أن أخفى عليك ذلك.

كيف يا أشعب .. هل يلد الجماد ؟!

نعم يلد يا سيدى .. والله على كل شئ قديرا

والعجيب أن الجار انصرف من عنده ، وهو شبه مقتنع بما قاله أشعب ، وقد أراد الجار هو الآخر أن يختبر صدق أشعب ويستزيد من الأوعية فأعاد إليه في اليوم التالي ، وعاء أخر كبيراً ، مملوءاً بما لذ وطاب .. على أمل أن يلد هو الآخر ، فتكون تجارة رابحة .

خرج أشعب إلى جاره وهو يبكى .. ففزع الرجل وسأله عن سر بكائه فأخبره بأن وعاءه قد مات وهو يلد ، فقد أدركته الحمى فى ولادة متعسرة !! صاح الجار : هل تهزأ يا أشعب وتريد أن تقنعنى بأن الوعاء يموت ؟!!

سبحان الله يا جارى .. هل تصدق أنه يلد ، ثم تستبعد أن يموت .. أن الموت نهاية كل حى يا عزيزى ، ولا تحزن فسوف يعوضك الله خيراً !!

وانصرف الجار وهو يغلى ، ويعرف أن أشعب كاذب ، وأنه أحسن المكر والتدبير، وقد كان عليه – كأن الجار يحدث نفسه – أن ينتبه منذ البداية لألاعيب وفخاخ أشعب.

وقد جاء يوم آخر على أشعب ، لم يقع فيه على كسرة من رغيف ، حتى كاد يهلك من شدة الجوع ، فخرج ينقب فى الطريق عن أى شئ ، وكان حظه عسيراً سيئاً ، فلم يذق طعماً يذق طعماً لشئ فى ذلك اليوم التعيس.

وبينما هو كذلك، يتداعى من وطأة الجوع ، لقيه رجل فسأله من أين جئت يا أشعب؟ ولمعت فى ذهن أشعب فكرة فأجاب على أساسها سريعاً : من عند الأمير .. أن عنده مائدة حافلة بكل أنواع الطعام.

وأسرع الرجل يسابق الريح ، وأشعب يضحك ، ويضرب كفاً بأخرى، إذا ليس هناك أمير ولا مائدة من الأصل.

ثم لقيه رجلا وسالاه : لماذا يجرى صاحبنا هذا يا أشعب فأخبرهما بما أخبر الرجل الأول ، فأسرعا كى يصلا قبل الآخرين.

ولم يلبث أن لقيه جمع من الناس يسألونه عن سر الهلع الذى أدرك الرجلين ، وقد كانا عاقلين منذ قليل .. ولم يكذب عليهم أشعب وحفزهم على أن يسرعوا وألا يضيعوا الوقت .. وهكذا .. وهكذا وفى لحظة أكتشف أشعب أن كل المدينة تجرى نحو مائدة إقامها الأمير .. وقف أشعب وفكر قليلاً ثم استدار وراح يجرى كالمجنون خلف الجميع .. سأله أحدهم فأجابه : لا تعطلنى حتى أدرك المائدة !!

وفى لحظات اكتشف أشعب الحقيقة ن وتكشف الواقع عن لا شئ تماماً .. فقد صنع كذبة وجاهد كى يقنع بها الآخرين ، وما لبث ، وهذه هى المصيبة أن صدقها هو نفسه ، فأسرع يطاردها .. وكان هو أو من يعرف الحقيقة !!

قاعدة لا استثناء فيها !

الخمر.. أو هذا العريس !

ولا شئ ثالث بينهما.

هكذا اختارت المرأة ، وحسمت أمرها ، وراحت تناجى ربها ، ونفسها ، عسى أن تتحقق لها إحدى الأمنيتين .. وإن كانت الأولى قد بدت أيسر وأسهل.

والمرأة ، هى إحدى نساء القرن الهجرى الأول ، وبالتحديد أيام خلافة عمر بن الخطاب ، ثانى الخلفاء الراشدين . وقد كان هو الذى سمعها ، وهى تبث شجوها ، وشكواها ، إلى من يستطيع أن يكفيها.

كانت قد وضعت عينيها على رجل معين ، هو نصر بن حجاج ، وأصرت على أن يكون هو رجلها ، وزوجها .. وإما فلا رجال بعده فى حياتها أبداً.

ويبدو أن نصر لم يكن يدرى بما استقر فى قلبها نحوه ، أو كان يدرى ثم يتجاهلها عن عمد ، والمهم أنه لم يكن يلتفت إليها.

ولذلك راحت تطلب الخمر ، كى تشرب وتغيب عن وعيها ، وتنسى الدنيا كلها ، بمن فيها ، ومن بينهم طبعاً نصر بن حجاج.

ولقد فزع عمر ، حين سمعها ، وهو يمضى فى جوف الليل ، تواسى نفسها فى نفسها ، وتردد فى حزن الثكلى : هل من سبيل إلى خمر فأشربها ، أو هل من سبيل إلى نصر بن حجاج !!

وعمر كان يعرف أن لها زوجاًمات عنها ، وأنها حين تقول ذلك ، فهى فى الحالتين خاطئة أو مخطئة ! ولقد سأل عن نصر بن حجاج ، ولم يكن يعرفه ، وطلبه كى يعرف سر هيام الست به إلى هذا الحد . ولما جاءه ، عذرها عمر ، وأدرك أنها، أيا كانت الظروف ، على حق ، وبغض النظر عن كل ما يمكن أن يقال فيما بعد.

فقد بدا نصر ، وكأنه قد اقتسم الحسن والجمال مع نصف رجال الأرض ، ولذلك توقع عمر ألا تكون السيدة الولهانة تلك ، هى الأولى ، ولن تكون أيضاً الأخيرة ، وفكر فيما يمكن أن يفعله ، كى يجنبها ويجنب غيرها فتنة نصر.

أمره بأن يحلق شعره ، الذى كان يشكل جزءاً من جماله ، وبأن يخلع عنه عمامته التى تبدو وكأنه صندوق سحر ، وبأن .. وبأن .. حتى يبدو رجلاً عادياً، أو على الأقل يكون رؤوفاً بقلوب العذارى.

ولكن نصر إزداد حسناً ، بما طلبه منه عمر ، واكتشف ثانى الخلفاء الراشدين ، أنه أمام كائن جميل فى الأساس ، لا يستغل وسامته ودهاءه فى الإيقاع بالنساء ، وإنما كان على أخلاق ، وعنده مبدأ هو ألا يستغل حاجة ولا ضعف امرأة.

وأما حكاية افتتان النساء به ، فتلك مسألة ليست فى يده ، فهو - كما يقول المثل - لم يكن يضرب أية واحدة على يديها ، كى تجرى وراءه أو تتعلق به.

ولم يجد عمر أمامه إلا حلاً واحداً ، وهو أن ينفيه اختياراً ، وذلك بأن طلب منه أن يرحل إلى مدينة أخرى ، وأن يتقى الله فى قلوب الفتيات والنساء.

وفعلاً خرج نصر من المدينة ، دون ذنب أو جريمة.

وكانت تلك من المرات النادرة ، التى يجمع فيها الرجل بين جمال الخلق والخلقة ، فيكون ذلك عليه ، وليس له.

غير أن الدنيا لابد أن تعطيك شيئاً ، ثم تسلبك - فى ذات الوقت - أشياء -

وتلك قاعدة لا استثناء فيها.

اسم الشهرة.. محبوبة !

محبوبة ..!

امرأة عربية ، كان من الممكن أن يطويها الزمان ، فتمضى مثل زميلات ورفيقات لها كثيرات ، لا يذكرها ولا يذكرهن أحد.

ولا نعرف هل هذا هو اسمها الحقيقى ، أم أنه اسم شهرة ، اتخذته فشاع أمرها بين الناس ، لأنه أسهل وأيسر فى التداول بين ألسنة المعجبين والحاسدين معاً.

هى خادمة ، وبتعبير تلك الأيام - أيام الخليفة المتوكل - وصيفة ضمن وصيفات لا حصر لهن ، فلا راحت ولا جاءت على رأى المثل . ولكن الله وهبها صوتاً جميلاً ونفساً أكثر جمالاً ، وعقلاً أجمل وأجمل ، إن كان من الجائز أن يوصف العقل بالجمال.

ويقال أنها أهديت مع ٤٠٠ وصيفة أخرى ، إلى المتوكل ، فأنطلقت كل واحدة تقوم بما أسند إليها من مهام فى القصر .. إلا محبوبة فقد لاحظ المتوكل ، أن فيها شيئاً مختلفاً يميزها عن بقية النساء العاديات.

وربما كانت هى المرأة الوحيدة ، التى اختصمت مع المتوكل فى اليقظة ، ثم تصالحا فى المنام ، وأقبل كل منهما يعتذر ويعتب على الآخر طول الفرقة والخصام.

وهى المرة الوحيدة أيضاً ، التى قرر فيها رجل فى مكانة المتوكل ، أن يبتعد عن محبوبته ـ وكان لا يقدر على ذلك أبداً ـ ولما بلغ به الوجد مبلغه ، والحزن كذلك ، خيل إليه أنه قد صالحها فى منامه ، وأنها قد رضيت وطابت نفساً ، وقام من نومته سعيداً ، فإذا هو وحيد ، وإذا به يستحى أن يفصح عما رأى ، حتى لا يضحك منه وعليه رجال ونساء القصر ، ولم يفصح عما طاف به فى نومته ، إلا لصديق قريب كان يثق فيه.

وحتى الصديق ، أخذ كلام المتوكل بشئ من الحذر ، واعتبره نوعاً من التأسى ، ومواساة النفس فى النفس.

وبينما الرجلان جالسان ، يفكران فيما يروى المتوكل ، أقبلت إحدى نساء القصر ، تروى هى الأخرى ما هو أعجب ، إذ أبلغت مولاها المتوكل ، أنها سمعت محبوبة فى غرفتها تبكى إلى حد النحيب ، وتردد كاملاً موزونا لا تفهم من أمره شيئاً !

وسمع الصديق والمتوكل من المرأة وكان مجمل الكلام أن محبوبة تنعى حظها الأنكد ، الذى جعلها تحب ، ثم تستحى أن تبوح بما فى قلبها ، لأن بينها وبين الذى تحبه مسافة طويلة ،اجتماعية واقتصادية ، وإذا كان بينهما حب قديم ، فإنه هو الذى انقطع وهو الذى صارح وطب الود والحب .وأن الفرقة قد وقعت ، فعليه هو أن يبدأ طريق العودة.

وكان المتوكل ، يواجه نفس المأزق ، ويخشى على مكانته من رد فعل محبوبة ، فهى وأن كانت خادمة ، أو وصيفة ، إلا أنها تستطيع أن تقبل وأن ترفض فى شموخ اشتهرت به من زمان.

لذلك كان مما سمعته المرأة التى جاءت تبلغ أن محبوبة تطلب وسيطاً أو شفيعاً ، وكانت تقول :

فهل لنا من شافع إلى ملك

قد زارنى فى الكرى فصالحنى

والكرى هنا طبعاً يعنى النوم أو الليل وحين تقول أنه صارحها ، فهى تقصد أنه فارقها ، وأظهر لها بغضاً غير حقيقى.

عندئذ لم يجد المتوكل حرجاً فى أن يعاودها هو ، فالبادى ـ هنا ـ ليس أظلم !

وفوق كل ذلك : الستر !

مؤدبة ، ظريفة ، جميلة ،قريبة الشبة جداً بفلانة ـ ولك أن ترفع اسم فلانة هذه وتضع مكانه ما شئت من ملكات الجمال ـ ممشوقة القد، طويلة ، بيضاء شقراء ، شعرها أسود فاحم، ثغرها كأنه الصبح فى أجمل أيام الربيع ، ضحكتها كأنها صادرة عن حورية من حوريات الجنة ..!

لو نشرنا صفات تلك البنت ، فى باب أريد عروساً وعريساً لكانت قريبة جداً مما سبق ، ثم كان لنا أن نزيد : على خلق ، تعرف حدود الله ، وتريد شاباً على سنة الله ورسوله ، وتأبى أن تمنح شيئاً ، إلا أن يكون الله قد رخص به.

هل رأيت التزاماً فوق ذلك ؟

أنها بتعبير العصر ، تقدس الحياة الزوجية وتريد زوجاً وأولاداً وبيتاً ، وفوق كل ذلك: الستر !!

والعريس ؟

أما العريس فقد عرفناه من قبل ، وكان أجمل شباب اليمن ، بغير استثناء ، حتى أطلقوا عليه لقباً غلب عليه واشتهر به ونسينا اسمه الحقيقى ، ولم نعد نعرف عنه غير : وضاح اليمن.

وهى صفة كما ترى وليست اسماً ، وأن كانت تشير إلى مقدار ما وهبه الله من حسن وقبول !

وتعرف أنه كان العاشق الوحيد ، ربما الذى لقى حتفه بسبب نزوة من نزواته ، وأن مصرعه كان مأساوياً ، لأن سيارة لم تصدمه ، ولا أنهار فوقه جدار فقضى عليه ولا طلع عليه أصحاب ثار بايت فقتلوه .. كل ذلك لم يحدث . إنما داهمه زوج أحدى صاحباته الكثيرات ، فقام - أى الزوج - وحمله كما تحمل صندوقاً فوق يديك ، وحفر له ثم دفنه حياً !!

وهذه الميتة المؤسفة ، والفاضحة فى ذات الوقت ، كانت فى أرض الشام ، بالقرب من دمشق ، رغم أن موطنه الأصلى ، كما يدل لقبه ، هو أرض اليمن ، أى فى أقصى الجنوب.

ولو نشرنا صفاته هو الآخر ضمن باب أريد عروساً ، لكان هكذا : شاب طائش عنده من الحسن ما يكفى ألف شاب ويزيد . يؤمن بمذهب أبى تمام الشهير فى الحياة ، وهو أنك يجب أن تنتقل بفؤادك حيث شاء لك الهوى وأن تتيقن إلى أن الحب ليس إلا للحبيب الأول.

وهو شاب دفعه طيشه إلى مغامرات كثيرة ، كان الله يسلم فيها كلها ألا تلك التى هلك فيها المسكين ، فكانت ختاماً غير حميد !

والفتاة التى بدأنا بها ، كان يعرفها فى أرض اليمن ، وكان يحبها بصدق ويود أن ينحنى ليقبل يديها ، أو يقوم لأعلى ويتكئ بشفتيه على جبينها ، ثم يتحرك قليلاً إلى خديها .. إلى آخره !

وكان الولد كلما سألها شيئاً تبسمت ورفضت أن تعطى لا قبلة ولا غيرها على أساس أن ذلك كله حرام !!

ولكن من الواضح أن وضاح اليمن لم يتركها حتى لان دماغها ، واقتنعت بعد جهد كبير منه وعلى حد تعبيره ، بأن الله قد رخص وغفر اللمم !! فأعطت وهى راضية !

ولو عدت إلى القرآن الكريم فسوف تجد أن اللمم هى الهنات الصغيرة التى يأتيها الشاب رغماً عنه ثم يجد فى مغفرة الله لها متسعاً.

ومن الواضح أن البنت كانت قطة مغمضة كما يقولون وأن الله قد قيض لها وضاح اليمن ، كى يضيف إلى ثقافتها ومعلوماتها شيئاً جديداً، قال ، وهو يجاهد أن يجد مدخلاً إلى عقلها :

إذا قلت نولينى تبسمت

وقالت معاذ الله من فعل ما حرم

فما نولت حتى تضرعت عندها

وأعلمتها ما رخص الله فى اللمم

كانت تستحى إلى حد بعيد وكان هو يملك الجرأة لحد أبعد ، علاوة على عقله وثقافته التى مكنته من أن يجادلها هكذا بالتى هى أحسن حتى أقنعها !

ولكن لا عقله ولا علمه قد نفعه فى شئ ، فقد سيق إلى حتفه وكأنه معصوب العينين !

يحاصرك.. ويحاصرنى !

تقرأ فى الصحف ، من وقت لآخر ، أن امرأة قتلت زوجها ، أو كتمت أنفاس ابن زوجها ، وأنها فعلت ذلك عامدة ، كى يخلو لها الجو ، وتتهيأ الظروف مع عشيقها الجديد.

وينشغل الناس جميعاً ، وتصير الحادثة حديثاً على كل لسان ، وكل واحد يضيف إلى تفاصيلها شيئاً من خياله ، وبعضهم يتطوع لينصب من نفسه محامياً عن المسكينة ، وهى تبكى برفقة عشيقها أمام أجهزة التحقيق.

وينشط محاموها فى البحث عن ثغرة فى القانون ، يعلنون ويثبتون بها براءة ساحتها ، وكيف أنها معذورة ، وأن المجنى عليه كان يهينها ، وأنها كانت تحيا حياة سيئة ، وأنها فعلت ذلك وهى فى معرض الدفاع الشرعى عن نفسها .. إلى آخره !

وسوف نترك كل ذلك ، مؤقتاً ، ونعود إلى أول جريمة - ربما - وقعت من هذا النوع ، وكان ذلك أيام الخليفة الراشد الثانى ، عمر بن الخطاب ، لنرى كيف تصرف هو ، وكيف كان موقف الذين إستعان بهم.

مسرح الجريمة كان على أرض اليمن ، وكانت أطرافها ثلاثة : امرأة مع عشيقها قتلا زوجها ، وانكشفت فعلتهما ، وجئ بهما إلى قاضى اليمين فى ذلك الوقت!

ويبدو أنها كانت أول جريمة ، من نوعها ، تواجه القاضى فى تلك الأيام ، لأنه فى الحقيقة قد حار أمامها طويلاً ، ولم يستطع أن يقضى فيها قضاء حاسماً ، فيكفى أن نفساً قد ماتت بغير حق ، فلا مبرر - إذن - للتسرع فى الحكم على نفسين آخريين !

كان القاضى ، يقرأ فى القرآن الكريم ، أن النفس بالنفس .. إلى آخر الآية التى يمكنك أن تطالع نصها فى سورة المائدة ، وأن الجروح القصاص.

ولكن أمامه نفسين ، وليست نفساً واحدة ، فماذا يفعل ؟_!

سؤال وجيه ، خاصة وأن المرأة قد اعترفت ، وعشيقها قد أقر بما فعل معه.

واجتهد القاضى فلم يصل إلى شئ.

ورأى أنه من الأضمن ، أن يعود إلى عمر يسأله عن هذه الأزمة التى تواجهه لأول مرة ، ليحكم هو ، أى عمر ، ويتحمل مسئولية حكمه.

وحين وصلت لرسالة إلى عمر ، لم تكن حيرته أمامها ، أو أمام الواقعة ، أقل من حيرة قاضى اليمن.

فأحياناً تكون هناك قضايا فريدة ، بحيث ترغم أهل الاختصاص ، على وضع تشريع جديد لظروف لم تكن فى أذهان المشرعين وهم يضعون القانون.

ولما أحس عمر فى نفسه ، شيئاً من العجز ، لجأ إلى الإمام.

وهذا اللقب يطلق على واحد فقط ، فى تاريخ العرب والمسلمين ، هو على بن أبى طالب.

وفى الفقه الإسلامى ، شئ اسمه القياس ، ومعناه أنك يمكن أن تواجه فى حياتك ، مشكلة جديدة تماماً ، لم يسبق لك أن واجهت لها مثيلاً ، ولا سمعت أن آخرين قد وقعوا لها على شبيه .. فماذا تفعل ؟!

تلجأ عندئذ إلى القياس ، بمعنى أن تستحضر مشكلة أخرى شبيهه ، حدثت فعلاً ، أو حتى تتصور أنها قد حدثت يوماً ، ويكون الحكم فيها واضحاً قاطعاً ، ليس فى حاجة إلى جهد أو لف أو دوران.

وهى وسيلة عقلية مضمونة جداً ، ومأمونة أيضاً ، لا يستطيع أحد أن يشكك فى نتائجها ، لأن للعقل فيها دوراً كبيراً.

ولذلك سأل الإمام نفسه ، لو أن عشرين رجلاً سرقوا ـ معاً ـ ناقة أو جملاً ، وحظى كل واحد منهم بعضو أو جزء ، فماذا نحن فاعلون ؟!

قال الذين حضروا السؤال والقياس : سوف نقطع أياديهم جميعاً.

وقام الإمام يجيب على سؤال قاضى اليمن ، ويحكم بإعدام الرجل والمرأة سوياً ، ويضيف بأنه لو أهل اليمن اشتركوا جميعاً ، فى قتل الرجل ، لوجب قتلهم كلهم !

أرأيت كيف يسمو تراثنا المضئ بالنفس والعقل على حد سواء ، ولا يعرف شيئاً من هذا الغمام العقلى - إن جاز التعبير - الذى يحاصرك .. ويحاصرنى ؟!

هى..وأبوها !

أبن الوز ، يقولون إنه عوام !

والذين يضربون هذا المثل ، لا يقصدون بطبيعة الحال ، ذلك الطائر الذى يشق سطح الماء من شاطئ إلى آخر ، ولا يشيرون إلى ابنه الذى يشابه أباه !

فمن الطبيعى جداً ، أن يعوم هذا الطائر ، وأن يطفو فوق الماء ، وأن يأتى طائره الصغير سباحاً ماهراً أيضا.

ولكننا نقولها ، ونستدعيها من الذاكرة مباشرة ، حين نصادف واحداً من بيننا ، يرث عن أبيه شيئاً حميداً ، وربما تفوق عليه ، بإعتبار أن الزمن يندفع إلى الأمام ، ولا يدور إلى الخلف.

وسوف نختار معاً ، قيمة من القيم التى كان العرب - نقول كانوا - يحفظونها ، ويحافظون عليها ، ويفاخرون بها الآخرين ، كما يفاخر بها

بعضهم البعض ،ويعاير الواحد منهم الذين هم سواه ، إذا أحس أنها ، أى هذه القيمة ، منقوصة لديهم !

ولو فتشت طويلاً ، فلن تقع على غير القيمة التى فاخرت بها ابنة حاتم الطائى، العرب جميعاً ، وهى فى رحاب الرسول الكريم ، عليه الصلاة والسلام !

كانت أسيرة مقيدة ، دفعوها أمامهم ضمن آخرين ، دون تفرقة ، وبغير أن يدرك الذين أسروها ، أنها ابنة فلان ، وأنها تحمل فى داخلها قيمة عظيمة ، من النادر أن تجدها لدى امرأة!

والرسول الكريم ، حين أطلق سراحها ، وفك أسرها ، كان يعبر بذلك، عن تقديره لما كان يفعله أبوها.

وكان أبوها ـ فى عبارة واحدة ـ يحب مكارم الأخلاق !

وهى عبارة ، كما ترى ، تنطوى على معنى يسع الدنيا كلها ، ثم يزيد !

وتحتها يمكن أن تندرج أخلاق وقيم كثيرة ، كان حاتم يضمها جميعاً فى يده ، ثم يقف فوقها فلا يطاوله أحد.

والبنت ، وهى فى حضرة الرسول الكريم ، راحت تحصى ما كان يميز أباها ، وما رباها عليه . ومن بين ما أحصت ، كانت قيمة اكرام الضيف ، تقف وحدها بارزة ، فتجعل من حاتم سيداً فى هذا المجال.

وقبل حاتم ، أو بعده ، كان هناك كثيرون ، أنزلوا الضيف مكانته التى تليق به ، بل أن منهم امرأة أشعلت حرباً طالت ٤٠ عاماً ، لأن جارا لها ، قد أهان ضيفها ، فوجدت فى ذلك إهانة لها شخصياً.

هذه المرأة ، نعرفها جميعاً ونحفظ اسمها ، لأن الحرب التى قامت ولم تضع أوزارها، إلا بعد أن اهلكت آلافاً من الجانبين ، هذه الحرب ، حملت اسمها ، وهو : البسوس

وهى حرب جاهلية ، دارت رحاها لسبب قد يراه البعض اليوم ، مبرراً تافها ، وهو أن ضيفاً حل عليها ، قد أهين.

وكانت البنت ، وهى تكشف عن حقيقة شخصيتها ، من بين الأسرى جميعاً ، تسبح فى ذات الاتجاه ، الذى خاضه من قبلها أبوها.

ولو عدت إلى أى كتاب عن الأدب الجاهلى القديم ، تقرأ العبارات التى قالتها ابنة حاتم، وهى تكشف أوراقها أمام الرسول ، فسوف يأخذك العجب ، من هذه الفصاحة والبلاغة ، التى أورثها لها - فوق الكرم - أبوها.

ويجوز أن تسأل أنت : وما المناسبة . . مناسبة البسوس ، وحاتم وابنتة وغيرهم.

ويكون الجواب أن الذكرى دائماً ، تنفع المؤمنين ، ويجوز أن تنفع أحياناً ، غير المؤمنين ، وأن شيئاً مما اقتتل فى سبيله قوم البسوس ، ومما فك من أجله الرسول ، قيود ابنة حاتم ، كل ذلك لا نراه ، ولا نرى بعضاً منه نفاخر به الآخرين.

والمناسبة الأقوى ، أن كلمة ضيف لها مرادفات كثيرة ، وأن من بين هذه المرادفات ، كلمة : سائح !!

هل وصل المعنى ؟!

رسالة !

العدل أساس الملك .. عبارة ترفرف أمام أعين البسطاء .. من قديم، كأنها حلم.

وإذا ضاع الحق ، فلا عدل ولا ملك .

وبداية ضياع الحق . أن يكون للخفير قانون ، وللذين هم فوقه قانون آخر.

أو يكون ذات القانون ، ولكنه بحالات .. فساعة يتنبه ويتيقظ .. وساعة ينام عن عمد!

وإذا أردت أن تعرف كيف قام ذلك الأساس - العدل - ثم كيف انقض، فأبحث فى تاريخ هذا الرجل : عمر بن الخطاب !

طبعاً الظروف تغيرت ، هذا صحيح ، ولكن القواعد تظل قائمة فى كل الظروف ، فلا تهتز أبداً.

وإلا .. فما تفسير تلك الواقعة ، التى كان عمر أحد طرفيها ، وأبو موسى الأشعرى الطرف الآخر.

جندى بسيط ، لا حول له ولا قوة ، له حق عند أبى موسى الذى أعطى الجندى بعض حقه ، ثم استحوذ على الباقى ، بعد أن استكثر أن يكون لجندى من الرعايا ، خير كثير يحظى به دون الأمير : أبو موسى.

ولقد كان الجندى ، من النوع الذى لا يسكت عن ظلم يراه ، سواء فى حقه ، أو فى حق غيره ، ولذلك وجد جرأة كافية جعلته يطلب من أبى موسى أن يعدل ، وأن يتقى الله.

وخيل لأبى موسى أن الجندى قد تجاوز حد الجرأة إلى التبجح ، وأنه لابد أن يلقى الجزاء المناسب ، فقام وضربه وحلق شعره - وكانت طريقة من طرق العقاب فى تلك الأيام - ثم أمره أن ينصرف من سكات .. أفضل .. وألا يفتح فمه.

وقام الجندى من عنده ، واتجه فى الحال إلى المدينة ، حيث كان عمر يقيم الحق ، على ابنه حتى الموت تارة ، وعلى عمرو بن العاص ، حاكم مصر ، تارة أخرى .. أو على جبلة بن الأيهم ملك غسان تارة ثالثة .. وغير ذلك كثير.

وعاد الجندى برسالة قصيرة ، مؤداها أنك يا أبا موسى ، إن كنت قد فعلت ما فعلت فى الشاكى ، على مرأى من الناس ، فأجلس على الملأ ، وأترك الجندى يقتص منك حتى يرضى .. يرضى هو .. وليس أنت يا أبا موسى .. إن كنت قد فعلت ما شكا منه ، داخل بيتك ، فليكن اقتصاصه منك ، فى نفس المكان ، وبذات الأسلوب والطريقة.

ومن الممكن أن يتصور كثيرون ، أن هذه الواقعة وغيرها ، لم تحدث ، وإنما هى أشياء تروى على سبيل التأسى !

غير أنه إذا تصدى للحق رجال فلا خوف على أحد ، ولا شئ !

وقد كان من الممكن ، أن يعود الجندى بورقته أو رسالته ، فيختفى هو والرسالة معاً ، ولا يعثر أحد لهما على أثر ، على طريقة الصوفى أبو بشر الحافى.

والجندى لو كان يتوقع شيئاً من ذلك ، ولو بنسبة ١% ما كان قد سارع إلى عمر ، من الأساس.

لذلك دخل على أبى موسى ، مطمئناً ، وسلمه الرسالة ، فى فخر وكبرياء ، وكأنه مندوب دولة أخرى ، يسلم أوراق اعتماده سفيراً ، فهو يستمد قوته من سيادة بلاده.

وكان الجندى يستمد إقدامه ، من صلابة عمر.

ولا تعجب إذا عرفت أن كثيرين قد توسلوا إلى الجندى ، أن يتنازل عن شكواه ، وأن يعفو .. نعم يعفو عن الأمير !

ولكنه أبى وطلب الحق.

ولم يستطع أبو موسى أن يفتح فمه ، لأنه كان يعلم ، عن يقين ، أن فى المدينة رجلاً لا يعجز أن يجعله بين يديه فى نصف ساعة !

لذلك سادوا ..!

ولذلك......!!

قيراط حظ !

قيراط حظ ، كما يقولون ، ولا فدان شطارة !

وهو مثل شعبى صادق - ليس فيما يتصل بالمال فقط ، أو الجاه ، ولكن فى الحب أيضاً.

فليس المجنون وحده ، هو الذى أحب ليلى ، ولا ابن زيدون بمفرده ، هو العاشق الوحيد فى بلاد الأندلس ، ولكن لأمر ما ، يتعلق بطبيعة الحال بحكاية قيراط الحظ هذه ، ذهب الأول بالعشق كله ، واستأثر الثانى بالوجد مع فتاته ولادة .. ولم يبق شئ لبقية العشاق الغلابة !

إن كثيرين ، سواهما ، أحبوا وعشقوا وأفنوا أنفسهم فى سبيل حب عذرى عفيف ، فلم يسمع بهم ولا عنهم أحد.

وإلا .. فهل سمعت عن الشريف الطليق ؟

من المؤكد أن قليلين جداً ، خاصة أولئك الذين طالعوا تاريخ المسلمين فى الأندلس ، قد ألموا بطرف من قصته العجيبة ، فهو واحد من الأمراء ، وابن أحد ملوك العرب ، بالأندلس ، نهاية القرن الرابع الهجرى.

وهذا الولد عرف بنتا ، كانت إحدى جوارى أبيه ، وأحبها ، وأراد أن يتزوجها ، فرفض أبوه ، وكان على الشريف أن يقضى عقوبة المؤبد ، بسبب تلك البنت ، التى لا يعرف أحد اسمها ، ولا نعرف اسم الولد نفسه إلا بالكاد.

وحياة هذا الشريف مقسمة تقسيماً عجيباً ، فقد عاش ٤٨ عاماً : ١٦ خارج السجن يعرف الحب ويطلب من أبيه أن يقصر الشر ويزوجه بمن أحب ، و١٦ فى السجن لأنه قتل أباه عندما رفض ، ثم ١٦ خارج السجن ، يندم على قتل أبيه ، ويذكر الحب الذى .. كان !

ولو كان أبوه يقرأ الغيب ، ويعرف أنه سوف يدفع حياته ، ثمناً لجارية من جواريه ، لكان قد زوج الولد كل جوارى وبنات الأندلس .. لينجو بنفسه ، على أساس أنه يا روح ما بعدك روح !

غير أن الأمر لم يكن بهذه السهولة ، ولا بهذا اليسر ، لأن المشكلة التى زادت الحكاية تعقيداً ، أن الأب نفسه ، كان قد هام بالبنت.

أقول أنه يبدو ، لما فاتح أباه فى مسألة الزواج ، تعلل الأب بأن الولد لا يزال صغيراً، فقد أراد أن يتزوجها وهو ابن ١٦ سنة ، وكان يرى ـ الشريف ـ أن خير البر عاجله ، وأنه لا داعى للتأخير ، وليس هناك مبرر واحد للرفض.

وحين اشتم الشريف ، خبر تعلق أبيه بالعروس ، أدرك سر رفضه ، وحمل سلاحه وقضى عليه ودخل السجن راضياً عما كان منه ، وبما سوف يكون من سجن وبعد وفراق .. إلى آخره .

وسوف تجد كثيرين - بالآلاف وأكثر - يحافظون هذا البيت عن ظهر قلب :

أضحى التنائى بديلاً عن تدانينا

وناب عن طيب لقيانا تجافينا

وهى فقرة من رسالة ابن زيدون إلى ولادة .

وقد كان الشريف ، كابن زيدون ، ، شاعراً يقول كلاماً جميلاً فيمن أحب ، وحالت بينهما الظروف ، فى الحب والحياة كلها سواء بسواء ، فلم يحفظ أحد له بيتاً - وقد قال كثيراً - ولاستشعرنا حجم تضحياته وهى تفوق ما قدم ابن زيدون !

هكذا الحياة .. قيراط حظ ولا ...!

وكان لا يستحى !

كان عليه ، أن يدرك جيداً ، أن للعمر أحكاماً ، وأن ما يجوز فى الشباب ، لا ينبغى أن يكون إذ زحف الشيب فوق الرأس.

ولكنه - عبد الله بن عمر - بعد أن بلغ من العمر عتيا ، ظل مقيماً على ما نشأ عليه ، ولسان حاله يقول : وداونى بالتى كانت هى الداء.

والتى كانت هى الداء ، هى المرأة فى حياته ، وعلى لسانه.

وابن عمر ، حفيد عثمان بن عفان ، كان ولداً ربيباً لعمر بن أبى ربيعة ، بمعنى أنه تعلم منه كثيراً ، وسار على دربه ، حتى أعتبروه خليفة له ، على عرش النساء.

ولأنه خلط بين الحب والسياسة ، ولم يستطع أن يفصل بينهما بشكل قاطع - كما فعل أستاذه - عمر - فقد لقى حتفه ، بسبب هذا الخلط.

وحين بكت النساء وفاة عمر بن أبى ربيعة ، طمأنهن الرجال ، بأنه - أى عمر- ، قد ترك فيهم رجلاً يحمل الراية بعده ، هو عبد الله.

وكان عمر يعرف خطورة الاقتراب من امرأة رجل ، من الكبار والصفوة ، فى تلك الأيام .. كان يعرف الاقتراب منها شعراً ، فقط .. مغامرة غير مأمونة على الإطلاق ، ولذلك أغلق هذا الباب نهائياً ، وراح يدور حول النساء اللاتى هن دون ذلك.

ولكن عبد الله - وكان شيخاً - جرى لسانه بذكر واحدة من إياهن ، ولم يذهب لأبعد من مجرد ذكرها ، وبشكل عابر فى واحد من أبيات شعره ، فحملوه مقيداً إلى الحبس ، حيث مات هناك ، وهو يغنى ويبكى فى آن واحد، ويقول : أضاعونى وأى فتى أضاعوا !!

ومن الواضح أنه كان يقصد بعبارته هذه ، ما فعلته به النساء ، وما جلبه عليه عشقهن ، وشغفه الدائم ، وتعلقه الذى لم ينقطع بهن ، ولكنه ساق الكلام ، وكأنه موجه إلى طائفة من الرجال ، حتى لا يسوء الموقف ، ويضاعف له العذاب فى سجنه ، بتهمة التمادى فيما أمروه أن ينتهى عنه.

أراد أن يقلد عمر ، فاجترأ وذكر أم والى مكة ، وكان اسمها جيداء .. ذكرها دون أن يقرن اسمها بما يسئ إليها فقام الوالى يعلمه الأدب ، ويأمره بأن يكف عن عبث الشباب.

وكان قبل أن يتعرض لجيداء يطارد نساء كل القبائل ، فلا يعترضه أو يكلمه أحد ، وكم احتال كى يطلع على أسرار النساء ، لأنهن كن يعرفن فيه جرأة زائدة عن الحد ، ويعهدن منه تطفلاً لم يكن فى عمر ،

أستاذه الذى علمه كيف يحب ، ولم يعلمه كيف يحتاط ، ويحذر ، ففى الحب ، كما فى السياسة حدود وإشارات حمراء وخضراء.

تمنعت عليه إحداهن ، ذات يوم ، فارتدى ثياب بائع لبن ، وامتطى دابة ، ومضى ينادى على بضاعته ، وأقبلت التى أرادها مع صاحبات لها ، يشترين منه ، وينظرن إليه ويضحكن . كان هو يمد يديه بوعاء اللبن إلى عاتكة - وهى التى أرادها - ويتنقل بعينيه ما بينها وبين بقية النساء ، ويفتش عما جاء من أجله ، حتى افتضح أمره ، فصرخت فيه عاتكة ، وهى تقول : انصرف فلا حاجة لنا إلى لبنك !

وكان لا يستحى ، أن يذكر عاتكة وغيرها ، بما لم يكن بينه وبينها على الإطلاق ، ولذلك ساءت سمعته ، وصار من أصحاب الشبهات فى الحب ، لأنه كان لا يعف إذ تغزل أو غازل.

لقد أحب ، ولم يعف ، فمات قتيلاً ، ولو عف ، لمات شهيداً.

دون جدوى !

أضاع نفسه وأهله .. ثم جلس يبكى ويذكر الأيام التى خلت .. ولكن أى فتى أضاع؟

وكانت الخاتمة : حمامة تبكى على غصن شجرة ، فى أقصى بلاد المغرب ، وهو- المعتمد بن عباد- أسفل السجرة ، أو على مقربة منها، يجاوب القمرية (وهو اسم من أسماء الحمامة عند العرب) ويبكى معها وينوح ، كما تنوح النساء !

وعلى طريقة الفلاش باك فى الأفلام ، راح الفتى يستعرض فى مخيلته ، فى شريط طويل ، ما كان وما جرى !

كان الفتى حاكماً على أشبيلية ، بالأندلس ، إحدى قلاع وحصون العرب الكبيرة ، أيام عزهم الأكبر هناك، وكان قد تولى أمرها ، بعد أبيه المعتضد ، غير أن الابن قد هدم ما بنى الآباء ، وأضاع أمجاد

العرب والمسلمين ، وأهدر كل قيمة قاتلوا من أجلها ، فلم يكن بد من نفيه إلى طنجة ، بالمغرب ، حيث قضى أيامه الأخيرة ، مكسوراً ، جريحاً ، يعيش على الذكريات !

وقد كان على أبيه ، أن يدرك سوء أخلاق وسلوك ابنه مبكراً ، فينحيه بعيداً عما يتصل بمستقبل العرب والمسلمين ، فى الأندلس ، حيث مكث العرب ثمانية قرون متصلة كان ختامها ، الذى لم يكن مسكاً ، عام ١٤٦٢ .

فالولد ، حين ولاه أبوه إحدى مدن الجنوب ، اجتمع عليه أصدقاء السوء ، ولم يعد يعرف غير اللهو والخمر ، وتعرف هناك على اعتماد فتاته التى تزوجها ، وأنجب منها أبناءه فيما بعد!

ولكن الأب ، بدلاً من أن يقومه ، أحضره إلى أشبيلية ، وراح يدربه، ويعلمه كيف يحكم ، وكيف يأخذ أمور الناس والرعية بالرفق والحكمة ، وكيف يحافظ على أمجاد وملك آبائه وأجداده .. دون جدوى ..!

ولم يكد المعتضد يموت ، حتى عاد المعتمد ، سيرته الأولى ، وبدا أنها مسألة طبع ، وأن الطبع يغلب التطبع مهما كان .. وفى كل الأحوال..

ووصل به سوء الحال ، أنه راح يسالم الفونس السادس ملك قشتالة ، ويدفع إليه الجزية راغماً ، صاغراً.

وفى الوقت الذى كان فيه يستطيع أن يمتد بأشبيلية ، وأن يضيف إلى ما أقام أبوه ، سعى هو فى الهدم والتفويض ، حتى استغاث أهل أشبيلية وفقهاؤها ، بيوسف بن تاشفين ، أمير المرابطين ، الذى أخرجه منفياً ، فأمضى ما تبقى له من أيام، يلعق الجراح.

فى ذلك الوقت ، نهاية القرن الخامس الهجرى ، كان عصر ملوك الطوائف قد بدأ ، حين أستقل كل واحد منهم بقلعة وحصن ، وأنفرد بما صار تحت يديه ، ولم يعد يبالى بأمر الممالك الأخرى ، حتى انفرط العقد ، حبة تلو أخرى !

وفى طنجة ، وقف ينعى سوء الحظ ، ويرمى ببصره بعيداً ، فيتناهى إلى سمعه هديل قمرية تنوح وحيدة ، وعلى بعد أمتار منها ، قمريتان يداعب بعضهما البعض !

ثم ماذا ؟

إن أخوة يوسف ، عليه السلام ، جاءوا أباهم ، عشاء ، يبكون.

فمتى نكف عن البكاء ، ندماً واعترافاً بالذنب ، فى غير الأوان .. فأستدراك الأمر بالعمل - لا البكاء - أجدى وأنفع.

مشيناها .. خطى !

كم مرة ، سمعت عن قاطع طريق ، تحول فجأة ، وبقدرة قادر ، إلى تقى من أتقياء الله ، يعكف على القرآن ، ولا يفارقه ، وينتحى جانباً فى المسجد ، وحوله يتحلق مريدوه يدعوهم إلى عكس ما كان يمضى عليه ، وما كانت حياته تسير وفقاً له ؟!

وكم مرة صار اللص ، الذى له باع طويل فى الإجرام ، رجلاً قلبه معلق بالمسجد ، لا يفارقه حتى يعود إليه ، وبينه وبين بيوت الله رباط مقدس ، ومع الله رباط أشد قداسة ؟

لقد حدث ذلك كثيراً ، وليس هناك دليل أوضح من رابعة العدوية .

وليست نكتة أن لصا تسلل دارها ، وهبط يفتش فى القاعات ، فلم يصادف شيئاً له قيمة ، وكاد يقتلها وهى مستغرقة فى الصلاة ، ولكنه تمهل قليلاً ، عسى أن يفوز بشئ . فلما فرغت نظرت إليه ، وأدركت

مراده ، فوعدته بأن تعطيه مالاً ، بشرط أن يتناول إبريق الماء، ويتوضأ أولاً ، وله بعد ذلك ما يشاء من المال.

ويقال أنها كانت المرة الأولى ، التى يتوضأ فيها ذلك اللص ، وكانت الأخيرة كذلك التى يتسلل فيها إلى بيت أحد ، فقد صار بعد هذه الواقعة ، ينافس رابعة العدوية فى التقرب إلى الله ، وفى العطف على المساكين والسخاء على ذوى الحاجة.

وليست نكتة أيضاً ، تلك التى يروونها عن قاطع طريق ، لم يكن يرحم ، غير أن الله قد أراد له شيئاً فقذف به إلى بيت أحد أوليائه ، وبينما قاطع الطريق يستبين خطواته إلى داخل البيت ، تناهت إلى أذنيه صوت صاحبه وهو يرتل القرآن.

ولأمر ما ، وجد اللص نفسه مأخوذاً إلى ما يسمع ، ومشدوداً نحو قارئ القرآن ، ووجد نفسه وكأنه يسمع كلام الله لأول مرة ، وكان قد سمع قبل ذلك كثيراً ، فلم يؤثر فيه شئ وبعد دقائق ، وصل صاحب البيت إلى آية تقول : ألم يأن للذين آمنوا أ، تخشع قلوبهم لذكر الله وما نزل من الحق.

وهتف اللص من أعماق قلبه : والله قد آن . وكانت نقطة تحول كاملة فى حياته ، وبزاوية ١٨٠ درجة تماماً !

وعندما بلغ الوجد برابعة العدوية مداه ، تمنت من أعماقها أن يكون ما بينها وبين الله عامراً ، وما بينها وبين العالمين جميعهم خرابا !

ولقد كانت لرابعة صولات وجولات فى الحياة ، ولم تكن تعرف غير الليل والسهر الطويل ، ولم تكن تأبه بما سوف يكون ، ولا تعمل لغدها ساعة واحدة ، وكانت تخطب ود أشياء كثيرة ، وأشخاص كثيرين، ولم يكن بينها وبين كل ما هو متصل بالحياة الآخرة أدنى صلة.

لذلك عندما تحولت ، وانقلبت من الضد إلى الضد ، رفعت يديها تخاطب الذات الالهية فى علاها ، وتدعو بأدمعها بأنه إذا صح منه الود، فالكل هين .. وكل الذى فوق التراب .. تراب !!

والأديب الفرنسى أناتول فرانس كانت له قصة بهذا المعنى ، وكانت تروى عن رجل قضى عمره كله فى زاوية بعيدة عن الناس ، يتعبد ليل نهار ، ولا يفعل شيئاً غير ذلك على الإطلاق ، وفى يوم أخذه شئ من الملل ، وأراد أن يسرى عن نفسه قليلاً ، فضرب موعداً مع امرأة لعوب يقضى معها وقتاً سعيداً ، ثم يعود لما كان عليه.

وفى الوقت الذى اتجه هو لملاقاة المرأة ، كانت هى قد طلقت حياة اللهو والعبث.. ثلاثاً ، واتخذت خلوة فى أقصى الصحراء تنفق فيها ما تبقى من عمرها.

وقد حسمها شاعرنا أبو العلاء قبلهما معاً ، حينما صاح بأننا مشيناها خطى كتبت علينا ، ومن كتبت عليه خطى مشاها ! ومن كانت منيته بأرض ، فليس يموت بأرض سواها.

إنها الحياة التى تتلاطم أمواجها ، ولا تكف عن ذلك ، لتتقاذفنا من شاطئ لآخر !

وقام يكافئ الرجل !

أقبلت عليه الدنيا ...

وكان إقبالها فى لونه وشحمه ولحمه !

اللون صار فاتحاً أحمر يميل إلى البياض.

والنحافة إنقلبت ، بقدرة قادر ، لحماً على الأكتاف ، وشحماً متراكماً فى كل زاوية من جسمه.

وكان ذلك يوم تولى حكم مصر ! وأسمه عياض.

والذى ولاه هو عمر بن الخطاب.

وجاءت رسالة مسجلة بعلم الوصول ، إلى ثانى الخلفاء الراشدين ، عمر ، تحمل عبارة موجزة جداً : ويلك من النار يا عمر !

ولم تكن الرسالة مكتوبة ، وإنما منطوقة ألقاها صاحبها مصادفة ، حين مر على مجلس من أهل العلم والرأى.

وكان عمر بين الجالسين ، دون أن يعرف الرجل طبعاً !

ألقى الرجل كلمته ، ومضى يرددها فى مرارة وحزن !

وألتفت الحاضرون إلى عمر ، وفى أعينهم علامة استفهام ، عن حقيقة الرجل ، وعن معنى كلمتها التى ألقاها .. ومشى !

وقبل أن يسألوا ، كان واحد من بينهم ، قد أسرع بأمر من عمر ، فجاء بالرجل الذى لم يكن يتصور أن ثانى الخلفاء الراشدين بين رجال المجلس.

وتبين أنه واحد من أبناء مصر ، وأنه يعانى ، ومعه كثيرون جداً من سلوك وتصرفات عياض الذى ولاه عمر أمر أرض الكنانة ، ثم لم يلاحقه بالمراقبة والحساب.

ويلك من النار يا عمر !

أعادها على أسماع عمر ، وطلب إليه أن يرسل واحداً يتسلل إلى وادى النيل ، ثم يعود يروى له ماذا رأى وماذا يجرى هناك !

وعاد الرسول ، يخبر عمر بأن الأمور بفضل عياض تسير من سئ لأسوأ ، وأن شعار الناس هناك : استمتعوا بالسئ .. فالأسوأ قادم.

وجئ بعياض بين يدى أمير المؤمنين ، الذى أحضر قطيعاً من الأغنام ، وعصا ، ودفعه خلفها يرعاها كما كان قبل أن يوليه عمر !

وتبين أن جهاز التفتيش والمتابعة والمراقبة - عند عمر - كان معطلاً تماماً ، وكان رجال الجهاز يقتسمون أرزاق الناس وحقوقهم مع عياض، ويتركون عباد الله ، فى فقرهم وبؤسهم وتعاستهم يترددون !

وقبل أن ينطلق عياض ، خلف أغنامه يرعاها ، كان له مع عمر حساب عسير.

وكم ندم عمر على ما سبق منه من تقصير ، ما كان أن يقع.

وقام يكافئ الرجل ، صاحب الرسالة ، ويقبله ويشد على يديه ، لأنه وجه أنظار الخليفة إلى ما يعانيه أبناء إقليم من أقاليم الدولة .. فمصر أيامها كانت جزءاً من الدولة الإسلامية الكبيرة.

وأدرك ـ يومها ـ خطورة أن يترك رجاله وأهواءهم ، يعبثون بحقوق الناس ، فلا يردعهم أحد .. إلا أن يتابع هو .. وبنفسه.

جريمة.. والشاهد: حمار!

بعد التحرى والبحث . تقرر حفظ القضية ، وتقييد الجريمة ضد مجهول. ورفع الملف بأكمله لحين توافر المعلومات والأدلة القاطعة التى تنصف هذا الرجل.

أما الرجل فهو الحاكم بأمر الله. ثالث خلفاء الدولة الفاطمية ، وربما كان أقواهم ، وأكثرهم تشجيعاً للعلم ، وحباً للعلماء ، وعملاً للدنيا والآخرة معاً.

وليس هناك حاكم تولى أمر مصر ، وتلقى سيلاً من الشائعات والحكايات الملفقة ، التى تتهمه فى عقله ، مثل هذا الرجل المسكين .. اتهموه بأنه أمر بتحريم أكلات معينة ، ولم يكن ذلك صحيحاً على الإطلاق ، واتهموه بأنه منع النساء من الخروج ليلاً ، وهذا صحيح ، لسبب بسيط ، وهو أن الاعتداءات عليهن أيامها كانت قد شاعت وانتشرت بشكل مخيف ، فلم يجد مفراً من منع الفتنة من جذورها ،

فأصدر تعليمات بألا تخرج المرأة ليلاً وحدها ، ولتكن محتشمة فى لبسها ، ولتكن معتدلة ، حتى لا تغرى أحداً.

ولكنهم عادوا بتهمونه بالجنون ، وبأنه أدعى الألوهية ، وبأنه رأى فى نفسه نبياً يحمل رسالة لابد أن يبلغها للناس ، ولم يكن ذلك صحيحاً أيضاً.

ويبدو أن كثرة تجواله ، بحماره الشهير ، فى أنحاء القاهرة ، ليقف على أمر الناس قد جنى عليه ، ودفع أعداءه لأن يطلقوا حوله الشائعات بأنه يخرج ليلاً وحده إلى جبل المقطم ، وأنه ينتظر هناك طويلاً ، وأنه يمضى على حماره يكلم نفسه ، إلى آخر هذه الخزعبلات التى لا أساس لها.

أما ست الملك ، أخته القوية ، فلم تسلم هى الأخرى من الألسنة الغلاظ الحداد ، وقد رموها بأنها جمعت مقاليد الأمور فى يديها ، وكان هو مجرد صورة أو ديكور ، وأنهاكانت تضع فلاناً من المسئولين ، وتعزل فلاناً ، غير أن الواقع يؤكد أنها باشرت شئون الحكم لسنوات قليلة جداً ، وأن الحاكم بأمر الله كان لا يزال صغيراً، فقد تولى حكم مصر وعنده عشر سنوات أو أكثر قليلاً فلما بلغ السن القانونية كان له شأن عظيم.

واتهموه بأنه أمر سكان القاهرة بأن يناموا نهاراً، ويعملوا ليلاً ، وأصل الموضوع أنه لما وصلته شكاوى كثيرة من السرقات التى أفزعت الناس ، رد عليهم بأن الحل بسيط جداً ، وأنه لا يتطلب منهم أكثر من السهر ليلاً ، قليلاً ، وفتح محلاتهم حتى ساعة متأخرة ، وإنارة الشوار ، حتى يقطعوا الشك باليقين ، ولا يجد اللصوص فرصة للانقضاض.

صحيح أنه حل ساذج إلى حد ما ، ولكن ثبت أنه كان صحيحاً ، وأن أحداً لم يذهب ليشكو من سرقة بيته أو محله بعد ذلك ، وأن الرعاع والهمج الذين كانوا ينقضون على أمتعة الناس من أطراف القاهرة ، قد خافوا وبحثوا عن عمل يقيهم من الموت ، فأصلحوا من أنفسهم.

ولكن يبدو أن بعض هؤلاء اللصوص ، قد تربصوا بالحاكم بأمر الله، وقعدوا له فى كل طريق ، حتى أغتالوه وقتلوه شر قتلة !!

ولا تزال قضيته فى حاجة لإعادة تحقيق من جديد ، ولا يزال الشهود فيها قلائل ، ولا يزال الرجل مرتبطاً بأشياء عبيطة فى أذهان العامة وبعض الخاصة كذلك.

ويقال أنهم بعد مقتله ، ظلوا أياماً طويلة يتحرون، ويجمعون المعلومات عمن فعلوا به ذلك ، وعمن تربصوا به الدوائر فأخذوه على خيانة ، إلا أن أحداً لم يصل إلى شئ مؤكد ، وانتهوا إلى عبارة واحدة ، لم يقعوا على غيرها : مات الرجل على أيدى مجموعة من الفقراء ، وعاد حماره حزيناً على صاحبه ، يريد أن يقول شيئاً ، ولكن ما حيلته ، وهو حمار ، ولو نطق حمار الحاكم بأمر الله ، لتغير مجرى التحقيق ، ولكانوا قد وقعوا على القتلة ، فسقط فى سبيل ذلك قتلى كثيرون ، وقد حفظت القضية ، ربما لأول مرة فى التاريخ ، لأن ، الشاهد الوحيد ، وهو الحمار ، لا يستطيع أن يبوح بشئ .. فلله الأمر من قبل ومن بعد.

لياليه.. ولياليها!

هذه المرأة ، كانت لها رغبة ، أو رغبات عجيبة ، وكان لها زوج لا يرد لها طلباً ، حتى جعلت نهاية ملكه على يديها الكريمتين !

هي أحدى نساء ملوك العرب ، أيام ازدهار الأندلس ، خلال القرون الثمانية الى مكثها المسلمون هناك.

اسمها اعتماد ، وكانت زوجة لواحد من قادة العرب ، وهو المعتمد بن عباد ، الذى كان فى وقت من الأوقات ، يجلس على رأس اشبيلية حاكماً لها.

ويروون عن لياليه الملاح ، وخمره ، ونسائه ، فى أيامه الأخيرة ، ما لا يصدقه عقل.

فهو أحد ملوك الطوائف ، الذين لما استقل كل منهم ، بمملكة من ممالك الأندلس (أسبانيا) تسلل الأعداء فيما بينهم ، ونشطوا فى بث الفتن والدسائس ، حتى زالت الممالك كلها.

وامرأته ، اعتماد ، رأت يوماً ، وهى مستلقية فى شرفة قصرها ، بعض نساء البادية الفقيرات البائسات ، تحمل كل واحدة منهن وعاء مملوءا باللبن ، وترفع ثيابها عن ساقيها، ويخضن جميعاً فى طريق من الوحل والطين اعترض مسيرهن.

وكان لابد ، من أن يرفعن أطراف الثياب وأن تبدو سيقانهن جميلة كما بدت ساقا بلقيس ملكة سبأ ، وهى تدخل عرش سليمان عليه السلام.

ولكن المنظر ، منظر النساء وهن يحملن أوعية وجرار اللبن ويخترقن الماء ، قد أعجب اعتماد كثيراً ، ونقلت رغبتها إلى زوجها ، بأنها تحب أن تفعل كما رأت من فتيات البادية.

ولأنها امرأة لأمير ، فلم يكن من الجائز ولا اللائق ، أن تخوض فى الطين ، فلابد أن يكون خوضها مختلفاً ، قلبا وقالباً كما يقال.

والتاريخ يروى أن المعتمد قد أمر باحضار كميات وعبوات لا حصر لها من العنبر والمسك والكافور ، وماء الورد، وجعل الحراس يفرغونها فى جانب من القصر وأمر فأضاف إلى كل ذلك ما يكفى من التراب ، حتى صار الطين ، فى قصره هو ، وربما لأول مرة ، مختلطاً بالعنبر وتفوح منه رائحة المسك !! تصور.

وبعد أن أجرى الحرس من البروفات ما يكفى أخبروا اعتماد أن كل شئ قد تهيأ لها ، وأنها تستطيع الآن أن تخوض ، كما خاضت النساء اللاتى رأتهن ولكنها سوف تخوض فيما لم يتوفر لملكة قبلها ولا بعدها.

وحتى حين أرادت أن تقلد ما رأت ، لم تهبط بنفسها ، وأنما دفعت وصيفاتها من الجوارى فرفعت كل واحدة منهن وعاء اللبن فوق رأسها

ومضين أمام اعتماد يرحن ويجئن ويرفعن الثياب عن السيقان ، وهى مع زوجها سعيدة جداً تضحك كما لم تضحك من قبل !

والذين رأوا وعاصروا تلك الملهاة المأساة كانوا مشفقين جداً على حالها ، وحال زوجها ولكن أحداً منهم لم ينطق ، لينبه المعتمد إلى أن حصون العرب فى الأندلس توشك أن تنهار بما يحدث منه ، ومن غيره من ملوك الطوائف هناك.

ولم يرتدع المعتمد عما كان قد مضى فيه ، وليست حكاية امرأته هذه إلا واحدة من فيض كثير ، حتى وجد نفسه مخلوعاً ومطروداً من الأرض التى سقاها آباؤه وأجداده بالدم .. فسقاها هو باللبن والعنبر !

ما أعجب الثلاثة !

أهل الريف - فيما يروون عن الأجداد وأجداد الأجداد - عندهم تفسير عجيب لرؤيا النائم ، أو للحلم الذى يراه كل نائم ، ويقوم مفزوعاً أو سعيداً حسبما رأى !

التفسير ، هو أن حلمك إذا ما تحقق ، فسوف يكون على عكس ما رأيته تماماً ، بمعنى أنك إذا رأيت - مثلاً - عزيزاً عليك يموت ، فإن تفسير ذلك ، أن مسافراً قريباً إلى قلبك ، سوف يعود قريباً ، وسوف تسعد به !

وإذا رأى تلميذ ، أنه قد سقط فى الامتحان ، فتفسير ذلك أنه من بين الأوائل !

وهكذا .. وهكذا !

وقد رأى هارون الرشيد ، ذات يوم ، فيما يرى النائم ، حلماً مزعجاً، فقام من نومه فزعاً ، يسأل أقرباءه ، وأتباعه أن يفسروا له ما رأى !

رأى ، أن امرأة توقظه ، وتأخذ من الأرض ملء كفها من التراب ، وتشير إلى الموضع الذى أخذت منه ، ثم تقول : هذه والله تربتك وقبرك يا هارون !!

ولو أخذ الرشيد بتفسير أهل الريف ، لكان قد استراح وأراح ، لأن ميزة هذا التفسير العجيب ، أنه يرد الشر ، ويجعله خيراً ، وفى أقصى الأحوال ، وأسوئها ، لا يلحق بك أى أذى !

لو حلمت - مثلاً - أنك عثرت على مبلغ كبير من المال ، فتفسير ذلك ، أنك لن تعثر على شئ .. أى العكس !

إذن ، يا دار ، فى كل الأحوال ، ما دخلك شر !

ولكن الرشيد ، لسبب ما ، كان موقناً بأن ما رآه حقيقة ، أو سوف يكون من الحقائق قريباً.

ولم يعدم الرشيد ، كثيرين زينوا له الحلم ، وأخذوا الرؤيا على محمل الهزل ، وأفهموه أن الناس جميعهم ،لو صدقوا ما يرون فى منامهم ، لكانوا قد هلكوا كلهم ، وما كان أحد قد استراح له جنب ، فالكوابيس فى حياة كل نائم ، لا نهاية لها.

والحل ؟

الحل أن يحكم كل نائم ، إذا نام ، غطاءه عليه جيداً، حتى لا تذهب به الأحلام كل مذهب !! وتطوح به بعيداً !

ولم يصدق الرشيد كل ما قيل ، وظل على يقين من أن ما رآه حق ، وأن تحققه سوف يقع عما قريب !

وحدث فعلاً ، أنه كان فى بعض الطريق ، فوقعت عيناه على امرأة فى شارع من شوارع بغداد، فأحدثت رؤيتها عنده ، ما يشبه الصدمة، التى إذا واجهها فاقد الذاكرة ، استعاد ذاكرته على الفور !

وعلى طريقة الأفلام العربية ، صاح الرشيد ، بأن المرأة ، وما تفعله، بالضبط ، هو ما رآه فى نومته - تفصيلاً - وأن المشهد الذى يعانيه الآن ، مسجل فى ذهنه ، بوضوح له مثيل !

ومضى الرشيد ، يهيئ الأمر لبقية الحلم ، فيشترى الموضع الذى اقتطعت منه المرأة كف التراب ، ويجعله قبراً له ، فيبنيه ويجهزه ، استعدادا لما سوف يكون !

وقد تحقق الحلم ، فعلاً - وليس عكسه - ومات الرشيد عما قريب ، من رؤيته للحلم والمرأة معا !

والأعجب من الحلم والمرأة وتفاصيلهما ، ما هتف به شاعر ، يرثى الرشيد.

غربت بالمشرق الشمس فقل للعين تدمع ما رأينا قط شمساً غربت من حيث تطلع !

ما أعجب الثلاثة : رجلاً يحلم موقنا بما رأى ، وامرأة تمثل ما لم تفعل طائعة ، ونائحاً ينوح كأجمل ما يكون !

لا عرفوا له أباً .. ولا أماً !

ليس وحده ، الحطيئة ، الذى سبق خصومه جميعاً ، وفوت عليهم الفرصة ، فى نقده أو هجائه وسبه بعد موته ، فقد أدرك منذ وقت مبكر، أن أحداً من العرب لا يهجو أحداً وهو فى سلطانه ، أو حتى وهو حى ، وإنما ينتظر قليلاً حتى يزول عنه كل ما يمكنه أو يؤهله للرد.

وبعد أن فرغ الحطيئة من سب كل الذين لقيهم ، سب زوجته وهجاها ، هى وأبناءها أى أولاده ، ثم وجه سهامه إلى نحره ، فقال فى نفسه ، ما يعجز أعداؤه جميعاً عن قول شئ منه .

وهو نوع من النقد الذاتى ، ولكنه مؤلم ، وإنه كان أرحم كثيراً ، مما تقذف به خيالات الآخرين .

والشاعر ثابت قطنة .. اسمه هكذا ، أحس هو الآخر ، أن أحداً من أعدائه ، وكانوا كثيرين ـ لن يرحمه ، فسارع وأراحهم كلهم ، ونقد نفسه، وشكله ، ونسبه .. نيابة عنهم.

والمسكين ، كان نموذجاً من الشعراء عجيباً فهو فيما يبدو لقيط ، أو أن أهله قد ماتوا عن آخرهم ، ولا يذكر هو منهم أحداً ، وكل الذين عاصروه ، لم يعرفوا له أبا ولا أما ، ولا شقيقاً ، ولم يجدوا بدا ، من أن يطلقوا عليه : ثابت قطنة!

وإذا كان اسم ثابت ، مفهوماً ، فإن قطنة له حكاية ، إذ من الواضح أن ثابت قد تشاجر كثيراً مع الذين كانوا يلاحقونه ، ويطاردونه ، ويعايرونه بإنعدام نسبه ، وفى إحدى تلك المشاجرات تلقى الرجل ضربة قوية ، ذهبت بإحدى عينيه ، وقد عاش ما تبقى من حياته ، وفوق عينه تلك قطعة من القطن ، لا تفارقه نائماً أو مستيقظاً ، حتى اقترنت به ، وتوارى اسمه القديم : ثابت العتكى ، وصار اسمه الذى يعرف به ثابت قطنة.

ولكنه استطاع ، كشاعر فنان ، أن يكتب لقطنته تلك الخلود ، فى بيت من أشعاره ، وأن يكتب يوماً :

لا يعرف الناس منه غير قطنته

ومأسواها من الأنساب مجهول

وقد عابوا عليه طويلاً ، كيف يهين نفسه هكذا ، وكيف يصرح بما معناه أنه إنسان لقيط ، أو ابن حرام ، وأنه كان من الممكن أن يزين صورته بيديه ، وأن يرسم بكلماته ما يشاء ، وما يحب أن يعرفه عنه الآخرون.

ولكنه رفض بإصرار ، وقال إنه يعرف جيداً ، أن المتربصين به سوف يقولون معنى هذا البيت ، بعد موته ، فلماذا لا يقوله هو، متسلحاً ببعض الصراحة والشجاعة ، وليس من العيب أن يكون الإنسان لقيطاً ، أو بمعنى آخر ليس ذنبه أنه جاء هكذا ، ولو كان الأمر بيده ، لكان مؤكداً أن يرفض ذلك.

ولكن المسألة الآن ، هكذا نتصوره وهو يخاطب لائميه ،أننا أمام واقع لا مفر منه .. واقع .. بالمعنى الحرفى والكامل لكلمة واقع ، ولا مجال لإنكار أو أخفاء شئ ، وإذا لم تكن عندى الجرأة الكافية ، للإعتراف بشئ من هذا القبيل ، فلا بد أن أتوقع ما هو أكثر من ذلك ، إذا ما مت ، وتمكن منى أحدهم.

والأعجب من كل ذلك، أن ثابت إفترض أن واحداً من أعدى أعدائه وكان شاعراً أيضاً، ولقبه : حاجب الفيل .. افترض أن حاجب الفيل هذا قد قال فيه شيئاً من معنى البيت المذكور ، فقام ثابت يرد عليه ، ويقول :

هيهات .. ذلك بيت قد سبقت به

فأطلب له ثانياً يا حاجب الفيل !

وقد حاول ، حاب الفيل ، أن يرد بشئ أو أن يجد معنى جديداً يهجو به ثابت أقسي من المعنى الذى أختاره صاحب القطنة فى هجاء نفسه ، فلم يقع الحاجب على معنى ، أو كلمة أخرى ، يمكن أن يكون لها أثر.

والشئ المؤكد ، أن ثابتاً كان قليل الشعر والكلام معاً ، وحين أراد أن يقول كلاماً فى نفسه ، لم يزد على بيت واحد كما رأينا ، وكان يرد على السائلين ، الذين يطلبون المزيد من الأشعار ، ويقطع بأن سر أزمتنا ، كعرب ، وسببها الأساسى ، أننا قوم قوالون أكثر منا فعالون إن صح التعبير.

فإذا رأيت إنساناً كثير الكلام - ولم يكن ثابت كذلك - فأعرف أنه لم ولن ينجز شيئاً له قيمة فى حياته كما ترى .. وكما رأى ثابت !

كان يعرفها !

غريب جداً ، أن يعشق الرجل بإذنيه ، لا بعينيه ، لا لأنه يخجل أن يرفع بصره فى وجه محبوبه ، أو انه قد طوح به الدهر بعيداً عن المحبوب ، وإنما لأنه أعمى !! ومولود هكذا، وسوف يبقى مكفوف البصر .. إنه قضاء وقدر.

ومن هذا النوع من الرجال ، كان بشار بن برد ، أبرز شعراء القرن الهجرى الثانى.

والعجيب أنه كان له أخوان : واحد أعرج ، والآخر أبتر.

وقد أرهق والديه ، من طول وكثرة الاعتداء على الجيران وأبنائهم ، ولم يكن يمضى يوم واحد ، إلا وعشرات الشاكين يتوافدون على أبيه ، يشكون هذا الغلام ، الذى لا يكف عن ضرب وإيذاء الأطفال.

وكان أبوه يضربه بعنف ، وأمه تطلب أن يرحمه ، لأنه صاحب عاهة .

وفى إحدى المرات ، إنهال عليه أبوه حتى كاد يهلكه ، وهو - الأب - يسائل نفسه ، ويضرب كفاً بأخرى ، وفى كل لكمة يتلقاها بشار ، كان معها سؤال ، عما يمكن أن يقال للجيران وأبنائهم ، وفجأة ، قال بشار وهو يصرخ من شدة الألم : قل لهم أنه ليس على الأعمى حرج.

وكما يقول القرآن الكريم ، فبهت الذى كفر ولم يعرف الأب أمام منطق الإبن ، كيف يرد عليه.

صحيح .. ليس على الأعمى حرج ، ولكن ليس فى هذا السياق ، الذى يصوغه بشار ، لأنه هنا ، بالضبط ، ينطق بكلمة حق ، يريد بها باطلاً !

وأمام تكرار الاعتداء من جانب بشار ، والشكوى من الآخرين ، لم يملك أبوه إلا أن يصارحهم فعلاً ، بأنه ليس على الأعمى حرج ، فانفضوا ، وكفوا عن الشكوى ، وهم يعجبون من هذا المنطق العجيب ، والنبوغ المبكر ، لصبى لم يتجاوز العاشرة من عمره.

ومن يومها ، أخذتهم الدهشة ، من بشار وهو يمضى - فيما بعد - فى وصف أشياء لا يمكن وصفها أو تجسيدها للسامعين بالكلمة ، إلا بالرؤية المباشرة ، والعين المجردة ، ولأنه جاء الدنيا مكفوف البصر ، فإن الإنطباع العادى ، والطبيعى جداً ، عند أى إنسان يسمع عنه أو يراه ، هو أنه والذين يماثلونه ، لا يعرفون معنى الظلام أو النور.

وبشار كان - مثلاً - يصف إحدى معارك قومه ، فيقول : كان مثار النقع فوق رؤوسنا ، وأسيافنا ليل تهاوى كواكبه.

سبحان الله .. مثار التراب فوق الفرسان والجنود ، وليل تتهاوى كواكبه ، إلى آخر تلك الصور - الصور مرة أخرى - التى لا يتعرف عليها إلا مبصر.

فالله قد أمسك بصره ، وأرسل له فى أذنه ، وفى عقله ، حتى صار حاد الذكاء قادراً على أن يعشق ويكره بالسماع ، ودون أن يفرق ما بين السوداء أو البيضاء ، أو يميز ما بين القصيرة والطويلة.

وبعد موته بأكثر من مائة عام ، لم يستنكف الجاحظ من القول ، بأن بشار كان من أعلم أهل اللغة العربية بها.

وقضى الله بأن يموت بشار ، ضرباً بالسوط ، وأن تكون جنازته موحشة ، كحياته ، فلا يشيعه إلى القبر أحد إلا جارية سوداء كان يعرفها !

إلى حيث مثواه الأخيرة !

الحمار ، الذى نتهمه كثيراً بالغباء دون مبرر ، كان شاهداً على نهايات كثيرين ، ملوكاً ومواطنين عاديين ومطربين وطوائف أخرى كثيرة ، وفى كل مرة ، كان الحمار هو الذى يخرج سليماً معافى ، بعد أكتمال خيوط الجريمة ، التى يكون صاحبه هدفاً لها، وليعود يخبر أهل البيت ما كان !

ولا يمكن أن يكون الحمار حماراً بينما هو قادر على أن يعود لبيت صاحبه ، وحده ، مهما كان الطريق طويلاً ، متعرجاً ، ومارآ ، بعقبات وعثرات كثيرة .

وحتى اليوم ، نفهم أن الحمار ، كان هو الكائن الوحيد ، الذى شهد مصرع الحاكم بأمر الله ، ثالث خلفاء الدولة الفاطمية وأقواهم على الإطلاق ، ولو كان الحمار يستطيع أن ينطق ، أو يدلى بشهادته بأية وسيلة ، لكان قد أخبر المصريين وقتها ، عن أوصاف ومعالم الجناة ،

ولكانوا هم قد وصلوا إليهم ، من خلال الأوصاف التى أدلى بها الحمار!! ثم قبضوا عليهم ، ودفعوا بهم إلى محاكمة تاريخية !

ولكن الحاكم بأمر الله ، وقد كان يعشق التجوال على ظهر حماره المفضل ، خرج ذات ليلة يمارس هوايته فى التماس أحوال المصريين بنفسه ، فأنقض عليه جماعة من اللصوص، فقتلوه ، وظل الحمار واقفاً - وربما مندهشاً أيضاً - حتى رأى مصرع صاحبه ، وقد تمنى أن يفعل شيئاً ينقذ به الحاكم بأمر الله ، غير أنه بطبيعة الحال كان عاجزاً ، فلم يملك أكثر من أن يعود ، وبقع الدم على ظهره تشهد بما وقع ، وهو كذلك يشهد ، ولكن ما قيمة شهادته ؟!

لقد حفظت قضية مقتل الحاكم ، وقيدت ضد مجهول ، أو مجهولين، ولم يفتحها أحد بعد ذلك ، لأن الشاهد فيها كان حمارا !!

وإذا كان الحمار قد شهد مسرح الجريمة ، وفى واقعة مقتل الحاكم ، ولم يستطع أن يغير مما رآه شيئاً ، فقد كان عضوا مشاركاً - رغماً عنه هذه المرة - فى جريمة أخرى ، قتل فيها الملك الأشرف ، أحد ملوك أسرة قلاوون ، التى تولت حكم مصر بعد فترة انقطاع طالت عقب موت الظاهر بيبرس.

والثابت أن جماعة من أعداء الأشرف من المماليك ، قد طاردوه طويلاً ، فتخفى هو منهم ، وظل كذلك متخفياً حتى اختفى فى بيت امرأة كان يعرفها ، ووعدته بالأمان ، ولكنها ما لبثت أن خافت على نفسها من انتقام أعدائه ، فأسرعت تحت جنح الظلام ، وأخبرت بمكان الأشرف

وقد جاءوا بحمار ، وحملوا الأشرف فوق ظهره ، بعد أن جعلوه عارياً تماماً ، وغطوا رأسه - لا تدرى لماذا - وظلوا يطوفون به شوارع القاهرة ، حتى انتهوا به إلى القلعة ، وهناك جعلوا يستجوبونه ساعات طويلة ، ويضربونه كلماً رفض الإقرار بما أرادوا ، وذلك فى مشهد أقرب لما تعرض له الإمام أحمد بن حنبل أيام الخليفة المعتصم !!

ويبدو أنهم يئسوا منه ، فضربوه هذه المرة حتى الموت ، ثم حملوه على ظهر ذات الحمار ، إلى حيث مثواه الأخير !!

والرجل العربى القديم ، الذى أحب أم عمرو ، وظل يتبعها كظلها ، ويطاردها ، حتى خرجت بحمارها يوماً ، فلا عادت ولا عاد الحمار !

ولا تدرى لماذا كان يسأل عنها ، ثم يعود ويسأل حتى عن الحمار ؟! وهل كان يطمع - مثلاً - فى أن يرشده الحمار عن موطن أم عمرو ،وعما انتهت إليه .. غير أن الحمار قد أخلف الظن به دائماً ، ففى المرات التى عاد فيها لم يكن لعودته أى نفع ، وعندما أراده صاحب أم عمرو لم يجده ولم يقع عليه أبداً ، وفى الحالتين ، وغيرهما ، أثبت بما لا يدع مجالاً للشك أنه .. حمار!!

واحد من وزراء زمان !

فى نظرك .. ماهى المؤهلات التى تهيئ أى إنسان لشغل وظيفة كبيرة ، أو صغيرة فى الدولة ؟

وقبل أن تجيب ، لابد أن ننبه إلى أننا لا نقصد تلك المؤهلات التى أحدثها هذا العصر ، من درجة ونوع التعليم ، وإجادة لغة أجنبية من عدمه ، وحسن السير والسمعة ، والإلمام بطريقة من طرق التعامل مع الكومبيوتر ، ثم مستلزمات كشف الهيئة والكشف الطبى .. إلى آخره .

هذه هى الشروط ، التى تطالعها فى أى إعلان ، يطلب شباباً للعمل .

ولأن الشئ بالشئ يذكر ، والضد ، كما نقول يظهره الضد ، فسوف نستأذن فى رحلة إلى بطن التاريخ ، لنرى من خلالها كيف كانت تلك المؤهلات ، وما هى بالضبط إمكانيات شاغلى الوظائف ـ خاصة الكبيرة منها والخطيرة ـ فى الدولة .

وحتى هذه المؤهلات التى سردناها ، بإعتبارها شروطاً عصرية للتمكن من العمل والصعود فيه ، لم تعد لها قيمة كبيرة ، لأن حقائق الأمور ، تقول أنها شروط شكلية ، لابد من الإعلان عنها ، لاستيفاء الإجراءات الشكلية .. وأكثر من ذلك ، فلا نطمح ولا نطمع فى شئ.

ولابد أنك سمعت ، مجرد سماع خير على الأقل عن الفضل بن العميد ، بإعتباره عقلاً من العقول العربية التى كان لها شأن كبير.

إنه واحد من وزراء الدولة العباسية ، وقد عاش ومات فى منتصف القرن الرابع الهجرى .. أى قبل ألف عام على نحو التقريب.

وليس لك حق ، إن كنت قد أسأت به الظن ، عندما لمحت كلمةوزير تسبق اسمه ، فاشتهاره ومقدرته فى علوم الدين ، والفقه ، والفلسفة ، والفلك أو النجوم ، ليس لها حد.

وإذا كان من الجائز ، أحياناً ، أن ينبغ التلميذ ويتفوق على أستاذه ، فقد كان أبو حيان التوحيدى ، تلميذاً تربى على يدى الفضل.

ولك ، عندئذ أن نقول : هذا حال التلميذ .. فما بال الأستاذ ؟!

وإذا كان الكلام عن مواهب ونبوغ الأستاذ ، يطول ويتشعب ، فإن الذى يهمنا هنا ، هو أن نشير إلى شرطين ، كان الفضل بن العميد يضعهما مقياساً لشغل أية وظيفة ، وبل ومعياراً لمعرفة قيمة أى بنى آدم جاءه يسأل شيئاً.

وسياق الكلام ، عن الدولة العباسية ، يوحى طبعاً بأن الفضل كان يعيش فى بغداد.

وهذا هو موضوع ، أو موضع السؤال والشرط الأول : ماذا تعرف عن بغداد ، كواقع وتاريخ ؟

إذ ليس من اللائق أن تعيش فى بلد تجهله ، وتموت وأنت لا تعرف اسم الشارع الذى يليك ؟

ولا تفزع إذا عرفت أن كثيرين ، اليوم يأتون الدنيا ويرحلون عنها ، دون أن يروا ـ مجرد رؤية ـ الأهرامات ومعابد الأقصر ، بل وبعض أحياء القاهرة العتيقة.

والشرط الثانى ؟

ما الذى تعرفه عن الجاحظ ؟

وما رأيك فيما كتب وما قال ؟!

وإذا عرفت أن الجاحظ ، كان رائداً من رواد العقل فى التراث العربى ، وأنه ملأ البصرة نوراً ، فى منتصف القرن الثالث الهجرى ، وأنه لا يزال نموذجاً فريداً للرجل يجمع من كل علوم الدنيا بطرف إذا عرفت كل ذلك ، فسوف تكشف بسهولة ، هدف الفضل من وراء هذين السؤالين.

إنه يسأل مرة عن الواقع ، حين يطلب معلومات من من طالب الوظيفة عن بغداد !

ثم يسأل عن التاريخ والعقل معاً ، متخذاً الجاحظ سبيلاً إلى ذلك.

وإذا أخذت بالواقع والتاريخ ، فلست فى حاجة بعد ذلك ، إلى واسطة ترشحك ، وتستولى بها على مكان غيرك.

هذا هو حال وزيرهم ، وشاغل وظيفتهم ، فى تلك الأيام .. فكيف حالنا نحن ؟!

أسوأ مما ، وممن ترى .. لا تجد !

والباقي على الله

أطلب ، وأعشق .. والباقى على الله !

وقد طلب أخ لك من قبل ، وكان له رأى فيمن يطلب ، وكيف يطلب.

والذى فعل ذلك ، رجل بسيط ، اسمه فريد الدين العطار . عاش قبل ٧٠٠ عام على وجه التقريب ، وكان عنده يقين أنه سوف يصف يوماً إلى الحقيقة التى يطلبها أو ينشدها.

وهو واحد من الصوفيين الكبار ، الذين تدرجوا فى مدارج العلا ، وصبروا حتى وصلوا.

والصوفى ، بطبيعته ، يحس أنه يستوعب الناس جميعاً ، وأنه من غير اللائق ، أن يبخل عليهم بتجربته ، ومن الضرورى أن يرشدهم إلى الطريق.

والطريق دائماً وعر ، ولا يصبر عليه إلا الذين يهبهم الله المقدرة على ذلك.

وكان من رأى فريد الدين العطار أنك يجب أن تطلب مبتغاك حيث تعتقد أنه موجود.

وإذا طلبت عن صدق ، فسوف تعشق ، والعاشق لا بد أن يعرف ، ومن عرف استغنى، وإذا استغنيت توحدت ،والتوحد سوف يدفع بك إلى أمواج من الحيرة ، ومع الأخيرة سوف تفنى فى الله !

وليس بعد الفناء في الله ، عند الصوفيين ، مرتقى آخر ، أو مجال لمزيد من السمو.

وعندما أراد العطار أن يقرب هذه المعانى الكبيرة ، اختار الهدهد ، وجعله بطلاً لكتابة المعروف : منطق الطير.

وخلف الهدهد يقف طائر كبير ، مجهول ، لا يعرف عنه أحد شيئاً اللهم إلا اسمه ، وهذا الاسم عند العطار هو سيمرغ.

ويقال أن هذا اللفظ ، معناه بالفارسية : ثلاثون طائراً .. وسوف تعرف لماذا : ثلاثون على وجه التحديد ، فلا تتعجل السؤال.

هو أذن طائر يشبه العنقاء عند عامة الناس ، التى يضيفونها إلى الغول والخل الوفى، ويقولون أنها ثلاثة كائنات ليس لها وجود ، اللهم إلا فى خيالى ..وخيالك !

هو ، أى سيمرغ ، أقرب إلى العنقاء ، وليس كالعنقاء بالضبط ، لأنه حسب وجهة نظر العطار ، موجود ، وقائم ، ولكنه فى حاجة ، لم أراده ، إلى سعى وجهد وعرق ، وكد ذهنى ونفسى غير قليل.

ولذلك ، استقر الهدهد ، بأمر من صاحبه ، العطار ، ودعا الطير جميعاً إلى اجتماع هام ، لا يختلف عنه إلا سيئ الحظ.

ويبدو أن تاريخ الهدهد ، خاصة مع بلقيس ، ملكة سبأ وصاحبة أجمل ساقين بين النساء ، ومع سليمان عليه السلام .. هذا التاريخ قد جعله أهلاً لأن يختاره العطار لتلك المهمة، ولأن يكون نداء الهدهد للطير ، مشفوعاً بصدقه القديم.

طار النداء بين الطيور جميعها ، فأجتمعت لتوها ، وتبوأ الهدهد مقعده ، وراح يشرح المطلوب.

كانت الطيور كلها ، أو التى اجتمعت منها فقط ، بمعنى أدق وأصح، مكلفة بأن تتبع الهدهد إلى حيث يتجه بها ، وألا تسأل عن أشياء إذا بدت لها ساءتها ، فلكل مقام مقال.

وأراد الهدهد أن يضمن نجاح الرحلة ، فصارح الطيور الحاضرة ، بأن أى طائر لا يجد فى نفسه الاستعداد الواجب ، يستطيع أن يتخلف من الآن ، فإذا بدأت الرحلة ، فلا عذر لأحد .. أو لطائر.

وفى دقائق ، خرج نصف العدد من السباق!!

امرأة لها حكاية !

هذه واقعة لا سبيل إلى القفز فوقها ، أو تجاوزها بأى حال من الأحوال لأننا أحوج ما نكون إلى استدعائها اليوم وأشد حاجة لقراءتها وفهمها واستيعابها جيداً.

ولابد أنه شئ مؤسف ومخجل ، أن نجد أنفسنا مضطرين فى كل ساعة للعودة إلى تاريخنا القديم كى ننفض عنه الغبار الذى غطاه ، ونمسح عنه التراب الذى ألقاه البعض عليه عن عمد وقصد وسبق إصرار.

وأعجب من ذلك أن نجد بيننا فريقاً من المتهوسين لا يلوذون إلا بكل ما هو مظلم وأسود فى تاريخنا المضئ.

والواقعة التى وقع الاختيار عليها لها أطراف ثلاثة كل طرف منهم يعلمنا شيئاً ينقصنا كثيراً.

أما الطرف الأول فهو الرسول الكريم وعنده نقف ونقول : ليس بعده ولا قبله معلم .. وكفى ! .. وبعد كفى لا نستطيع أن نزيد شيئاً فى رحاب ذلك الإنسان العظيم.

وبطبيعة الحال لسنا محتاجين فى هذا المقام إلى التذكير أو التنبيه إلى أننا حين نصفه ونقول : إنسان عظيم ثم نسكت ولا نزيد فإن عظمته خاصة وهى مقرونة بكلمة إنسان تظل استثناء فريداً جداً من نوعه ، لا يطوله ولا يطاوله أى استثناء آخر.

والطرف الثانى امرأة من عامة المسلمين جاءت تسأل وتستفتى عن شئ التبس عليها.

وأما الطرف الثالث فهو الفضل بن عباس أحد أقرباء الرسول الكريم وقد كان الفضل حاضراً الواقعة بالمصادفة فصار طرفاً رئيسياً من أطرافها الثلاثة !

وقد جاءت المرأة تسأل ثم مضت بعد سؤالها وروى الفضل ما جرى دون أن يكون فى ذهنه أننا سوف ننظر لما حدث بعين الدهشة والاستغراب.

أن أول صفة لتلك المرأة أنها كانت وضيئة !

وهذه الكلمة الأخيرة نقف عندها طويلاً لأن معناها الأقرب إلينا أنها كانت جميلة جداً ، وعندها من الحسن ما يكفى عشرات النساء.

والمعنى الأبعد أنها جاءت الرسول الكريم ووجهها مكشوف بحيث جاز للذى نقل إلينا أن يراها ويتأملها طويلاً ، ثم يقطع لنا بأنها كانت : وضيئة.

ومن بين ما قاله الفضل عنها أنه قد أطال إليها النظر وأدام التأمل فى حسنها وأن الرسول الكريم - لاحظ السماحة واللين - كان يحول وجهه عنها أى وجه الفضل ، فيعود ويديم النظر فى عينها وهو مأخوذ مشدود ، فيضع الرسول يده الكريمة أعلى رأس الفضل ، ويديرها بعيداً فى رفق وهو يعاتبه بكلمات أكثر رفقاً.

ولو أن امرأة شبيهة جاءت تسأل واحداً من أيامهم فى عصرنا هذا ويسبقها وجهها الوضئ هكذا لكانت قد لقيت من اللوم العنيف والتقريع الذى يصل أحياناً لحد الضرب ثم تعود إلى أهلها باكية لأنها تجرأت وخرجت إلى الشارع وعندما خرجت كان وجهها مكشوفاً يسعى بالفتنة بين الناس !!

الرسول لم يقم ليطردها ولا صرفها فى عنف على أساس أنها قد فتنت الفضل ، ولم يضرب الفضل ولا طرده من مجلسه لأن امرأة قد جاءت ولا يجوز لنسائنا أن ينكشفن على الرجال !!

تلك واقعة لها ألف معنى ومعنى وأهمها أن المرأة على مائدة الرسول الكريم ولا نستطيع أن نلجأ لأحد بعده نحتكم إليه – لم تكن كائناً مخيفاً شريراً ينبغى أن تعتزل الناس حتى لا يرى المجتمع لها وجها ولا جسماً.

أننا أمام نموذج يكاد يخرق عيوناً لا ترى إلا كل ما هو قبيح وأن كان جميلاً زادته تلك العيون قبحاً ! ولو كانت مثل هذه الأمور اجتهاداً لفرد أو لمائة من الأفراد لما كانت هناك مشكلة .. أما وأنها تنسب ظلماً إلى الدين فإننا مجبرون على قراءة الواقعة مرة أخرى من أولها!

هى تقولى .. وهو أيضاً يقول !

تمثيلية كبيرة ،وخدعة أكبر ، كانت تتم على مشهد من الجميع ، دون أن يأخذ أحد باله، وتتشابك خيوطها لتجرى فصولها فى اتساق كامل ، من خلف ظهورنا ، بينما نحن فى وهم كبير ، بأن طرفيها يود كل واحد منهما لو انفرد بالآخر ليفتك به !! والحقيقة كانت شيئاً مختلفاً تماماً.

والطرفان هما ، مرة أخرى وليست أخيرة : ليلى وقيس !

وقد تكشفت الأمور بينهما ، بالضبط كما تتكشف كثيراً فى دنيا السياسة ، عندما تدخل دولتان فى حرب إعلامية شديدة ، تدور رحاها كل يوم ، ويتبادل الطرفان الشتائم والإتهامات، وربما تأهبت النفوس للحرب ، فإذا مر وقت غير قصير ، عرفنا فيما بعد ، أن كل ذلك كان ذراً للرماد فى العيون - التى لا ترى جيداً ولا تقرأ ما خلف وبين السطور - وأن اتصالات وشفرات كانت تروح وتجئ من هنا لهناك ،

والعكس ، وأننا وحدنا فقط ، الذين لا ناقة لنا فى المسألة كلها ولا جمل .. نحن فقط الذين كنا مهمومين ومحزونين ومأخوذين بما يبدو أنه أمر خطير.

لقد اتضح إذن ، أن ما يمضى فى السياسة ، لا فرق بينه أبداً ، وبين ما يسير بقوانينه فى عالم الحب والعشق أيضاً.

وإلا .. فهل هناك واحد ، طالع قصة المحروس والمحروسة ، ليلى وقيس ، ثم شك لحظة واحدة فى أن النفوس على الجانبين مشحونة ، والقلوب ممتلئة بكل ما هو سئ وشر ، وكل طرف من أهليهما يتربص بالآخر الدوائر ؟!

هل شك أحد فى ذلك ، من واقع ما جرت به المقادير عليهما ، ومن خلال ما قرأنا وما سمعنا أنه كان بينهما ؟!

فما رأيك إذن ، فى أن كل ذلك ، كان كما يقال كلاماً فارغاً ، وشيئاً مما يملأ الدنيا ويشغل الناس ، لا لشئ إلا لأن أصحابه ، أصحاب هذا الكلام ، يريدون أن ننشغل وأن نتابع ، دون أن ننتبه إلى حقيقة المسألة.

ويحدث فى عالم السياسة ، أن تتسرب بعض الأوراق أو الوثائق ، عمداً أو غير عمد ، لا فرق ، المهم أن الله يشاء لها أن ترى النور ، لتفضح ما كان يخفيه الظلام سنوات طويلة.

وكما انشغلنا بالوهم والخدعة أياماً وشهوراً نجرى خلف ما تكشف عنه الأوراق المطوية ، سنوات طويلة أخرى أيضاً !!

ويقابل هذه الأوراق السياسية المخفية ، فلتات اللسان عند ليلى ، أو حتى غير فلتات اللسان ، عندما تتيقن هى أنه لم يعد فى العمر مثل ما مضى ، وأن ما خفى على الناس زماناً طويلاً ، أمانة لابد أن ترد إلى أصحابها.

وكانت العيون ، ولغتها العجيبة ، تقوم مقام الرسول الذى يمضى عادة بالرسائل بين الدولتين فيخفية عن وسائل الأعلام ، فلا يدرى به إنسان ، حتى إذا لوحظ أى شئ ، سارع الطرفان إلى نفى تلك الشائعات المغرضات ، وإزدادت حدة الحملات الموجهة ، كى يطمئن الذين يطلقون الشائعات غير المسئولة ، إلى أن كل شئ يجرى فى العلن ، وأن مصائرهم فى أيد أمينة ، لا تخشى أن تعلن عما تفعله أولاً بأول !

ولكن ، طبعاً هذا كلام فض مجالس كما يقال ، والكلام لا يباع ، وليس عليه حظر ولا ضريبة وكل واحد يستطيع أن يقول ما يريد ، ولكن فى حدود.

أسمع ما باحت به ليلى يوما ..

كلانا مظهر للناس بغضا

وكل عند صاحبه مكين

تبلغنا العيون بما أدرنا

وفى القلبين ثم هوى دفين

ولا ننسى كذلك ، أن العيون فى اللغة العربية ، تعنى من بين ما تعنى ، الجواسيس والمخبرين الذين يمارسون أعمالهم ومهامهم فى الخفاء !

فما رأيك ؟!

هل هناك فرق بين ما دار هناك بين المحروس والمحروسة ، وما يدور أمامك اليوم ، على نطاق أوسع وأشمل ، وبغير خجل ؟!

وهل هناك فرق بين الحب والسياسة ؟!

هذا هو المجنون . فأين العاقل بيننا ؟!

•نرى ، فى كل ساعة ، أن علاج أى مريض لا يكون بغير الدواء.

ونسمع أنه ، أحياناً ، يكون بالأعشاب !

وقد يشفى المريض بالتمائم والتعاويذ ، ولو إلى حين.

وهناك مرضى يلجأون إلى الجن والعفاريت.

ولكن .. من النادر جداً ، أن يكون العلاج بالموسيقى .. نعم بالموسيقى !

وتزيد مساحة الدهشة ، لو عرفنا أن هذا النوع الأخير من العلاج ، كان يجرى من ١٢٠٠ عام ، تقريباً ، وبكفاءة كاملة !

والطبيب كان فيلسوفاً كبيراً ، وعقلاً ضخماً من عقول العرب ، وهو: الكندى.

وقبل كلمة الكندى هذه ، هناك ما لا يقل عن خمسة أسماء أخرى ، غير أن الكندى هو اسم الشهرة ، وبالتالى فلا مفر من الالتزام به ، مع أنه قد يكون اسم الجد السابع مثلاً لفيلسوفنا الكبير !

وعلى طريقتنا فى الغرام بالألقاب ، كان الكندى يحمل لقب : فيلسوف الإسلام.

ولقد كان إبحاره فى علوم الدين ، جميعها ، لا يقل عمقاً عما أمضاه من وقت ، وما أنفقه من جهد فى الفلسفة.

والرجل الذى مات فى منتصف القرن الثالث الهجرى ، كان بارعاً فى الموسيقى ، عاشقاً لها ، تماماً مثل الفارابى.

ولقد استغاث به أحد جيرانه يوماً ، وأبلغه أن ابنه ، ابن الجار ، قد ذهب فى أغماءة طويلة حتى ظن أهله به الموت.

وهذه الاغماءة ، فى ريف مصر ، لها علاج عجيب ، لا مبرر لذكره الآن ، لأنه يثير الضحك والإشفاق معاً.

وانتقل الكندى إلى حيث يتمدد المريض ، وراح يتفحصه ويضع يداً على الصدر ، وأخرى على الرأس.

وكان للكندى باع غير قصير ، فى علوم الطب أيضاً ، قبل أن يداهمنا هذا العصر بطوفان المعلومات ، التى ترغم أكبر العقول على أن يختار مجالاً واحداً فقط ليتخصص فيه.

فمن الطبيعى جداً ، وأنت تقرأ عن الكندى ، أو الفارابى ، أو التوحيدى ، أو ابن سينا وغيرهم ، أن تكتشف أن كل واحد منهم كان عملاقاً فى أكثر من علم فى وقت واحد.

ولقد قام الكندى ، بعد أن تحسس جسد المريض ، وطلب آلة العود ، وبعض الآلات الأخرى ، وأرسل إلى بعض العازفين المتفوقين ، وطلب منهم أن يقفوا جميعاً عند رأس المريض.

وأشار إليهم ، وكأنه ما يسترو - بتعبير هذا العصر - أن يعزفوا مقطوعة موسيقية حددها ، ثم مقطوعة أخرى ، وكانوا - بإشارة منه - يعيدون هذه ، ويضيفون إلى تلك.

ولم يمض وقت طويل ، حتى كان المريض قد بدأ يتحرك ، وينتفض ، وتنبض شرايينه ، وقلبه يدق ويضرب بصوت يكاد يسمعه الحاضرون.

ولا ندرى ، بالضبط ، ما هو نوع المرض الذى كان قد لحق بإبن الجار ، ولكن المؤكد أنه قد ذهب عنه داؤه بفعل الموسيقى.

والذى عالج بالموسيقى هو - كما رأينا - عقل عربى كبير ، ومسلم وفى كامل قواه العقلية !!

نقول ذلك لأنه لم يترك الولد يهلك ، ويموت معذباً بإغماءته ، بحجة أن الموسيقى فيها قولان !

ولا ندرى أيضاً ، هل تشفع شهادته هذه ، عند الذين يصفون الموسيقى بأنها حرام ، أم أنهم سيرددونها فى وجهه ويقولون : مجنون وناقص دين!!

وإذا حدث ذلك ، وخرج من بيننا من يرمى الكندى بالجنون ، فمن حقنا ، عندئذ ، أن نسأل عن العاقل فى هذا الزمان !

والله عنده حق.. ومعذور !

بالضبط ، كما يتخرج شاب في الأزهر ، ويحفظ القرآن الكريم ، ويتعمق فى علوم الفقه والحديث وأصول الدين ، ويكاد يكون شيخاً معمماً ، يمضى بين الناس بالموعظة ... إلا أن شيئاً ما ، يحدث فى حياته فيقلبها عن آخرها ، ويدفع به فى إتجاه آخر ، ومختلف تماماً ، عما كان متوقعاً.

وسوف يكون هذا الاتجاه المختلف ، وغير المتوقع ، هو الطرب على سبيل المثال.

والطرب هنا معناه ،أن هذا الشاب الذى نفترض أنه تخرج فى الأزهر ، يكتشف جمال صوته ، وروعة أدائه ، فيقرر دون حرج ، أن يسلك طريق الغناء بالكلمات المهذبة الجميلة.

وهذه السطور السابقة ، ليست خيالاً خالصاً ، لأنها تستند إلى حقيقة قائمة فى تاريخنا، وتجعل من عبد الرحمن بن عمار ، مرجعاً لها عند الضرورة.

وعبد الرحمن ، واحد من كبار الإتقياء الذين عاشوا وماتوا فى مكة المكرمة ، وقد بلغ به الزهد والتصوف والعكوف على القرآن والحديث ، مبلغاً كبيراً ، حتى أطلقوا عليه لقب القس. وهو لقب ، كما نعرف ، نخلعه على كبار رجال الدين فى المسيحية.

ولم يكن أحد يتصور ، أن عبد الرحمن بعد أن قطع طريقاً طويلاً مع العلم الذى اختاره لنفسه ، يمكن أن يتحول عنه إلى علوم الأدب التى تخاطب القلب ، قبل أن تتجه إلى العقل.

وتحديداً ، كان الشعر ، وشعر الغزل بوجه خاص ، هو الميدان الجديد، الذى اقتحمه عبد الرحمن ، ولم يمض وقت طويل ، حتى أصبح واحداً من فرسان شعر الغزل !

وقد كانت امرأة واحدة ، هى سبب هذا التحول الخطير ، فى حياة عبد الرحمن ، الذى كان قد أحبها بصدق ، وتعلق بها تعلقاً يصل إلى حد العشق.

وكانت اسمها سلامة ، وهو اسم كما ترى من النادر أن تتسمى به امرأة ، وأن كان قد تردد فى بعض أفلامنا العربية القديمة !

وما توقعه عبد الرحمن ، بسبب حبه لسلامة ، وتفوقه فى شعر الغزل ، قد صادفه فعلاً ، وانقسم الناس حوله فريقين ، فريق يلومه ، ويردد بينه وبين نفسه : يا عيب الشوم ، وفريق آخر يعذره عندما لا يجد فى أشعاره كلمة نابية ، ويطالع وجه سلامة ، فيردد أعضاؤه، أعضاء هذا الفريق الأخير ، بينه وبين نفسه أيضاً ، وهم يشيرون إلى عبد الرحمن : والله عنده حق ومعذور !

قال الفقيه العاشق :

سلام هل لى منكم ناصر

أم هل لقلبى عنكم زاجر

قد سمع الناس بوجدى بكم

فمنهم اللائم والعاذر

ولعلك تلاحظ ، أنه عندما بدأ بيتيه هذين ، بأسمها ، جعله وكأنه أسم لرجل ، بعد أن حذف منه التاء الأخيرة ، ربما أمعاناً فى إخفاء الاسم على طريقة أبناء الريف ، الذين إذا جاء أحدهم ليتحدث عن امرأته ، قال كلمة واحدة مفهومة : الجماعة !!

والشئ الطريف أن صاحبنا الفقيه العاش ، كاد يطبع قبلة على خديها أو على جبينها ، ثم تراجع فى اللحظة الأخيرة ، رغم أنها رحبت ، ولكنه اعتذر !

اعتذر عندما ذكر أية من القرآن الكريم ، تقول إن : الإخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدو إلا المتقين.

وقد أسرف عبد الرحمن على نفسه ، وعلينا ، وعلى سلامة أيضاً ، حين تشدد فى تفسير الآية ، وخشى أن يقع فى محظور ، إذا هو أقترب بفمه من فمها ، فيكون لها عدوا يوم الحساب، فلا يلقاها !

وكان حبهما حبا نادراً ، يستشعره كل طرف ويجد حلاوته عن بعد!

ولقد أحب الرجل بأخلاق الفقيه ، الذى يتردد طويلاً أمام لمس يد امرأة ، ويفزع إن هو تجاوز لمس اليدين.

ولو أنصف لعرف - ولابد أنه كان يعرف - أن القلب خارج عن ولاية الفقيه !!

عزيز قوم.. ذل !

يعز عليك كثيراً ، أن ترى رجلاً يبكى ، ويعقد العزم على أن ينفق ما تبقى من عرمه فى بكاء ونحيب متصل.

وتزداد اشفاقاً عليه ، إذا ما كان من الصفوة ، أو عليه القوم ، الذين انحدر بهم الحال ، وضاقت عليهم الأرض ، بما صنعت أيديهم.

والقول المأثور يقول : أرحموا عزيز قول زل.

وفى موضع آخر : ذل !

أما الأولى ، فهى من الزلل ، أى الخطأ والتعثر والوقوع.

وأما الثانية فهى من الذل ، أى الخضوع رغم الأنف !

ولكن مـا الحـال ، إذا كـان الذى يبكى بين أيدينا ، قـد جـمع بين السيئتين مـعاً ـ وليس الحسنين هذه المرة ـ ثم أتكأ يجرى دموعه على كوكبيه.

والكوكبان هما الفتح ، ثم يزيد ، ابنان من أبناء المعتمد بن عباد ، الذى أضاع ملكه العريض ، وأسلم ابنيه - الكوكبين - إلى أعدائه ، بوثيقة وقعها هو ، ورسالة بعث بها إليهما ، يطلب أن يستسلما وأن يكفا عن المقاومة ، فالحال قد صار غير الحال ، والأوضاع تبدلت ، وانقلب مجد العرب الأكبر ، فى أسبانيا (الأندلس) إلى ذل عظيم !

ولا نزال فى حاجة كبيرة ، لقراءة أحوال العرب ، أجدادنا ، فى الأندلس ، أيام ملوك الطوائف ، حين تكالبت عليهم كل القوى ، لا لقوة تلك القوى ، وإنما لضعف العرب والمسلمين أنفسهم.

والمعتمد ، كما نعرف ، كان أقوى هؤلاء الملوك ، وأقدرهم على مواجهة أعداء العرب هناك ، سواء كانوا فى الشمال بأوروبا أو حتى العدو الجديد الذى انشقت عنه الأرض فى الجنوب ، ببلاد المغرب وهو يوسف ابن تاشفين.

لقد استعان به المعتمد ، ولكنه أى يوسف ، أدرك أن المعتمد وغيره من ملوك الطوائف عاجزون عن حماية أنفسهم أو تصريف أمورهم ، بل أنهم مشغولون بخلافاتهم أكثر من انتباهم لما هون قادم يزحف نحوهم من الشمال.

ولا تجد غرابة ، فى تحول نية يوسف من مجرد مد يد العون إلى المعتمد إلى الرغبة فى البقاء هناك طويلاً والاستحواذ على المعتمد ، والسيطرة على مقاليد الأمور كلها.

وما بين فكى الرحى ، سقط المعتمد.

بين ابن العم ، يوسف بن تاشفين ، الذى استغاث به فاستيقظت بداخله أطماع عريضة، وبين ملوك الأبان ، والمحيطين بهم من ملوك أوروبا الذين كانوا يريدون التعجيل بنهاية دولة الإسلام هناك ، ويدبرون جيداً لتنفيذ ما أضمروا.

ويلفت نظرك أن العرب أو المسلمين لم يدخلوا أرضا ، ولا كسبوا مساحات جديدة فى مطلع الإسلام ثم خرجوا منها .. ألا تلك الأرض ، أرض أسبانيا.

وهو شئ يشغل بال المهتمين بتاريخنا هناك ويريدون أن يعرفوا السبب أو السر حتى اليوم.

ولكن حين تسمع المعتمد وهو يقول :

يقولون صبراً .. لا سبيل إلى الصبر

سأبكى وأبكى ما تطاول من عمرى

وما حدث وقتها لابد أن تكون تلك هى نهايته : ملك يبكى فساده .. ورعية ضائعة_ !

ولكننا لم نتعلم !

ما أعرفه.. يراه!

لقاء قمة ، ولكن من نوع آخر ، مختلف تماماً عن كل لقاءات القمة التى عهدناها ، أو سمعنا عنها.

كلها تقريباً ، تنعقد بين سياسيين كبار ، يجتمعون ليضعوا أوزار حرب اشتعلت أو لتقسيم غنائم وأسلاب ما بعد الحرب.

ولكن هذا اللقاء ، الذى يجب علينا أن نرقبه جيداً ، ونتأمله طويلاً ، قد جرى بين أكبر عقلين فى زمانهما.

وإذا كان الأمر كذلك ، أليس من الأولى ، أن يكون هو لقاء القمة الحق ، خاصة وأنه يحلق بنا فوق السحاب ، ويعلوا بنا فى السماء ، ولا ينحط بنا إلى أسفل درك ، كما هو الحال فى كثير من القمم التى نراها ونعايشها.

كان الاجتماع بين ابن سينا ، فيلسوف الإسلام الأكبر ، وطبيبهم الأكبر كذلك ، ولو طاوعنا أنفسنا لحشدنا هذه الكلمة الأكبر خلف اسمه عشر مرات على الأقل ، وفى كل مرة تميزه فى مجال مختلف عما يسبقه.

كان اللقاء بينه وبين عقل كبير فى زمانه ، اسمه أبو سعيد بن أبى الخير.

وأبو سعيد كان على عكس ابن سينا تماماً، فيما اختاره لنفسه فى الحياة ، حتى لكأنك وأنت تسمع عن لقائهما ، تكاد تردد بينك وبين نفسك : ما الذى جمع الشامى على المغربى.

ابن سينا رجل فيلسوف كبير ، يزن كل الأمور بعقله ، والواحد الصحيح إذا أضيف إلى مثيله عنده - أى عند ابن سينا - لابد أن تكون النتيجة اثنين .. وهكذا فى شتى وسائر أمور الدنيا والآخرة.

أما أبو سعيد ، فالمسألة عنده تختلف كثيراً ، لأنه صوفى كبير ، وقطب أكبر ، يرى بقلبه ، وليس بعقله ، ورقم ٢ الذى هو حصيلة جمع ١ + ١ عند ابن سينا ، يمكن أن يساوى مائة عن أبى سعيد ، أو يساوى ألفاً ، أو أكثر أو أقل.

هكذا ..رجل يرى بعقله ويفكر به ، وآخر لا يعرف سوى قلبه دليلاً يقوده فى كل طريق.

وعندما شاء الله للعظيمين أن يجتمعاً على مائدة قمة واحدة، تعجب التلاميذ والطلاب ، وراح كل فريق منهم يتخيل ما الذى يمكن أن

يجرى فى مثل هذا اللقاء ، وهل يتفقان أم يخرجان وقد مزق كل واحد منهما ثياب الآخر.

كان اللقاء مقصوراً عليهما فقط ، دون سواهما من أتباعهما ، وكأنها قمة سوف تبحث فى أمور عليا ، وسرية ، لا يجوز لمن لم يبلغوا الحلم بعد ، أن يطلعوا عليها.

وبلوغ الحلم ، فى العلم ، شاق وطريق طويل ، لم يدركه ابن سينا ولا أبو سعيد ، بسهولة هكذا.

وكم كانت دهشة الذين انتظروا عند الباب ، عندما انفتح عن الرجلين وقد تشابكت يداهما ، ورفع كل واحد أحدى يديه بعلامة النصر المعروفة: السبابة والوسطى - الأصبعان - مرفوعتان فوق الرأس منفرجتان ، وعلى وجه ابن سينا ابتسامة عريضة ، وابتسامة أعرض على وجه أبى سعيد !

وأكاد اتصورهما ، وقد عقدا مؤتمراً صحفياً ، يردان فيه على ما يطرحه الحاضرون من أسئلة واستفسارات.

وهو أقصر مؤتمر صحفى ، وأكثر هذه المؤتمرات بلاغة وقوة عقل وبديهة !

انتظر الرجلان حتى فرغ الحاضرون جميعاً ، من القاء ما يشاءون من تساؤلات ، ثم تقدم ابن سينا وقال عبارة واحدة.

قال : ما أعرفه يراه.

وتقدم أبو سعيد وقال : وما أراه يعرفه !

وكم كانت سعادة اتباع الطرفين ، حين لمسوا هذا الاتفاق والتقارب.

أسمع كلامك !

الجن ، هو الحصن الأخير ، الذى يلجأ إليه بعض الناس حين يقفون عاجزين عن فهم أو فعل شئ!

وكما نفهم من القرآن الكريم فإن الجن منهم المسلمون ومنهم الذين هم دون ذلك !

وكان أحدهم مرشحاً لأن يتولى نقل عرش بلقيس ملكة سبأ ، من أقصى الجنوب حيث كانت تحكم فى اليمن إلى أقصى الشمال ، فى جزيرة العرب ، عند قدمى النبى سليمان عليه السلام.

لولا أن صاحب العلم ، أو الذى أوتى علما ، كان أقدر على أن يأتى بما يعجز عنه الجن . وهذه إشارة أو معلومة ينبغى أن تجعلها فى ذاكراتك دائماً ، وتنحيها جانباً الآن ، ولو مؤقتاً ، لأنك قد تستدعيها ـ لحاجة شديدة ـ فى آخر هذا الكلام !

والذين رأوا وزاروا قصر الحمراء فى مدينة غرناطة آخر حصون العرب والمسلمين فى الأندلس قالوا أن الملك محمد الغالب بالله ، الذى بنى هذا القصر قد استعان بالجان كى يقيم قصرا هذا شأنه وهذا شكله .. وتلك قيمته.

ففى المدخل اثنا عشر أسداً ، يشكلون نافورة على شكل دائرة ، تدور فى اتزان وثبات ومن فم كل أسد يخرج الماء عذباً ويصب فى قناة يجرى ماؤها.

تلك مجرد لقطة سريعة أو هى أول اللمحات التى يقع عليها نظر الداخل إلى القصر.

ولا يزال القصر قائماً إلى اليوم وكأنهم قد انتهوا من بنائه قبل ساعة مثلاً وليس فى نهاية القرن السابع الهجرى !

وفى الكتب التى تناولت قصة ذلك القصر وأشارت إلى الإعجاز الذى يقوم عليه تتناثر كلمات هنا وهناك وأساطير ولكها تكاد تقطع بأن الملك محمد قد استعان بالجن فى بناء قصر الحمراء وأنه قد شيده بطريقة تقاوم الزلازل وأعتى العواطف والأعاصير وأنه لا يمكن أن ينهار أبداً إلا إذا حدث شئ ما !

وهذا الشئ هو أن لساناً طويلاً مثبتا فى ركن من أسفل القصر.. هذا اللسان لابد أن يتحرك من موضعه الذى يستقر فيه ثم يتجه لأعلى ليبلغ موضعاً آخر به قفل يصطدم به.

عندئذ يهوى القصر كله على عروشه وتتهاوى أركانه عن آخرها !!

طبعاً هذا الكلام أقرب إلى الأساطير منه إلى الكلام العاقل الذى يقره العقل الواعى.

وفى ريف مصر يحدث كثيراً أن يموت إنسان قتيلاً أو غريقاً وبعد وفاته بشهور يقطع الذين كانوا قريبين منه فى حياته أنهم رأوه بشحمه ولحمه - ليلاً- يسعى كما كان يفعل فى الدنيا وأنهم لما حاولوا كلامه أو الاقتراب منه اختفى !

هذه أشياء وغيرها كثير يشيع فى الريف وينتشر ويأخذها كثيرون مأخذ الجد والصدق أحياناً ومأخذ الهزل والعبث فى أحيان أخرى !

نقول ذلك لأن بعض الذين عاشوا بالقرب من الحمراء ليلاً قد رووا أشياء وقصصا شبيهة .. واحدى هذه القصص بطلاتها ثلاث فتيات جميلات لا يظهرن إلا فى الليالى المقمرة بين الرياض والأشجار ثم يختفين إذا اقترب منهن أحد أو اختفى القمر !

وهن ثلاث بنات لواحد من ملوك غرناطة كان يحظر عليهن الخروج مطلقاً إلا فى الليل حتى لا يراهن أحد فيفتنه جمالهن الذى أعطاه الله لهن بغير حساب !

وقد كان قصر الحمراء مسرحاً للمشهد الأخير من حياة أجدادك العرب والمسلمين هناك بعد أن أخذ بعضهم برقاب بعض وقضوا بأيديهم على مجد وملك داماً ٨٠٠ سنة من عمر الزمان.

ومن الطبيعى أن يكون قصر له مثل هذه الظروف وتلك الصفات من الطبيعى أن تحوط به تبعاً لذلك كل الأساطير.

ومن المؤكد أن الجن لا علاقة له بالحمراء ولا ببنائه وأن خلف هذه القصر عقلاً قوياً هو عقل العرب والمسلمين فى قوتهم الذين لما انهاروا وضعف فيهم العقل لم يصدق أحفادهم ما كان قد جرى يوماً فلجأوا إلى الخيال.

فواقعنا يناقض تاريخنا بكل قوة ويكاد يكذبه !

ينافقه حياً .. وميتاً !

شئ طبيعى جداً ، أن تهتز الأرض ، وأن يأخذ بأطرافها زلزال ، يرج أنحاءها رجا ، فيفزع الناس ، ويلوذون بالبيوت والحارات والجبال ، ويدعون الله أن ينجيهم مما يخافون.

وفى ريف مصر ، عندهم تفسير ساذج ومضحك لحكاية اهتزاز الأرض هذه ، وهو أن الثور - هكذا يتصورون - الذى يحمل الأرض فوق أحد قرنيه ، يبدل قرناً بأخر ، وأثناء عملية التغيير هذه ، التى تجرى كل عام ، يحدث هذا الارتجاج ، وتكاد الأرض تقع وتنقلب على ظهر الثور ، ولولا فضل الله الذى يحفظها ، ويجعلها تتوازن على أحد قرنيه ، لكانت قد انقلبت ، ولكانت بحارها وأنهارها قد طاشت ، ففاضت مياهها وغرقت البلاد والعباد.. ولكنه فضل من الله !

هكذا يتصور الناس البسطاء ، ولا تعرف طبعاً أين يقف هذا الثور ، ولماذا وكيف يغير وضع الأرض فوق رأسه كل عام بالتحديد ، وليس

أكثر أو أقل ، ولكنه على كل حال تفسير يريحهم ، ولا يضر أحداً ، فلا ضرر ولا ضرار.

ولكن شاعرا مصرياً ،عاش أيام الإخشيد ، كان له رأى آخر عجيب وغريب ، ولا تعرف أيضاً كيف أقنع به كافور الإخشيدى ، وكيف انطلى هذا الرأى على رجل مثل كافور؟!

فقد اهتزت مصر أيام كافور هزة عنيفة ، كادت تخلع قلوب المصرين جميعاً ، الذين لجأوا إلى أحضان الجبال ، وألسنتهم تلهج بذكر الله ، وتدعوه أن يأخذ بيدهم من هذه المحنة ، بحق الشيوخ فيهم والأطفال ، وكذلك الحيوانات التى لا ذنب لها.

وأغرب شئ ، كان هو تصرف كافور الإخشيدى تجاه ما حدث ، إذ أسرع إلى قصره - وهو الأمير ملك البلاد - وانزوى فى احدى حجراته ، وأحتجب عن الناس طويلاً ، فى الوقت الذى كانوا هم قد خرجوا فيه ، ومارسوا أعمالهم بشكل عادى جداً ، بعد أن رفع الله عنهم غضبه ، وانجاهم مما يخافون!!

وقد وجد صاحبنا الشاعر المصرى ، محمد بن عاصم ، فى تلك الأزمة ، التى كانت فيما يبدو أزمة كافور وحده ، أكثر من كونها محنة للمصريين ، وجدها فرصة تاريخية كى يتقرب من الرجل ، ويقنعه بما لا يمكن أن يصدقه عقل.

طلب مقابلة كافور ، واقتحم عليه خلوته ، وبدون مقدمات راح ينشد بين يديه ، قصيدة طويلة ، معناها أن أرض مصر ما زلزلت من خوف يراد بها ، ولكن رقصت من عدلك ، يا مولانا ، طرباً !!

وقد انفكت عقدة كافور فوراً ، وانكشفت غمته ، ودخل السرور قلبه ، وضحك فى وجه عمنا عاصم ، وألقى إليه بألف دينار .. وقيل أكثر من ذلك !

ولم يكن محمد بن عاصم ، بطبيعة الحال ، يبتدع وهو يفعل ذلك ، وإنما كان يقلد أستاذه ، وأستاذ كل الشعراء الذين أتوا بعد ذلك ، وهو المتنبى ، شاعر الكبرياء والعزة العربية ، لولا تلك الصغائر التى قالها فى حضرة كافور ، وفى حضرة أبو بكر الإخشيدى قبله ، فعندما مات أبو بكر هذا ، ودفنوه ، لم يشأ المتنبى أن يتركه ميتاً بغير نفاق ، وانطلق لسانه بأن القبر لو يعلم ما قد ضم بين جنباته من كرم ، ومن فخار ونعماء لكان قد أتسع رحمة وترحيباً بالوافد الجديد.. أبو بكر !!

والسؤال الذى لا أحد له إجابة : إذا كان المتنبى قد نافقه حياً ، طمعاً فى شئ ما ، فلماذا ينافقه ميتاً ، وهو لا يملك ضرراً ولا نفعاً .. لماذا ؟!

لعلك تنسي !

يا ليلى .. يا بلاش !!

كانت هذه هى مشكلة قيس ، عاشق ليلى العامرية ، والميت فى دباديبها ، والذى كان فى إمكانه أن يجد غيرها ، أجمل وأرشق قداً وأوسع صدراً ، وأن يقع على أهل عروس أخرى ، لا يضيقون به على هذا النحو ، فيقوم حموه ، الذى هو أبو ليلى ، ويرده فى عنف ، ويدفع الباب فى وجهه ، وهو يردد : أجئت تطلب ناراً ، أم تشعل البيت ناراً ؟!

وقد واجه شاعر آخر ، فيما يبدو ذات المشكلة ، عندما وقع فى هوى فتاة ، لم بتادله هى نفس العشق ، فكانت تبتعد وهو يقترب ، ويتعذب ، ثم لا تسأل فيه !

والذين جاءوا ينصحونه - وهو شاعر عاش فى الأندلس (أسبانيا) وروى عنه ابن حزم فى طوق الحمامة بيتين مَن الشعر - طلبوا منه أن

ينسى ، أو يتناسى هذه البنت التى لا تعيره أدنى اهتمام ، وأن يعتبرها كأن لم تكن فى حياته.

وكان هو عاجزاً عن النسيان ، مشفقاً على الذين يسألونه النسيان والسلوى ، لأن واحداً منهم لم يحبّ ، ولم يذق طعم العشق ، ولم يعرف معنى أن تتملك امرأة ، وأن يكون قبلها لك وحدك !

وفى مرحلة متقدمة ، لما بلغ هذيانه بحبها ، حداً لا يمكن السكوت عليه ، نصحوه بأن يسافر ، ويرتحل فى بلاد الله وخلق الله .. لعله ينسى !

وقالوا ارتحل ، فلعل السلو - أى النسيان - يكون ، وترغب فى أن ترغبه !!

وهى نصيحة قديمة ، ومفيدة ، سبقهم إليها الإمام الشافعى ، حين قال : سافر تجد عوضاً عمن تفارقه .. إلى آخره !

وقد كان جوابه عليهم عجيباً ، ويستحق أن نتوقف عنده طويلاً ، لنرى كيف يكون الصدق فى الحب ، والذى يصل أحياناً إلى درجات عليا ، ويرتقى فيبلغ الحب الصوفى الإلهى ، وهو ما وصفته رابعة العدوية فقالت : فليت الذى بينى وبينك عامر ، وبينى وبين العالمين خراب !!

أجابهم : فقلت الردى لى قبل السلوى .. ولمن شرب السم عن تجربة.

وقد نفهم أن يكون الردى ، الذى هو الموت ، مصيراً لمن يشرب السم عن تجربة ، أو حتى عن غير تجربة.

ملحوظة : لا أعرف ما دخل التجربة فى حكاية شرب السم هذه.

أما أن يكون الهلاك ، أيضاً ، مصير المحب الذى يطلبون إليه أن ينسى ، فهو ما لا يفهمه إلا المحبون .. مع وضع ألف خط بكل لون ، تحت كلمة المحبين هذه.

ولكن .. لا قيس ، ولا شاعر الأندلس ، ولا كل الشعراء العشاق ، قد استطاعوا أن ينسوا ، لأن الناس كما شهد شاهد منهم ، هم الشعراء !

ويروون عن شاعر الأندلس ، أنه أقام على رأيه ، مقتنعاً بأنه سوف يموت قبل أن ينساها ، وبالتالى فمن باب أولى أن يموت قريباً منها ، لأنه لا يستطيع أن يرتحل أو يسافر.

وقد مات ، وهو واقف ينتظر ، يقول شعراً ، ويصف حاله ، ويتمنى أن ترضى عنه ، وظل مصراً على الانتظار ، بصبر عجيب ، حتى صعدت روحه وهو لا يعرف كيف يرغب فى أن يرغبه كما نصحوه !

وكل هؤلاء العشاق الشعراء ، الذين ينتظمون طابوراً ، كانت عندهم مشكلة ، كما شهد شاهد منهم أيضاً ، وهى أنهم لا يدرون الهوى كيف يوصف.

والذين صدقوا منهم ، أحبوا وعفوا ، فماتوا شهداء.

ولو أن قيساً انتبه إلى أن هناك نساء غير ليلى ، وكذلك جميل بثينة ، أو كثير عزة ، أو قيس لبنى ، لكانوا قد أراحوا واستراحوا.

وليتهم تعلموا من قيس الرقيات !!

وهي لا تسأل فيه !

إذا أحببت امرأة ، ثم لم يكن لك فيها نصيب ، فليست هذه هى نهاية الدنيا ، ولن تتوقف الحياة لهذا السبب.

هذا ما يشير به العقل ، وما يقطع به أهل المنطق.

ولكن الشعراء ، لأنهم يحبون ، بالقلب لا بالعقل طبعاً ، فإن لهم رأيا آخر ..

فالشاعر الذى قال ، ينعى حظه العاثر ، وحظ غيره من الشعراء : إن العيون التى بها حور قتلننا ، ثم لم يحيينا قتلانا .. هذا الشاعر كان على حق ، لأنه وقف عاجزاً أمام حور العيون ، والحور كما نعرف هو شدة سواد العين ، وشدة بياضها أيضا.

والقرآن الكريم يصف نساء الجنة ، بأن من بين ما يميزهن ، أنهن حور عين.

ولكن ماذا لو أحب الشعراء العرب ، خاصة فى العصر الجاهلى ، ثم الأموى فالعباسى ، بالعقل وليس بالقلب.

إن نصف أشعارهم فى تلك الفترات ، تتفجر حروفها بالدموع ، وأبياتها بالدم أحياناً ، فإذا أحب أحدهم ، ثم فارقته التى أحبها ، أو تزوجت آخر ، فهو ميت فيها إلى أن يلحق بها أن كانت قد ماتت ، أو هو مطالب بثأره أن كان قد ذهبت إلى رجل آخر على سنة الله ورسوله.

وعبد الملك بن عبد العزيز ، واحد من شعراء اليمامة بالجزيرة العربية ،وقع فى حب امرأة اسمها سعاد ، ويمكن أن تصف النوعية التى نصفها اليوم ، ربما دون فهم أو تأمل لما نعنيه ، بأنه حب من أول نظرة.

إنه لم يكد يراها بظهر السوق يوماً ، على رأى الحكماء العرب ، حتى تعلق قلبه وعقله معا بها ، فهو كذلك إلى أن تزوجت هى رجلاً آخر ، وإلى أن ظل هو يهجوها تارة ، ثم يرجوها تارة أخرى ويكفر عما كان منه ، وهى لا تلتفت إليه ، كما لم تلتفت إليه منذ المرة الأولى.

كان كأنه صبى صغير ، مراهق ، انتظر فتاة على جانب من الطريق ، أو صادفها على غير توقع ، فأعجبته جداً ، وراح يطاردها ويتتبعها ويضايقها ، وهى ترى فيه إنساناً سخيفاً يجب أن يكف عما يفعل ، وهو لا يريد أن يفهم ذلك.

ولقد أنطلق يقول فيها شعراً ، لا أول له ولا آخر ، وكل أشعاره تقريباً انقطع فيها ليصف ما كان من أمر اثنين : عبد الملك وسعاد .. ثم

يحيى العزول الذى فاز بها، لأنه جاء من الباب ، ولم يقفز من الشباك ، ولأنه خيرها فأختارت ، ولو أشارت بإصبعها إلى غيره لكان قد ودعها غير آسف ، فما أكثر النساء اللاتى يردن الزواج ثم الحب بعد ذلك.

ولقد شاع شعر عبد الملك فيها ، وشاعت أوصافه لها وله هو ، حتى مر يوماً على دارها ، وكانت معها رفيقاتها فأشرن لها إلى أن صاحبنا الذى يتردد كل يوم على المكان ، هو حبيبك هذا يا سعاد ، وكانت الرفيقات قد حفظن أوصافه من كثرة ما قاله يصف حاله وحالها.

العلقة الوحيدة التى تلقاها عبد الملك ، فى حياته ، كانت من الرفيقات بأمر من سعاد ، فلم تعد تطيق معاكساته ، ولا إصراره على أن تكون له ، بغير مبرر معقول.

ولا تعرف كيف كان يكفر ذلك الرجل ، الذى أنقطع عن كل شئ ، رغم ما ناله من ضرب مبرح من رفيقاتها .. انقطع لمراقبتها ، ورصد حركاتها حتى إذا علم أنها خرجت يوماً للحج ، سبقها إلى جانب من الطريق ، وأمسك بقياد الناقة وهو يبكى ويقول . أحيى قتيلك ثم حجى وأنسكى ، فيكون حجك طاهراً مقبولاً !!

ولكنك على كل حال ، لا تستطيع أن تحترم رجلاً ، أفتقد امرأة - أيا كانت - فسقط من حالق ، كما تقول العرب .. ولا يزال ساقطاً ، حتى يسقط فى جوف الأرض ميتاً وهو نادم!! ومقيم على الندم !

هناك أمل !

شعور خطير - بمعنى الكلمة - ودلالته أخطر بكثير ، عندما يترسب داخل الواحد منا ، إحساس مؤكد بأنه : لا فائدة !

وهذه الكلمة الأخيرة ، معناها أن يكف العاملون عن العمل ، وأن يمضى غير العاملين فى كسلهم الجميل ، لأن الإثنين ، وتلك هى الدلالة أو المؤشر الخطير ، يستويان.

وكنا نعجب من زهير بين أبى سلمى ، الشاعر العربى الكبير حين بلغ الثمانين من عمره وجاء من يسأله عن حاله ، وكان جوابه عنيفاً ، وكان رده مغلفاً بملل لم يعهدوه فى كلامه من قبل ، وقال كلاماً معناه فعلاً ، أنه : لا فائدة.

وقد يكون عند زهير ، عذر ، لأن الذى يبلغ تلك السن ، من حقه أن يجد نفسه وقد سئم الحياة ، ولم يعد يرى فيها شيئاً يغرى بطول البقاء ، أو بالمزيد منه.

ولكن الأمل ـ ويا للعجب ـ يتولد ، أو يتوالد داخل كل كائن حى ، وبغير إرادة منه ، بدليل أن زهيراً عاش بعد الثمانين ٢٨ عاماً ، وفى تلك السنوات التى افترض الذين سمعوه وهو يزفر مللا فى الثمانين ، أنه سوف يكون كتلة من خمول ، أنتج الرجل ، وكان يهجو ويسب ويمتدح ، ولا يكف عن العمل.

وحين تعقد مقارنة سريعة ، بين زهير من ناحية ، وأبى العلاء المعرى من ناحية أخرى ، فسوف تجد أن حالة أبى العلاء ، هى حالة ـ بتعبير الأطباء ـ متقدمة جداً ، وميئوس منها، إذا ما أخذنا الملل واليأس على أنه مرض .. وهو كذلك.

إن زهيراً ، قال بيتاً فى لحظة قرف ، ومضى ، ولم يكن يقصده ، ولو كان كذلك لمات فى مكانه ، وهو فى الثمانين ، أو لأكمل البيت مائة ينفث فيها سأمه ومله ، غير أنه لم يفعل ، والذى يقرأ أشعاره ، بعد تلك الصدمة التى أصابته ، فجعلته يمقت الحياة ، سوف يكتشف أنه عاش وكأنه شاب فى العشرين.

ولكن .. حين يقترن الموت بالحياة ، ويستويان كفرسى رهان ، فليس فيمن يراهما كذلك أمل ، أو على الأقل هو رجل ، تجرع اليأس ممن مما حوله ، حتى لم يعد هناك مجال لمتسع أو مزيد.

وأبو العلاء كان من هذا النوع الأخير ، خاصة فى أبياته القليلة المعروفة ، التى درسها كل طالب فى مراحل التعليم الأولى ، على أنها فلسفة رجل فى الحياة.

وهى قصيدة ، يمكن أن نفهم بعضها على هذا النحو الأخير ، لأن أبا العلاء فى أبياته الأخيرة ، يطلب منك ألا تكون ناكراً للجميل مع أجدادك وأبائك الأوائل ، فتمشى فى الأرض اختيالاً ، دون أن تترفق بعظام الأموات الذين ربما وطأتهم قدماك وأنت لا تدرى.

وكان الرجل يعجب ، كيف يمكن للقبر الواحد ، أن يضم بين جنبيه عالماً متبحراً فى العلم ، وجاهلاً كان سعيداً بجهله .. ففى جوف القبر يجتمعان ، وهو المكان الوحيد فى الدنيا الذى جمع بينهما..

والقبر ، لا بد أنه يضحك مرارا من قدرهم العجيب.

كل ذلك ، شئ جميل ، ولا شئ فيه.

ولكن الروح التى بدأ بها أبو العلاء ، قصيدته الشهيرة ، كانت بالضبط : لا فائدة.

فالحمامة التى تبكى على غصنها ، كالتى تغنىّ وتشدو تماماً ، والذى ينوح ، لا فرق بينه وبين الذى يترنم بشئ فيه سرور.

ويبدو أن أبا العلاء ، قد أراد أن يسوق إلينا معنى خفياً ، راح يغلفه بفلسفته المعروفة عنه فى الحياة.

وهذا المعنى هو أن الملل كالموت بالضبط ، وبصورة أخرى فإن الأول يقود إلى الثانى ، لا محالة.

أراد أن يسوق بعضا من هذا المعنى ، أو كله ، حين اقترن اليأس والقرف عنده ، بالآفاق التى تمتد بغير حدود ، تتناثر على أطرافها شواهد القبور ، ثم تساءل : أين ، يا سيدى، القبور ، من عهد عاد ؟!

وعقلية في حجم أبى العلاء ، لم يكن - بالتأكيد - لينشغل بأمر القبور والموت والملل، إلا لسبب قاهر ، يتعلق بالموتى ، حواليه ، من الأحياء !

والموتى ، فى جوف الأرض ، معروف أنهم موتى ، أما الأحياء الذين سقطوا فى مرحلة بين بين فلا هم موتى . ولا هم أحياء .. ومع ذلك فهناك أمل.

سوف تلقاها .. وتلقاك!

وهذا شاعر مجرب ، وشيخ كبير ، عاش فى الجاهلية ، وطال عمره - بمقياسه هو - حتى أصابه الملل ، وسئم تكاليف الحياة ، ووضع ما يشبه القانون ، من أن الرجل إذا بلغ الثمانين من عمره ، فله الحق فى أن يدركه السأم.

وقد وقف الرجل ، وهو فى تلك السن ، يعطى خلاصة تجاربه فى الحياة ، وينصح القادمين بعده فى قطار الحياة ويكشف عن وخلاصة تجاربه خلاصة ما خرج به من الدنيا.

ولا نعرف ما الذى فعله هذا الرجل ، زهير بن أبى سلمى ، شيخ شعراء العصر الجاهلى ، حين أمتد به العمر بعد الثمانين ، فتخطى المائة بثمانى سنوات ، وراح يصف حلقات عمره ، ويقسمها إلى ثلاث: الأولى هى التى وقفت به على حافة الثمانين ، والثانية هى التى ختمت به القرن كاملاً ، والثالثة هى الأعوام الثمانية الأخيرة.

ولم يفصح زهير ، عن السبب الذى جعله يصنف حياته هكذا ، اللهم إلا أن يكون كل رقم من هذه الأرقام ، مرتبطاً فى حياته بحادثة معينة ، أو موقف لا ينمحى من الذاكرة.

والرسول عليه الصلاة والسلام ، له حديث معناه ، أن أعمار أمة الإسلام ، مابين الستين والسبعين ، وأن القليل منهم ، هو الذى يقل عن ذلك أو يتجاوزه فيزيد.

ونفهم معنى الحديث ، أن السبعين هى السن الطبيعية ، التى يمكن أن يرحل عندها الإنسان ، فلا يبكيه أحد ، أو لا يحزن لفراقه على الأقل ، لأنه قد أخذ نصيبه من الدنيا ، ولم يختطفه الموت ، على كل حال!

والرسول الكريم ، صعدت روحه إلى بارئها ، بعد الستين ببضع سنوات.

وزهير ، لو كان قد أدرك الإسلام ، لكان من قلة القلة ، التى تبلغ من العمر ، بتعبير القرآن الكريم ، أرذله ، بل إنه فى مرحلة من المراحل ، يعمر الإنسان ، حتى يرتد فى شيخوخته طفلاً ، لا يعلم من بعد علم شيئاً.

ويبدو أن زهيراً ، قد تعب كثيراً فى حياته ، واصطدم بكثيرين ، ولذلك حين جاء ينصح ، نصح كل واحد بأن يصانع فى أمور كثيرة ، لأنه إن لم يفعل ذلك ، فسوف تضرسه الأنياب ، وتدوسه الأقدام .. هكذا !!

والمصانعة ، التى ينصح بها زهير ، وهو فى هذه السن ، معناها بالبلدى ، أن تأخذ كل بنى آدم ، على قد عقله ، وبصورة أوضح ، يفضل زهير أن تكون سياسياً ، لا تقطع عن يقين فى شئ.

وأنت قد تعجب لهذه النقطة بالذات ، التى يكاد زهير يأمر أصحابه، بأن يكونوا منافقين ، وإن لم يكونوا هكذا صراحة ، فهم أقرب إلى هذا المعنى ، بالمصانعة التى جعلها فى صدر كلامه.

تعجب ، لأنه فيما بعد ، أخذ بمنطق طرفة بن العبد ، شاعر الجاهلية الشاب ، الذى أحس من صغره أنه سوف يرحل مبكراً ، فأخذ بمبدأ أنه إذا لم يكن من الموت بد ، أو مفر، فمن العار أن تموت جباناً.

وقد نفهم نصيحة زهير ، فى هذا الإطار بألا تجعل الفضل فى غير أهله ، لأنك إن فعلت فسوف تندم ، وأن منطق القوة هو الغالب ، ولذلك لا أمل فى حياة كريمة ، إلا أن تدفع عن حوضك بسلاحك.

ولعل ذكر الحوض ، فى كلام زهير ، شئ بالغ القوة ، لأن الحوض عندهم مرتبط كما نعرف بالماء ، الذى هو أصل الحياة ، وأغلب المعارك التى دارت أيام الجاهلية ، كانت على موارد المياه.

وليس أمامك ، بمنطق زهير ، إلا أن تكون - فى هذه الحياة - مغامراً ، ولكن بحساب ، ومبرراته فى هذه المسألة معقولة ، ومفهومة ، لأنك مهما تخفيت وهربت من أسباب المنايا والموت ، فسوف تلقاها وتلقاك أيا كان مكانك .. وفى القرآن الكريم هذا المعنى.

إنها وجهة نظر ، إنضجتها الحياة ، بمعاركها التى لا تنقطع.

لولا أولاد الحلال

دنانير .. مطربة عاشت قبل ألف عام ، وكان صوتها جميلاً ، ووجهها أجمل ، وقد كتب الله عليها أن تشيع سيدها إلى قبره بالغناء، كما أشاعت في حياته البهجة والسرور ، بصوتها أيضا.

ولو كان الكاسيت موجوداً أيام هارون الرشيد ، لكانوا قد سجلوا لها بعض الأشرطة ، ولكنا قد سمعناها ، وعرفنا إلى أى مدى ، كان صوتها شجياً ، كما يصفونه ، وكما نقرأ عنه وعنها.

وربما كانت دنانير ، هى أول امرأة ، وآخرهن أيضاً ، ترفض أن تتزوج ، حزناً وكمداً على مولاها خالد بن يحيى البرمكى ، الذى لما مات ، قاطعت هى الزواج والغناء معاً وقررت أن تعيش عانساً ، وتموت كذلك ، وأن تكف عن الغناء تماماً ، إلا أن تغنى لنفسها ، لتسترجع بعض الذى كان!

وكادت دنانير ، تكون سببا فى طلاق زبيدة من هارون الرشيد ، لولا أن أولاد الحلال قد تدخلوا ، ونصحوا زبيدة بأن تكف عن الغيرة ، وأن تنسى حكاية إعجاب هارون بدنانير ، ولا تخرب بيتها بيديها !

فهارون الرشيد كان يطيل الجلوس أمام دنانير ، وكان يطرب لها كثيراً ، وكان يتمايل ويتراقص تحت تأثير صوتها ، ولما طال جلوسه عندها ، وكثر ذهابه إليها ، شكته زبيدة إلى أهله وأهلها ، وطلبت منه أن يختار : إما هى ، وإما دنانير !

ولكن الرشيد سأل الذين يلومونه ، أن يذهبوا بأنفسهم ، ويسمعوا ، ثم يكون لهم الحكم فى النهاية !

ولما سمعوا عادوا لزبيدة ، ينصحونها بأن تذهب لتسمع هى الأخرى أو تسكت تماماً ، لأن صوت دنانير لا يملك الذى يسمعة لاول مرة الا ان يعود اليه

وسكتت

واذا كان ابراهيم المواصلى ، هو اشهر الذين غنوا واطربوا اهل بغداد، وهو الذى يقف فى مقدمة المطربين الذين شنفوا اذان أبناء العراق ، فإن دنانير ، من النساء ، كانت هى الأولى.

ويوما ما ، قال إبراهيم الموصلى ، لمعجبيه وعشاقه ، أنه إذا ما مات، فلن

يفتقدوه كثير ، لأن دنانير تستطيع أن تتحمل مسئولية الطرب ، بعده، جيداً.

وبعده ، كانت دنانير تحاكيه ، وتقلده ، ويكاد السامع لها ، يقطع بأنها ـ فعلاً ـ إبراهيم الموصلى ، لولا أن ينظر إلى وجهها فيزداد عجبه!

وبعد نكبة البرامكة ، التى لقى سيدها فيها مصرعه ، وكثير من بنى قومه وعشيرته ، استدعاها الرشيد وطلب أن تغنى وترقص كما كانت ، ولكنها ـ بجرأة تحسد عليها ـ أقسمت أنها قد أقلعت عن الغناء نهائياً ، أو اعتزلت الفن ، بلغة هذه الأيام ـ ولم تقل طبعاً أنها تابت!! ولكن الرشيد ضربها ، وجعلها تغنى بالأمر !!

ولأنها راحت تغنى مضطرة ، فقد كانت دموعها تسبق نبرات صوتها ، وكانت تغنى وهى تبكى .. والرشيد يضحك فى هستيريا بلاغة .. وربما من فرط إعجابه بها ، أو ندمه على ما فعل بالبرامكة .. وسيدها فى مقدمتهم !

ذهب الإعجاب بعقل أحد معجبيها يوماً ، فأنطلق يهتف : أشبهك المسك وأشبهته ، قائمة فى لونه قاعدة ، لا شك إذا لونكما واحد ، أنكما من طينة واحدة !!

ومع كل هذا الصيت فى عالم الطرب ، لا تقع على واحد ـ واحد فقط ـ أنكر عليها غناءها أو يقول بأن صوتها عورة ينبغى سترها عن الناس.

فعلوها .. فلا تكررها أنت !

لو سألوك : تطلق برغوثاً أمسكته يداك ، وتفك أسرة ، أم تتصدق على مسكين ببعض المال .. فماذا تختار ؟!

المعادلة محسومة عند البخيل ، وهى أنه مستعد للإمساك بألف برغوث ، ثم إطلاق سراحها ، وليس مستعداً لإنفاق قرش واحد ، أو التصدق به فى مقابل ذلك.

والذين يريدون الآخرة ، سوف يختار الواحد منهم الاثنين ، فيطلق سراح البرغوث ، وغيره من الحشرات والحيوانات أيضاً ، ثم يتصدق فى ذات الوقت ، ببعض ماله ، فيذهب بالحسنيين !!

وهى قضية ، كما ترى ، قد تبدو هامشية ، ولا تستأهل أن نشغل أنفسنا بها ، ولكن عقلاً كبيراً ، مثل أبى العلاء المعرى ، قد شغل نفسه بها يوماً ، وضمنها بيتاً من أشعاره وجعل لها معنى ، ورأى هو أن اطلاق سراح البراغيث أفضل ألف مرة من التصدق على الفقراء !!

وهى أيضاً نظرية ، تصادف هوى عظيماً عن الذين يكنزون الذهب والفضة ، ولكن أبا العلاء لم يكن يضعها على هذا الأساس ، ولا كان عنده مال يريد أن يمنعه عن المحتاجين من الناس.

كل ما فيها ، أنه كان يرى ، أن مجئ الإنسان إلى هذا الدنيا خطيئة من أبيه وأمه ، وأن كل إنسان عليه ألا يكرر خطأ وجناية أبويه ، بألا يتزوج ، وإن حدث وتزوج فعليه ألا ينجب ، وقد بدأ الرجل بنفسه ، فأقلع عن الزواج تماماً ، ولم يقرب المرأة ، وكتب إقراراً بذلك ، أذاعه فى حياته على الناس جميعاً ، وأوصى بأن يعلقوه - البيان أو الإقرار - على قبره بعد موته ، كى يتعظ الذين يريدون عظة فى هذه الدنيا.

وأبو العلاء ، بذلك ، يعتبر أول مؤسس لجمعية الرفق بالحيوان ، فلم يقتصر رفقه ورحمته على البراغيث فقط ، وإنما امتدت الرحمة والرفق إلى الحيوانات جميعها ، فكاد يحرم على الناس أكل اللحوم ، بعد أن أمتنع عنها هو تماماً !!

وحين تذهب لتفتش فى حياة هذا الرجل العظيم ، عن سبب ظاهر ، أو حتى عن مبرر معقول ، لكراهيته الشديدة تلك للحياة ، وللأحياء من بنى الإنسان ، وحبه الواضح للحيوان ، لا تقع على شئ يستوقفك.

وأبو الطيب المتنبى ، قبله ، كان يقسم الناس إلى صنفين : صنف يشقى فى الدنيا ، بعقله ، وآخر ينعم ، ويتقلب فى الحرير بجهله !!

وليس هناك شك ، فى أن أبا العلاء كان من الصنف الأول ، وكانت نفسه تضيق كلما ألقى بنظره على حياته ، وحياة غيره ، ثم يتسع

صدره ، حين يبعث إلى صديق - مثلاً - برسالة ، فيضع فى الجواب عليها سفرا كاملاً ، هو رسالة الغفران.

وفى ضوء نظرية أبى الطيب المتنبى ، يمكن أن تفهم سر شقاء ، وبؤس ذلك الرائد العظيم : أبو العلاء .. أو شاعر المعرة كما يحلو للبعض أن يسميه ، نسبة إلى معرة النعمان ، حيث نشأ فى شمال سورية!

وتفهم أكثر ، حين تعرف مثلاً ، أنه لم يكن - على عكس أبى الطيب - سياسياً يصادق الأمراء والسلاطين فى عهده ، ويناور الواحد منهم حتى تحل به مصيبة ، أو يرحل ، وهو ما فعله أبو الطيب ، مع سيف الدولة فى أرض الشام ، وهيامه بأخته خولة ثم مع كافور الاخشيدى فى مصر ، ثم مصرعه ، أبو الطيب ، على أحد الطرق المؤدية إلى بغداد.

إذن ، فهذا هو سر شقاء أبى العلاء ، بعقله ، ثم أنه لم يسمع كلام زهير بن أبى سلمى ، من قبله ،حين قال ما معناه ، أن من لم يصانع ، أى ينافق فى أمور كثيرة ، يجد نفسه ، مباشرة مع الطرف الخاسر فى الدنيا !

سألوه أن يصفها !

ما حدث يوماً ، بين النعمان ، ملك الحيرة ، وبين النابغة الذبيانى ، الشاعر الجاهلى المعروف ، شئ عجيب ، يستحق أن نسمعه ، وأن نتأمله ، لأن فيه أكثر من معنى.

وملوك الحيرة ، كانت لهم نوادر لا تنقضى ، ليس أولها حكاية أحدهم ، الذى ألقى المهندس الذى أقام له قصراً ، من آخر دور ، كى لا يقيم قصراً شبيهاً ، لملك آخر ، ولا كان آخرهم النعمان ، الذى طلب من النابغة أن يصف له امرأته .. أى امرأة النعمان ، وهناك من ينسب موضوع المهندس الصريع ، من آخر دور ، إلى النعمان ، كما أن هناك آخرين ، ينسبون الواقعة إلى ملك آخر !

كان النابغة من مريدى النعمان ، وكان لا ينقطع عن القصر ، ومعهما شاعر آخر ، لم يشتهر ، اسمه المنخل .. اسم غريب ، وقد يثير السخرية ، ولكن هذا هو اسمه الحقيقى!

وامرأة النعمان اسمها المتجردة ولا نعرف هل كان اسمها ، كما نقول، اسماً على مسمى ، أى أنها كان متجردة من كل ما يسئ إليها ، أم أن ذلك يشير إلى شئ من العرى ، كانت يميزها ، حتى شاع عنها ، واشتهرت به !

ولم يحدث فى تاريخ الشعراء العرب ، أن طلب أى ملك من أحدهم، أن يصف له امرأته ، كما يراها هو ،أى الشاعر ، وكما تنعكس صورتها فى عينيه !

ولكن النعمان طلبها ، ولا ندرى هل كان يقصدها حقاً ، على أساس أن العاقبة جاءت فخا محترماً للنابغة ، عندما غضب عليه الملك النعمان ، غضباً شديداً ، وطرده من القصر ، وكانت تلك هى القطيعة التى دامت بينهما حتى الموت.

إن النابغة ، حين وصف المتجردة ، فقال ما يراه ، وكان صريحاً ، وصادقاً ، على الأقل من وجهة نظرة هو ، ولم يكن يريد أن ينافق النعمان ، فيصف امرأته بما ليس فيها ، مع أنه لو كان يقرأ الغيب ، لكان قد نطق بما يحب النعمان ، ويرضى ، وكان النابغة فى غنى عما تورط فيه ، فقطع كل المودة القديمة بينه وبين النعمان.

ولا نستطيع أن نكتب ـ نصاً ـ ما قاله النابغة فى المتجردة ، ولكنه، باختصار ، كان صريحاً ، فأنطبق عليه القول القديم الجديد ، بأن الصراحة لا تدع لأحد صديقاً ، لأن أحداً لا يحب أن يرى الحقيقة عارية ، فلابد من تغليفها بالشئ ، ولزوم الشئ .. كما يقال !

والقرآن الكريم ، يقول : لا تسألوا عن أشياء إن تبد لكم تسؤكم.

صحيح إنها آية كريمة ، نزلت في ظروف معينة ، ولموقف معين ، ولكنها تظل صالحة ، لتفسير وفهم كل المواقف المشابهة .

فلو أنصف النعمان ، ما كان قد سأل رجلاً آخر بغض النظر عن النابغة أو غيره - أن يصف له امرأته ، خاصة وأن الطلب جاء فى ساعة سرور وانبساط ، وكان حتماً أن يأتى فى وصف النابغة ، كلام لا يقع فى نفس السامعين - ومن بينهم الشاعر المنخل - موقعاً حسناً!

قالوا إن المنخل وشئ برفيقه ، النابغة ، حتى لا ينافسه فى حب المتجردة لأن عشقاً وعواطف ملتهبة ، كانت تمتد - سراً - بينها وبين المنخل .

وقالوا إن النعمان - قد أغاظه كثيراً ، أن يأتى وصف النابغة لإمرأته على ذلك النحو الدقيق ، حتى لقد شك فى أنه لم يفعل شيئاً ، سوى أنه سئل فأجاب ، بحسن نية كاملة !

إذن ، فأبو الطيب المتنبى ، كان على حق حين قطع بأن الكلام ، فى أحيان كثيرة ، خير منه السكوت !

يغلق بابه .. ويشرب !

هى المرة الأولى ، والأخيرة التى يخرج فيها نزيل من سجنه ، بإتفاق خاص ثم يعود إليه اختياراً ، وقد كانت أمامه فرصة الهرب ، إلا أنه آثر الصدق مع النفس . ومع التى عاهدها على العودة ، ففكت أسره ، لأن بينهما : كلمة رجل !

والسجين الذى غادر السجن ، ليعاود حبس نفسه بنفسه مرة أخرى ، كان هو أبو محجن الثقفى ، شاعر وفارس لا يشق له غبار ، كما كانت تقول العرب.

وعلى ذكر لا يشق له غبار هذه ، فإنهم قالوا أن معناها ، أن الفارس من إياهم كان إذا امتطى صهوة جواده وأثار الغبار بوقع حوافر الجواد ، أو أثار النقع كما ورد فى القرآن الكريم ، فإن أحداً لا يستطيع أن يخترق عليه دائرة الغبار تلك ، لينازله ، فهو - أى الفارس العربى

المقتدر ، كفيل بأن يقيم هالة الغبار من حوله - وأن يفضها بنفسه هو ، وليس بيد فارس آخر.

هؤلاء ، كما ترى ، كانوا هم الرجال ، ومن هذا الصنف ، كان الثقفى ، فأشعاره كانت تسبق فروسيته ، وفروسيته تسابق الأشعار فتسبقها ، وهو فى المجالين غير متهم.

والآفة التى أفسدت عليه ، وعلينا ، كل ذلك ، هى الخمر ، خاصة وأنه كان قد أدمنها ، أى صارت شيئاً لازماً له ، كالماء أو الهواء تماماً ، يموت إن أنقطع عنهما .. وعنها كذلك.

ولم يكن له ، ليبقى هكذا طليقاً ، وهو فى عهد رجل ، فى قامة عمر بن الخطاب .. فإما أن يقلع عنها ، وإما أن يذهب إلى السجن فيتعلم هناك كيف يقلع عنها رغم أنفه.

وقد كان بإمكانه ، أن يغلق عليه بابه ، وأن يشرب ، فلا رآه أحد ولا درى به عمر ، ولكن الثقفى وغيره من شعراء تلك الفترة ، كانوا إذا شربوا لعبت رؤوسهم ، ثم تدفقت موهبة الشعر بداخلهم ، فقام الواحد منهم يلقى قصيدته الجديدة ، التى يخلط فيها بين أمجاده ومآثر قومه ، وما بين المقدمة والنهاية ، يفلت منه بيت أو بيتان ، فيهما اعتراف بأنه لا يزال - الخائب - مقيماً على الشراب وخلافه.

إذن ، فالشاعر ، وفى مقدمة الشعراء نجد الثقفى ، كانت أشعارهم تفضحهم ، فتكشف عما ينكر أى واحد من بينهم.

والثقفى تلقى إنذاراً ، واثنين ، وثلاثة ، ولم يرتدع ، فأمر به عمر ، فإذا هو بين جدران أربعة ، يبكى حظه الأنكد !

والقادسية ، حين اشتعلت نارها بين العرب والفرس كان الثقفى محبوساً على ذمة التحقيق وعليه أن يختار ، وأن يكون حاسماً فى اختياره بشكل نهائى : إما الخمر والسجن ، إما الشعر والفروسية.

وكان الرجل قد عاهد نفسه ، أن يلوذ بالاختيار الثانى - مقتنعاً - وأراد أن يحمل أحد رغبته تلك إلى عمر بن الخطاب ، أو إلى سعد بن أبى وقاص ، قائد العرب فى القادسية ، ولكن الوقت وقت حرب ، ولا فرصة لكلام أو سلام أو إفراج عن سجين قرر أن يتوب.

ولم يجد أمامه إلا امرأة سعد ، يبعث إليها بطلبه ، وهو أن تهيئ له فرساً ، وأن تدعه يخرج ليشارك فى القتال ، على أن يعود بمجرد أن يفرغ من القتال.

وكان الذين رأوه يقاتل ، يحدثون سعداً بذلك ، وهو لا يكاد يصدق ، حتى عاد ، فعلم بالقصة كلها ، ووجده الثقفى فى محبسه كما عاهد امرأته ، وحين فك سعد حبسه . كان موقناً من أن الذى صدق مع نفسه، سوف يصدق - لا محالة - مع كل ما ومن سواها .. وفى مقدمتها الإقلاع من الخمر.

إنه الصدق مع النفس ، قبل كل شئ .

غير مأسوف عليه !

على نفسه جنى يوسف بن هارون ، كما جنت على نفسها من قبل براقش.

ويوسف ، واحد من شعراء الأندلس ، الذى أحب ، فلم يعف ، فمات غير شهيد ولا مأسوف عليه.

وبراقش ، نعرف أنها كلبة لقبيلة فى بلاد المغرب العربى ، أوردت نفسها - باختصار - وأهلها معاً ، موارد الهلاك ، دون أن تقصد بطبيعة الحال. غير أن الطريق إلى النار ، مفروش بالنوايا الحسنة .. فقد أرادت بنباحها ، أن تدفع عنهم الأعداء ، فأهلكتهم.

والنار درجات ، أو بمعنى أدق دركات ، قد تتسع لتشمل ألواناً وصنوفاً من العذاب ، يصل لأقصاه فى تلك النار ، التى هى مصير القائمين - بقصد - على الانحراف.

ويوسف ، عاش في أمن وسلام ، حتى أدركته خلوة فخلفته وراءها صريع الهوى.. لا عقل ولا قود..

والخلوة ليست صومعة مما يعكف فيها الزاهدون ، وإنما هي امرأة سلبته عقله وقلبه معاً ، فهو يتبعها دون تفكير ، حتى كان من أمره ما كان.

ولقد سلكت معه خلوة بالضبط ، مسلك هند ، مع الشاعر العاشق عمر بن أبي ربيعة.

كان عمر ، كما نعرف ، يسأل هندا أن تجود عليه بلقاء ، وكانت هي لا تصده ولا ترده ، وإنما تعاهده على أن يكون بينهما لقاء قريب.

متى طيب ؟! كان الرجل يقولها بفراغ صبر وعقل.

وكانت هي تجاوبه ضاحكة : غداً.

وجاء ألف غد .. وغد ، ولم يلتقيا ..

ولم ينتبه عمر ، إلى أن بعد كل غد ، غدا جديداً ، إلى يوم القيامة ،وأنها حين وعدته لم تحدد في أي غد بالضبط سوف تلقاه.

ويوسف بن هارون ،تتبع خلوته وهي عائدة إلى بيتها ، ويبدو أنه لم يصادف قبولاً ، فقد ظل يلاحقها ، كأنه شاب مراهق يطارد امرأة حتى توقفت هي فجأة ، وسألته عما يريد.

وكان جوابه عجيباً ، إذ رد في سذاجة وتلقائية المأخوذ من فؤاده ، أنه يريد أن ينظر إليها.

ولم تضن عليه بالنظر ، وإنما قالت له ما معناه ، أننى أمامك فأنظر ما تشاء فإن لك هذا .. أى النظر.

وأراد يوسف أن ينتقل بعلاقتهما درجة أخرى ، تتخطى مجرد النظرة كما قال شاعرنا شوقى ، فيكون بينهما لقاء.

أبدى يوسف رغبته فى أن يلقاها مرة أخرى ، وأن يكون ذلك حسب موعد تحدده هى.

قالت فى نفس هذا الموعد ، وهذه الساعة ، من كل أسبوع ، عند المكان الذى رأيتنى عنده لأول مرة ، تستطيع أن تلقانى إن أردت.

وحين تمنعت هى عليه ، فى بعض ما طلب ، لم ينتبه إلى أن كلامها ووعدها له ، مجرد فض مجالس وأنها تريد أن تمضى لحال سبيلها ، ولا تغضبه فى أن واحد ، ولكن أين وكيف له أن يدرك ذلك ، وهو قتيل الهوى لا عقل ولا قود ؟! والقود هو دية القتيل.

وقد رأت خلوة أن تصرفه عنها فى رفق ، بعد أن أشفقت عليه ، وقالت فى نفسها - فيما يبدو - أنها إذا لم تعد إليه ، وكانت قد عزمت على ذلك ، فليس بين الخيرين ولا المحبين حساب !

وما حدث بعد ذلك ، كان عجباً فى عجب ، فهى لم ترجع كما أتضح من جوابها عليه، وهو لأنه محب تعامل مع الأمر كله بشفافية العاشق ، فأعاد علينا قصة نرجس فى الأسطورة اليونانية القديمة ، الذى مكث ناظراً إلى طلعة وجهه منعكساً على صفحة الماء حتى مات.. لجماله وطول نظره فى نفس الوقت.

مات لوعة وأسى وانتظارا ، حتى حين عرف أنها قد انتقلت ، عامدة ، إلى بلاد أخرى .. فلا كان فى رأسه عقل يعى ، ولا له قود يحفظ عليه بعضا من كرامته!

ولم يكن ييأس

الحب من أول نظرة ، كنا نعتقد حتى وقت قريب ، أنه شئ عصرى، وأنه من قبيل الشئ ولزوم الشئ بحكم الإصباغ والعطور التى تجعل الحب فى هذا العصر ليس فقط من أول نظرة ، وإنما من أول همسة تنبئ عن قدوم امرأة!

ولكن يبدو أنه شئ قديم ، وأن أجدادنا الأوائل قد عرفوه جيداً ، وغرقوا فيه حتى آذانهم.

وليس مطلوباً منك ، إلا أن تعود إلي طوق الحمامة لإبن حزم ، الإمام والفقيه الأندلسى الكبير ، الذى عاش أول القرن الخامس الهجرى، وكتب فى الحب ، قبل ألف عام ، على وجه التقريب.

مثلاً .. يوسف بن هارون ، شاعر وأديب ، ولكن عينيه كانتا زائغتين ، وكان يطارد النساء ، ويلاحقهن . فتصده أغلبهن صدودا مرا ، ولكنه كان يعاود من جديد .. ولم يكن ييأس.

ويبدو أنه أول من أصابه الحب من أول نظرة ، فأرداه قتيلاً ، فهو هكذا حتى مات ميتة كل إنسان .. وطلعت روحه !!

ونظرة بعض الفلاسفة القدامى ، عن العشق بين الرجل والمرأة ، تكاد تكون صحيحة ، خاصة فى حالة صاحبنا يوسف بن هارون.

كانوا يقولون أن الله خلق كل نفس شطرين ، واحد منهما داخل الرجل ، والآخر داخل المرأة ، طبعاً أى رجل وأية امرأة ، ويظل الجميع يتقلبون فى البلاد ، حتى إذا وافق شن طبقة كما قالت العرب قديماً ، أو وافق أحد الشطرين مثيله ، أنجذب الإثنان إلى بعضهما البعض ، وأحسا أن بينهما عشقاً قديماً.

هكذا يولد ، ويتوالد العشق ، كما رأى البعض ، وهى وجهة نظر على كل حال.

وقد ظل يوسف ، يتقلب من امرأة لأخرى ، حتى ساقه سوء حظه ، أو حسن الحظ - لا تدرى - إلى باب العطارين ، وهى منطقة فى قرطبة بالأندلس ، حيث عاش الرجل ، ومات ، قتيل الهوى.

والعرب كانت تقول : قتيل الهوى ، لا عقل ولا قود !

وليس أصدق من هذه العبارة ، فى وصف الحب ، وما يكون فيه من قتلى وقتلة.

والقود ، هو الدية التى يدفعها أهل القاتل ، لأسرة القتيل.

فالذى يقتله الهوى - بمعنى الحب والعشق وليس الغرض بطبيعة الحال - لا عقل فى رأسه ، ولا قود عند قاتلته.

وقد كان يوسف من هذه النوعية ، إذ صادف فى طريقه ، عند باب العطارين ، جارية ، أو امرأة ، لم يكن قد رآها من قبل أبداً ، ومن عجب أنه لم يرها بعد ذلك مدى حياته.

وقع عليها بصره ، فظل معلقاً بها ، قلباً وقالباً ، لا يرفع عينيه عنها، حتى قامت هى من بين رفيقاتها ، ومضت إلى بيتها.

ومضى هو خلفها - دون أن يدرى - وظل يتبعها ، وهى تعجب من هذا الرجل ، الذى جاء ليعيد قصة ليلى العامرية ، من جديد.

كان هو يسائل نفسه ، كيف أوقعته تلك الجارية فى شباكها هكذا ، وما الذى حدث بالضبط ، وقد رأى قبلها آلافاً من النساء ، أغلبهن أجمل منها بكثير.

ولا تفسير لما حدث بين يوسف ، وبين خلوة وهو اسم تلك المرأة التى أسرته ، إلا ما قاله الرسول الكريم يوماً، من أن الأرواح - ما معناه - جنود مجندة ، ما تآلف منها أئتلف، وما تنافر منها اختلف.

وقد ائتلف يوسف مع خلوة ، حتى صارا معا ، كأنهما حالة متقدمة جداً ، من حالات العشق الصوفى ، الذى يرتقى بأصحابه ، فكأنك هو وكأنه أنت.

غير أن خلوة وأسمها يشير إلى معنى من معانى الصوفية ، لم تقف بيوسف عند هذا الحد !

لولاها !

رسالة مدسوسة ، هدمت دولة ، وأقامت أخرى ، وأسالت دماء كثيرة ، وأطاحت برقاب أكثر ، وكان لها فى تاريخنا كله شأن عظيم.

ونحن نضرب المثل ، فى تراثنا الشعبى ، بالقشة التى قصمت ظهر البعير ، دون أن نعرف ما هو هذا البعير ، وما هى حكاية القشة بالضبط، ولكننا دائماً نشير من وراء ذلك ، إلى المعنى المراد.

والمعنى هو ، أن الأمور تظل مستقرة ، أو بمعنى أدق وأصح ، تبدو مستقرة على دعائم متهاوية ، حتى إذا ساق القدر إليها شيئاً هينا ، كان هذا الشئ رغم هوانه ، هو بداية النهاية الحقيقية.

بالضبط هذا ما حدث يوم خرج وفد من المدينة بالجزيرة العربية ، يحمل رسالة إلى حاكم مصر ، فى ذلك الوقت الذى كان يحكم المسلمين والعرب فيه ، عثمان بن عفان ، ثالث الخلفاء الراشدين.

والخطأ الوحيد ، الذى سجله العقلاء على عثمان ، وأخذوه عليه ، واعتبروه الفيروس الذى قضى على خلافته ، هو توليته أقرباءه مقاليد الأمور ، وتركه الحبل على الغارب ، دون حساب ، لمن أراد منهم أى يفعل أى شئ!! أى شئ.

ولم يكن الرجل قد تركهم هكذا ، يرتعون ، عن قصد منه ، وإنما كان قد اطمأن إليهم، ووثق فيهم ، فخانوا العهد ، ودسوا عليه رجالاً وأفعالا وكلاماً كثيراً ، أسرع بالنهاية المشئومة !

والوفد الذى خرج من المدينة ، كان قد جاء يشكو إلى الخليفة عثمان شقيقه الذى ولاه أمر مصر ، وجعل شقيقه على رأس الحكم فيها!

وحين جاء وفد مصر يطلب عزل ابن أبى سرح شقيق عثمان استجاب لهم الخليفة وعزل شقيقه فعلاً ، وبعث الحاكم الجديد ، محمد بن أبى بكر ، على رأس الوفد إلى مصر ،كى يتولى المسئولية بدلاً من الشقيق الذى لم يحفظ العهد.

ولكن بطانة السوء لم تكن لتسمح بذلك ، وكان لابد للدسائس والمؤامرات أن تتحرك لتفعل فعلها ، ولتقطع على الخليفة أعمال الإصلاح التى عزم على القيام بها ، ومن بينها عزل شقيقه فى الرضاعة من حكم مصر.

وكان مروان بن الحكم ، وهو واحد من بنى أميه الذين أقاموا دولتهم فيما بعد على أنقاض خلافة عثمان ، كان هذا الرجل هو كاتب عثمان وهو وظيفة أقرب إلى مدير المكتب فى هذه الأيام.

ولم يعجب مروان التحول الذى جرى فى فكر وعقل عثمان وأراد الكاتب أو مدير المكتب بلغة هذا العصر ، أن يوقف قرار تولية محمد بن أبى بكر بأى شكل !

وهى مسألة سهلة جداً .. المهم أن يبدأ وينفذ.

وبسرعة كتب مروان رسالة إلى شقيق عثمان المعزول أو المفروض أنه كذلك وفى الرسالة الموجهة من عثمان نفسه ما معناه أنه لو جاءك محمد بن أبى بكر والوفد الذى يصحبه فأقتل محمدا ، وأصلب الذين معه على جذوع الشجر!!

وحمل الرسالة رسول من مروان واتجه إلى مصر وكانت التعليمات الصادرة إلى الرسول أن يقطع الطريق على محمد ووفده ولكن بصورة تبدو أنها مصادفة وغير متعمدة وأن يبدى الرسول اضطراباً إذا سألوه عن أى شئ !!

وهو ما حدث حين فتشوه فعثروا على الرسالة وهى مختومة بخاتم عثمان فعادوا يسألون ويستفسرون ثم ينتقمون بعد ذلك بقتل عثمان مع بقية الوفود التى كانت قد جاءت من كل أطراف الدولة !!

ولولا الرسالة المدسوسة ما عاد وفد مصر ولا تكاثرت الوفود من كل ناحية وهى تشم رائحة الغدر وتندفع بقوة الفساد الذى كان يستشرى !

ولولا بطانة السوء ما كان فساد ولا كانت رسالة ولا نهاية مأساوية للرجل !

وليتنا نستوعب التاريخ قبل فوات الأوان .. ولو مرة واحدة !!

النصف الأجمل

سمعنا ، كثيراً ، عن الجن الذى يسعف الإنسان ، فى المواقف الحرجة ، وخاصة إذا كان هذا الإنسان شاعراً.

لقد زعم كثيرون منهم - الشعراء - أن المعانى أحياناً كانت تتوقف وتكاد تتجمد فى الأذهان ، وأن اللسان كان يعجز عن نظم الكلمات ، وأن واحداً من الجن كان يتدخل فى الوقت المناسب ، لينقذ الشاعر الذى يسوقه حظه النكد إلى مثل هذه المواقف !

وعادة ما كان الشاعر يأتى ببيت واحد ، له إعجازه وتفرده ، ويؤكد أن نصفه الأول له ، والنصف الآخر من صنع شيطان الشعر .. أو الجن!

وإذا سألناه عن شيطان الشعر هذا ، من يكون ، وما هى طبيعته ، كان يرد بأنه لا يعرف ، وأن الحكاية كلها ، أنه - أى الشاعر - أراد أن

يعبر عن معنى معين ، فخانته اللغة ، وهربت منه مفرداتها ، وأن كائنا ناداه من الهواء ، وأسعفه فى الحال !

وكنا نصدق بعض ذلك أحياناً ، ونكذبه فى أغلب الأحايين ، ونأخذه مأخذ الطرفة والفكاهة فى مواقف كثيرة !

ولكن فى هذه المرة ، لا نستطيع أن نسخر أو نرد الرواية فى وجه صاحبها ، لسببين ، أولهما أن الذى يروى لنا ما حدث ، رجل فوق مستوى الشبهات والظنون كما نقول ، وهو المعتمد بن عباد ، أحد ملوك الطوائف فى دولة الإسلام بالأندلس ، أيام كانت تقترب من نهايتها.

والسبب الثانى أن الذى أوحى إليه ، نصف بيت من الشعر ، هذه المرة وعلى غير العادة ، إنس وليس من الجن.

إنس من لحم ودم ، وعاش ومات مع المعتمد ، ورآه الناس وعرفوه .

وهذا الأنس هو زوجته اعتماد.

فالرجل يؤكد أنه كان يمضى مع صديق ، على ضفاف نهر من أنهار أسبانيا ، وأنه قد انفعل بمنظر بديع ، وجرى لسانه بنصف بيت من الشعر ، يصف ما يراه ، ثم تعثر تماماً ولم يعرف كيف يتم البيت.

وراح يردد البيت ، أو نصفه بمعنى أدق ، بينه وبين نفسه تارة ، وعلى مسمع من صديقه تارة أخرى ، لعل الصديق ينقذه ، حتى أتاه صوت من مكان بعيد ، يكمل المعنى الناقص ، ويصنع نصفاً أجمل من النصف الأول.

والتفت المعتمد إلى حيث جاء الصوت ، فوقع بصره على أجمل فتاة رآها فى حياته، حتى تاريخ تلك اللحظة ، وكانت هى اعتماد ، إحدى جاريات سيد من أسياد أشبيليه فى تلك الأيام ، التى توافق مطلع القرن الخامس الهجرى.

وكان من الطبيعى ، بعد ذلك ، أن يتبعها المعتمد ، وأن يغازلها ويطاردها ، وهى تتصنع الدلال ، وتصرفه عنها بإحسان مرة ، وبعنف مرة أخرى ، وهو يلاحقها فى إصرار حتى يشتريها من سيدها ، ويتخذها زوجة ، وتلد له بعض أولاده .

وزوجة كهذه ، لم يكن المعتمد يستطيع أن يرفض لها طلبا أبداً ، حتى أنه - فيما يقال - قد أجرى لها المسك والعنبر أنهاراً ، فى قصرها، وراحت هى تخوض فيها بقدميها الحافيتين ، لتدفع فى داخلها حنيناً إلى أيام فقرها الأولى!

وكان يوماً فريداً ، بين أيام العرب بالأندلس ، تشكلت فيه الأوحال والطين ، بماء المسك ، تحت أقدام اعتماد ووصيفاتها.

فهل بعد ما كان ، وما هو كائن ، نسأل عن سبب ما نحن فيه من ضيق؟!

ولم ينطق أحد !

شاب متهور ، اقتحم مجلس الأمير ، غاضباً ، يصارحه بأنه لا يستحق الكرسي الذي يجلس عليه ، وهو كرسي الحكم ، وأن أباه ـ أبو الشاب ـ كان أحق وأولى.

وكان من الممكن ، أن يخرج الشاب محمولاً ، إلى حيث يوارونه التراب ،لولا أنه لم يكن يدري ، أنه قد وقع بين يدي أستاذ فن ، أو علم السياسة !

أما الشاب ، فهو سعيد بن عثمان بن عفان ، وأما الأمير ، فالعبارة قبل الأخيرة ، لابد وأنها تشير إلى شخصيته بوضوح ، وهو معاوية بن أبي سفيان.

ونحن نعرف الطريقة التي جعل بها معاوية ، ابنه يزيد، وليا للعهد ، بحيث يتولى هو الأمر ، بعد هلاك أبيه.

يكفى أن نعرف ، أنه أجلس يزيداً ، وبجانبه سياف شاهراً سيفه فى وجوه الحاضرين ، وعلى الجانب الآخر معاوية ، ولما تهيأ للحاضرين جميعاً مجلسهم ، هتف السياف بما ألجم كل الألسنة!

قال إن أمير المؤمنين هذا .. وأشار إلى معاوية .. ولم ينطق أحد.

وإن هلك فهذا .. واتجه ببصره نحو يزيد .. ولم يهمس أحد !!

ثم أدار السيف فى يده عدة مرات ، وهو يريد بذلك أن يقول شيئاً ما، واللبيب بالإشارة يفهم ، كما يقول العرب.

أما المعترضون ، فليس لهم إلا هذا .. ولم يكن هذا الأخير ، إلا السيف الذى خطف لمعانه الأبصار.

ويبدو أن سعيداً ، كان من بين الذين شهدوا ذلك المجلس الرهيب ، ولم يكن راضياً، ولا مقتنعاً بالبنود الثلاثة ، التى طرحها السياف ، ولكنه ، لحكمة رآها ، فضل أن يؤجل اعتراضه ، ورأية فيما سمع إلى حين .

ولما أرتاى ، أن هذا الحين قد جاء أوانه ، أخذ طريقه إلى حيث كان معاوية يدير شئون البلاد.

كان من رأى سعيد ، أنه لا معاوية يصلح لأن يكون أميراً على البلاد ، ولا ابنه ، يستطيع أن يكون ولياً للعهد.

وهو رأى أبداه لمعاوية ، فى ثورة شديدة ، إذ كيف تتولى أنت يا معاوية شئون الحكم ، وأبى عثمان ، كان أفضل منك ، كما أننى أفضل وأكرم من يزيد بكثير ، وأمى ، أيضاً ، أفضل من أمه.

ومعاوية ، الذى ابتدع سياسة شعرة معاوية الشهيرة ، لم يكن ليعجز عن استيعاب ثورة سعيد ، وقد أدرك أنه لا شئ يجدى ، فى مثل هذا الموقف ، إلا العقل والحوار.

بدأ يهدئ من ثورة الشاب ، ويستدرجه بدهائه المعروف ، وبسياسته التى أرسى قواعدها ، فى تلك الأيام البعيدة.

إذا كنت يا بنى - هكذا بدأ - تقول أن أباك ، كان أفضل منى ، فإنى أوافقك على أنه كان كذلك ، حقاً ، ولا يزال - ولكن لا تنسى أنى ثأرت له ، وأنه قد مات .. والحى أبقى من الميت!

وقولك أن أمك خير من أم يزيد ، فيكفى المرأة أن تملأ بيتها ، وترضى زوجها ، وتنجب أولادها ، ولست أرى أن امرأتى عاجزة عن ذلك ، فلتذهب أمك ، إذن ، بما تشاء وما تبقى من الفضل والكرم.

ولم ينكر عليه معاوية ، إلا البند الذى يخص ابنه يزيد ، فقد اعترف أن ملء الأرض شباباً من عينة سعيد ، لا يعوضه شيئاً عن يزيد !

ولو كان عثمان حياً - فى المقابل - لما قال غير هذا ، ولجعل سعيداً فوق كل أبناء الأرض ، وإن كان ابنه كسيحاً ، لا يقوى على الحركة ، فضلاً عن ولاية العهد !

ومضى معاوية يحاوره ، ويناقشه بالكلمة والعقل ، والحجة ، ويرد عليه ، ويأخذ منه ، ويمد بينهما شعرته الشهيرة ، ، إذا جذبها سعيد أرخاها معاوية ، وإن أرخاها الأول ، جذبها الثانى !

وقد غادره سعيد ، وهو موقن بأن العقل ، والعقل فقط ، يكسب دائماً.. كما رأى وسمع!

لا إسم لها ولا عنوان

مجنون ليلى ، لم يفقد الأمل أبداً ، فى أن يلين قلبها يوماً ، أو قلب أبيها ، فيكون لهما لقاء.

وكان يطلب صراحة ، من أى إنسان يسمع بحبهما ، أن يقرأ الفاتحة، ثم يؤمن ، أى يقول : آمين !

آمين على ماذا ؟! على أن يلتقى المجنون ، قيس بن الملوك ، ويأذن الزمان ، بأن يقع القرب .. ثم التلاقى.

قال : يا رب لا تحرمنى حبها أبداً ، ويرحم الله عبداً قال آمين !

والعجب ، أنك تجد كل قصص الحب ، عند العشاق العرب القدامى فى اتجاه واحد ، بمعنى أن الرجل هو الذى يبدأ ، عادة ، وهو الذى يطارد ويلاحق ، والفتاة هى التى تناور وتلاوع وتتدلل تارة ، ثم تستجيب تارة أخرى.

إن قيسا لما يئس ، كما نرى فى عبارته الأخيرة ، دعا الله ألا يحرمه حبها أبداً ، وأن يرحم كل الذين يدعون له بالنصر .. مع ليلى.

ولم نقرأ له ـ مثلاـ ما يشير إلى إنها كانت تسعى ، وهو الذى يواجه لوعه الحب ، وهو الذى يقول : لا تحرمنى حبها ، ولم يقل ولا تحرمها حبى ، أو بمعنى أصح لم تبادر هى وتطلب ذلك فى المقابل.

ونفس التجربة ، كانت نسخاً من صورة وأصل واحد ، مع كثير الذى أتعبته عزة ، وقيس بن ذريح الذى دوخته لبنى سبع دوخات ، وجميل الذى أرهقته بثينة .. إلى آخر هؤلاء المحبين ، الذين كانوا ضعافاً أمام فتياتهم ، ولم يملكوا إلا الشكوى ثم الرجاء من الله.

ولكن يبدو أن فتى واحداً ، أراد أن ينتقم لإبائه المحبين ، فجعل نفسه فى موضع عزة أو لبنى ، أو ليلى ، وجعل فتاته ، التى لا نعرف لها اسما ـ تسترضيه عند كل الذين يملكون الوساطة عنده ، بينما هو له قلب لا يعرف الهوى !!

والبنت كانت تعتبره بلاء يختبرها الله به فى الدنيا ، وكانت تعلن رضاءها بما قضى الله ، وأنها إذا كانت قد تناءت عنه فى الدنيا ن فليس أقل من أن يكون لها معه موعد فى الآخرة!

ومن الواضح ، أن المسكينة وقعت مع فتى ، له عقل يقيس به كل الأمور ، بمقياس الربح والخسارة ، وأنه كان يأخذ حبها له ، مأخذ التجارة ، التى إن لم تكن مضمونة ، منذ البداية ، فلا ضرورة لها.

ونفس الذى طلبه قيس ليلى ، طلبته الفتاة المسكينة ، مجهولة الاسم والعنوان ، وإن كنا نعرف أن فتاها الذى رفض بعزم أن يستجيب لها ، اسمه أبو الفوارس ، وهو شاعر آخر غير عنترة.

كانت مفتونة به ، وهو لا يسأل فيها ، ولا يلتفت إليها على الإطلاق، ثم تقول هى : فإن كنت ، يارب ، لم تقض المودة بيننا ، فلا تخل من حب له ، أبداً ، قلبى !

والشئ الثابت ، والمؤكد ، أنه قد أمعن فى تعذيبها ، كما عذبت رفيقاتها أخواناً له من قبل.

وكانت تلك هى المرة الوحيدة ، تقريباً التى نطالع فيها أمر فتاة ، راحت تطلب الود ، بينما فتاها الذى اختارته هى يصدها صدوداً !

لو أن قيساً ، وبقية العشاق فى الأدب العربى ، سلكوا مسلك أبو الفوارس لكان الوجد عندنا ، قد سار فى إتجاه معاكس ، حتى إذا تأكد صار قاعدة !

فلا عاشت الأسماء !

لو شاء الله لهذا المطرب ، أن يشتهر ، ويذيع صيته وصوته ، لكان قد غطى على إبراهيم الموصلى ، أشهر المطربين العرب القدامى ، ولكان قد تجاوزه بمراحل.

ولكن يبدو أن أسمه ، لم يكن على ما يرام ، أو لم يكن - بمعنى أدق - اسماً فنيا ، يعلق بالأذهان ، ويسهل ترديده وتذكره ، عند عشاق الصوت الجميل.

إن اسمه كان غريباً ، لا يكاد يذكره أحد : مخارق بن يحيى الجزار!!

وليس من اللائق أبداً ، أن يقترن اسم مطرب كبير ، في حجمه ، بالجزارة ، والسكاكين والسواطير .. وخلافه.

ولكن ما ذنبه ، وأبوه في الأصل كان جزارا ، وكان هذا المطرب المسكين ، الذى ظلمه إسمه ، وجار على صوته ... كان يقف بجوار

أبيه ، ينادى بأعلى صوته على اللحوم ، ويغرى الزبائن بالتنغيم تارة ، وبالغناء تارة أخرى ، ويلقى موالا مرة ، وبيتاً من الشعر مرات أخرى.

وقد ظل كذلك ، حتى كتب الله له ، أن تسمعه إحدى زبائن أبيه.

فيصيبها صوته بالهوس ، وقد كانت ذواقة للصوت الرخيم ، فأبت إلا أن تنفق عليه وتتبناه وعرضت على أبيه أن يبيعها إياه ، فأستجاب؟!

وتبين فيما بعد ، أنه لم يكن ابنه ، ولا يحزنون ، وإنما هو غلام اشتراه الجزار ، ينادى بأعلى صوته على بضاعته.

والذين سمعوا إبراهيم الموصلى ، ثم سمعوا ذلك الولد ، قالوا إنه يفوق الموصلى بكثير ، رغم إنه أى مخارق ، قد تعلم أصول الغناء على يدى الموصلى ، مع ما للأخير من باع طويل فى الغناء والطرب.

وبلغ الشجى فى صوته ، حداً لا يتصوره أحد ، حتى إنه كان قادراً ، إذا أراد أن يجمع أى عدد من الناس ، أن يقف - فقط - حيث يشاء ، ثم يبدأ فى الغناء ، والبقية تأتى بعد ذلك.

فهو تارة ، يدندن ببعض كلمات ، على مقربة من مقبرة حولها بعض المشيعين يوارون ميتهم التراب ، فما يكون منهم إلا أن يتركوا الميت ويسعون لسماع الصوت الذى يكاد يكون مزماراً من مزامير داود عليه السلام!

وكان هذا المطرب ، سيئ الحظ ، هو الوحيد الذى حج بيت الله ، ذات يوم ، لا لأنه يريد أن يتوب من ذنوبه ، ويغتسل مما ارتكب فى دنياه.

إنما سعى للحج ، لأن جاريته التى هام بها ، كانت قد مضت مع مولاتها ، تطلب من الله ، أن يلين قلب سيدتها ، فترضى بأن تزفها إلى حبيب القلب !! المطرب الجزار.

وفى طريق العودة ، سمعت المرأة ، وترامت إليها أنباء ما كان بين جاريتها ، وبين المطرب ، الذى لم يسمعه أحد ، إلا أحب صوته ، وأدمنه ، ثم كره أسمه !

وما ظنك فى مطرب ، أسمه يحيى الجزار ؟!

إنه يشبه إلى حد كبير ، هذه الأسماء التى تشيع اليوم ، وليس بينها وبين الطرب أو الذوق الرفيع أدنى صلة !!

وكانت أم جعفر ، مولاة الجارية ، تجاهد كى تمنعه من المرور أمام بيتها ، والتربص بالبنت ، ولكنه كان يرد عليها بأنه محب ، وليس الحب عاراً ، ثم إنها لن تقوى على منعه من الحب ، ولا من المرور قريباً من البيت ، لأنه يستطيع أن ينظر من بعد ، إلى الدار ، وأن يكرر حكاية قيس مع ليلى ، ويجلب لها من الصداع اليومى ، ما هى فى غنى عنه !! غير أنها رفضت بعزم لا يلين.

وبدأ ، أن سوء حظه فى الطرب ، قد أدركه أيضاً فى النساء !

بين .. بين !

إذا وصفت رجلاً ، فقلت أنه أعشى ، فمعنى ذلك إنه ، بمقاييس البصر ، يقع في مرحلة البين بين ، فلا هو أعمى ، ولا هو يرى بوضوح.

والحكيم العربي ، حسمها حين قال : سبحان من أعطى فلا عتاب ولا ملامة .. أعمى وأعشى ، ثم ذو بصر ، وزرقاء اليمامة.

والدرجات الثلاث الأولى ، معروفة ، ولكن زرقاء اليمامة ، درجة قصوى ، لا يرتقى إليها البصر ، إلا إذا كان حاداً ، يشبه ويماثل البصر عند الصقر ، الذى يرى لمدى يفوق رؤية الإنسان العادى ثمانى مرات.

وأسطورة زرقاء اليمامة ، أو حكايتها ، ليست فى حاجة إلى مزيد!

وأحد الشعراء العرب ، حمل ذات يوم هذا الاسم - الأعشى - واشتهر به ، حتى نسى الناس اسمه الحقيقى !

كان الأعشى يتردد كثيراً ، على عبد الملك بن مروان ، وكان من حوارييه ، يمتدحه ويدافع عنه كثيراً أيضاً !

وإذا كان أبو الطيب المتنبى ، قد وقف يوماً يمتدح سيف الدولة الحمدانى ، فى صورة أخته خولة أو العكس ، فيقول ، موجهاً الكلام إليها : يا بنت خير أب ، يا أخت خير أخ ، كناية بهما عن أشرف النسب .. فإن الأعشى قد فعل ذلك أيضاً ، ولكن مع عبد الملك ، وابنه، هذه المرة.

وكان من عادة الأعشى ، أنه إذا امتدح أحداً ، أسرع ليقدم مذكرة تفسيرية أو ما يشبهها ، كى لا يتورط فى قول ما لا يحب ، فيحسب عليه ، وليس له.

لو قرأت بعض الحوارات ، التى كانت تجرى بينه وبين الحجاج - مثلاً - لاكتشفت إلى أى مدى ، كان قادراً على الإقناع ، ما دام هو مقتنعاً فى الأساس.

ومن ذلك ، أنه دخل يوم على عبد الملك بن مروان ، وراح يمدحه، ويطيل فى المدح، بينما الحاضرون جميعاً ينظرون إليه فى دهشة واستغراب !

وبعض الذين سمعوا امتداحه لعبد الملك ، مال بعضهم على البعض الآخر ، وراحوا يتهامسون ، بما يعنى أنه منافق ، وأنه صحيح رجل أعشى ، بل أعمى لا يرى.

وبعضهم رأى أن الأعشى صادق فيما قال ، فكان عجبهم لا ينقضى، كيف يمكن لهذا الأعشى أن يقتنص المعنى هكذا ، فلا يخيب له سهم.

وكان على الأعشى أن يجيب ، وأن يوضح للمتهامسين ، ما أستغلق عليهم فيما سمعوا منه.

قال : وفضلى فى الشعر واللب أننى ، أقول عن علم وأعرف من أعنى!

وحين سمع عبد الملك ، هذا البيت ، أو هذه العبارة ، تململ فى مكانه ، ونظر إليهم نظرة المشفق ، وتنفس عميقاً فى سعادة بالغة ، ولسان حاله ، وهو يتطاول كالطاووس ، يقول: أرأيتم ؟!

وقبل أن يفيقوا من وقع عبارته - الأعشى - عليهم ،عاجلهم بالعبارة الأخرى ، والأخيرة ، وقال مطمئناً : فأصبحت إذ فضلت خير أب وابن!

وقد فهموا طبعاً ، وفى مقدمتهم عبد الملك ، أن الرجل يفسر تميزه فى العقل والشعر معاً ، بأنه إذا قال ، لا يقول الا عن علم ، وإذا وصف، لم يتورط فى وصف إلا ما يعرفه ويعنيه على وجه التحديد ، وما عدا ذلك ، فهو يسكت !

وقد إنفض المجلس ، وعبد الملك وابنه يرددان قول الأعشى فيهما ، بينما الآخرون يتهامسون - مرة أخرى - فيما بينهم ، بأن الله إذا كان قد اقتطع من بصر هذا الرجل جزءاً ، فقد أضاف لعقله ومنطقه أجزاء.

حجب عنه بعض البصر ، ومد له فى البصيرة ، فلم يسلم من حسد المبصرين !

واحد يطلب ماء .. والآخر يطلب ناراً !

لا أحد يعرف ، على وجه اليقين ، إن كان هذا الاسم ، قد سبب لصاحبه الشاعر ، عقدة نفسية ، وجلب عليه المشاكل أم لا ؟

أما الاسم ، أو اللقب ، فهو ذو الرمة ومعناه صاحب الحبل ، ولو أخذ الرجل هذا المعنى ، على محمل الجد ، لكان قد ضاق بحياته ، وأنهاها ـ والعياذ بالله ـ بيديه .

ولكن يبدو أن ذو الرمة وهو شاعر كبير ، قد استحسن لقبه الجديد ، الذى خلعته عليه امرأة ، لأن اسمه القديم بصراحة ، كان أسوأ من الجديد ، فأسمه الحقيقى : غيلان !!

وفى الريف ، كانوا إلى وقت قريب ، يطلقون على الأبناء ألقاباً أو أسماء قبيحة ، إتقاء الحسد ، وحتى يعيش الولد ، الذى إذا كان اسمه قبيحاً ، أو غريباً وثقيلاً على الأذن ، لم يتوقف عنده الحاسدون لا طويلاً ولا قصيراً ، وبالتالى فلا فرصة للحسد ..وجهة نظر !

ولو كان الأمر ، بيد غيلان هذا ، لما اختار الرمة ، الذى هو الحبل ، ليقرن بينه وبين اسمه.

فالشاعر القديم كان يقول بأنه لا يقيم على ذلك يراد به ، إلا الأذلان : عير الحى والوتد !

والوتد معروف ، أما عير الحى ، فهو الحيوان ، أو أية دابة ، تظل على الخسف مربوطة ومشدودة برمتها ، فلا يرثى لها أحد !

وغيلان لم يكن مربوطاً بحبل ، ولا مشدوداً إلى وتد ، وإنما هو الاسم ، الذى كلما ذكره أحد ، أعاد إلى الذهن الصورة التى رسمها الشاعر القديم للذل والإقامة عليه قهراً.

ولم يكن غيلان شاعراً محدود القيمة ، أو عديم الموهبة ، ويكفى أن نعرف ، أن جرير و الفرزدق قد شهدا له ، وبصما - على رأى المثل - بالعشرة ، لشاعريته التى كانت تتدفق بغير حدود.

وفى وقت من الأوقات ، وقف ذو الرمة مختالاً كالطاووس ، وهو يقول : إنه لم يحدث معه يوماً ، ولا مرة واحدة ، أن قال : كأنه .. ثم توقف أو تعثر لسانه !!

لم يحدث أبداً أن أراد صورة ما ، أو تشبيهاً أيا كان ، ثم استعصى عليه ، يكفى أن يقول كأنه ....

وهى درجة من الشاعرية ، ليس بعدها درجات أخرى ، يرتقيها الشاعر ، خاصة إذا عرفنا أنه حين يقول : كأنه .. أيا كانت الصورة لحيوان أو إنسان ، أو غيرهما ، فإنه يفعل ذلك شعراً ، وليس ارتجالاً فى

حديث عادى مع صديق ، وليس هذا فقط ، وإنما غالباً ما يكون الأمر سباقاً مع شعراء آخرين ، من أمثال جرير ، أو غيره ، فلا وقت للتراجع.

وليس هناك شك ، في أنه كان سعيداً باسمه الجديد ، لولا أن بعض الخبثاء من الشعراء ، كانوا يستغلون ذلك استغلالاً بشعا ، فإذا أراد أحدهم أن يستخدم الاسم في السخرية والغمز واللمز ، وضعه بين قوسين، وراح يعيده ويتوقف عنده ، ويضيف إليه من المعانى ، ما يجعله فى ذهن السامع أو القارئ ، مرتبطاً بمعناه القديم أو الحقيقى ، بالوتد وعير الحى.. إلى آخره.

وقد صبر ذو الرمة على اسمه طويلاً ، وكان يختال به ، آملاً فى أن تجود صاحبته بشئ ما ، ولكنها كانت بالغة البخل !

وهى فتاة من بنى عامر - نفس القبيلة التى أنجبت ليلى فتاة قيس - مال عليها يوماً ، غيلان ، يطلب ماء يشرب ، وليس ناراً كما طلب قيس بن الملوح ، فاستجابت له مى العامرية وهذا هو اسمها ، وسقته ، ولما لاحظت أن على كتفيه حبلاً ، وهى لا تعرف اسمه ، خاطبته بما وقعت عليه عيناها : يا ذا الرمة !!

كانت تسقيه ، والماء يندلق ، ويبلل ثيابه ، وهو يكاد يغيب عن الوعى ، بينما هى وأمها تتعجبان من هذا الفتى ، الذى جاء يغرق الحى بالماء ، كما أشعله قيس ، من قبل ، ناراً!

لو عاش مائه عام .. أخري !

لو كتب الله ، لفتانا المتيم ، قيس بن الملوح ، أن يعيش مائة عام أخرى حتى يدرك العصر الأموى ، لكان قد إنتحر!

والسؤال هو : لماذا ؟

والجواب أنه كان سيلاقى شاعراً آخر ، أحب فتاة من بنى عامر - ذات القبيلة التى تنتسب إليها ليلى ، حبيبة قيس - وهذه الفتاة ساقت الدلال على الشاعر ، وتمنعت ، وأظهرت اللامبالاة تارة ، والتجاهل - عمداً - تارة أخرى ، فلم يكن من الشاعر ذى الرمة إلا أن لعن أباها ، وأقسم ألا يعرفها بعد اليوم!

كان من الممكن أن يقف ذو الرمة على بابها كما فعل قيس - طويلاً ، وأن يطاردها أينما ذهبت ، ويبعث إليها برسائله شعراً مرة ، ومع رفيقاتها مرات .. إلى آخر تلك السبل التى لم يدع قيس منها

سبيلاً، ثم أهلكته فى النهاية ، وصده أهل العروس صدوداً .. ومع ذلك كان مصراً ، مصمماً على أن تكون ليلى له ، وأن كان ذلك سوف ينال بعضاً من كرامته !! كما حدث.

ولكن يبدو أن ذى الرمة كان إنساناً مجرباً ، وصاحب تجارب طويلة، وكثيرة ، فى الحب ، علمته جميعها ، أن يطلب حقه بعزة نفس، سواء كان هذا الحق رزقاً يعيش به ، أو حباً ينبض به القلب !

كان قد عرف ، قبل فتاة بنى عامر ، فتاة أخرى ، أسها مى وهو شئ عجيب ، أن يكون اسم مى موجوداً فى تلك السنين البعيدة ، بينما ظاهره ، أو شكلة كما نقول ، يوحى بأنه اسم عصرى ، من قبيل أسماء أخرى ، مثل : رانيا ، داليا .. إلى آخره !

والأهم أن مى تزوجت ، فأراد صاحبنا أن يطلب الحب عندها ، وهى زوجة ، وأحتال على زوجها ، وزعم له أنه غريب ، وعابر سبيل، يستحق الشفقة ، ويستأهل الإحسان ، وله حقوق الضيف!

ومن الواضح أن الزوج ، قد لمح فى عينيه غدراً ، ولاحظ أنهما تتلصصان نحو مى فوفاه حق الضيف ، واعتذر عما بعد ذلك من مبيت وإقامة وخلافه !

ولم يفهم ذو الرمة الإشارة ، فمكث غير بعيد ، يردد بيتاً من الشعر ، معناه إنه لا يزال قائماً على حب مى وأنه يسأل متى يعودان أحدهما للآخر.

وقد أثار ذلك ، ثائرة الزوج ، وأقسم على مى أنها طالق ثلاثاً ، إن لم يتخرج إلى هذا المعتوه وتصارحه بأنه أخطأ فى العنوان ، وأنه ليس بينها وبينه حب ، ولا عشق ، ولا أى شئ قد يطوف بخاطره !

وكانت مى تستمهل زوجها ، وتهدئ من غضبه وثورته ، وتقول وهى تشير إلى الذى فضحها أمام زوجها ، وكاد يهدم بيتها .. كانت تشير وتقول : إنه شاعر ثم تسكت.

وفى هذه العبارة الأخيرة ، طبعاً ، إشارات ومعان لا تخفى على أحد !

وأقتنع ذو الرمة ، أنه مفيش فايدة وأنه من الأكرم له ، أن ينصرف بإحسان ، وأن يطلب ما يشاء عند امرأة أخرى ، فقد انكرته مى رغم ما كان بينهما ، فقرر هو الأخر ، أن ينساها ويعتبرها - فى حياته - شيئاً لم يكن !

ولك ، الآن ، أن تعقد مقارنة سريعة ، وتستعرض فى الذهن ، صور البهدلة التى لقيها قيس.

وفى طريق عودته ، لقى ذو الرمة خرقاء وهى فتاة بنى عامر ، التى سألها أن تسقيه ، فأعتذرت ، وقالت إنها خرقاء وإذا لم يكن يعرف معنى ذلك ، فليعرف ، وهو أنها كريمة فى قومها ، عزيزة على أهلها ، لا تفعل شيئاً بيديها ، لأنها لم تخلق لذلك !

وقد قرر ذو الرمة ، أن يموت ظمآناً ، للحب والماء معاً ، وأن ينالهما بعزة نفس أو يستغنى عنهما تماماً ولا يكرر مأساة قيس .. لأن عنده أمام أية امرأة ، كرامة لا يساوم عليها!!

C.V

يا سعدها ، بنت الجيران ، التى كانت شرفتها على بيت عنترة بن شداد ، فارس العرب القديم.

والشرفة هنا ، طبعاً ، أو البيت ، مقصود به الخيمة ، فلم تكن غير الخيام ، فى تلك الأيام ، مأوى للبشر.

وعنترة بن شداد ، يبدو إنه لم يكن فارساً فى الحرب والقتال فقط. وإنما كان فارساً أيضاً فى أخلاقه ، بل وفى خصومته أيضاً.

والبنت التى جاورته ، لم تكن فى حاجة لأن تحكم إغلاق النافذة أو الباب ، حتى لا يتلصص عليها ابن الجيران ، الذى هو عنترة.

وهو حين ذهب يخطب عبلة ، أراد أن يقدم كشف لياقته البدنية والنفسية ، وأن يكشف عن معدنه بالضبط.

أما اللياقة البدنية ، فقد أحال السائل عنها ، وفى مقدمة السائلين كان حماه وابنته عبلة.. أحالهما إلى أرض المعركة ، وطلب منهما أن يسألا الخيل إن شاءا ، على طريقة أبى الطيب المتنبى.

وهى مناسبة أخرى ، وليست أخيرة ، كى نعرف فيها ، بشكل عابر قيمة وقامة رجل فى حجم أبى الطيب ، الذى لما سأله السائلون ، أحالهم إلى سبعة شهود : الخيل ، الليل ، البيداء أى الصحراء ، والسف ، الرمح ، القرطاس وهو الورق ، ثم القلم.

كل شاهد منها ، كفيل بأن يقيم سيرة رجل ، فلا يجعلها فى حاجة لزيادة .. غير أن أبا الطيب قد جمع منها ، جميعاً ، بأوفر نصيب.

وليس أدل على ذلك ، من أن عنترة ، بجلالة قدره ، لم يجمع منها غير شاهد فقط : الخيل .. وقد كفاه.

وأما كشف اللياقة النفسية ، فأول بند فيه ، أن صاحبه ، أى عنترة ، كان أبعد ما يكون، عن أصحاب العيون الزايغة تلك العيون التى إذا لمحت امرأة ، راحت تتلصص ، كقطة تتسلل إلى فريستها من طرف خفى.

إنه رجل ، يغض طرفه ، إذا ما بدت له جارته ، حتى يوارى ، أو يدارى جارته مأواها!

وهو لا ينكر إنه بشر ، وأن له نفساً ترغب وترهب وتنفر ، كما أنه ليس ملاكاً.

فهو قد يرى المرأة ، أو الفتاة ، فتعجبه ، ويريدها ، فلا يطادها ، ولا يقربها حتى يوفي مهرها مولاها !

كان يستطيع ، بلغة هذه الأيام ، أن يشير إليها ، فتتبعه ، أو تطيعه هي مختارة ، ويهرب بها ، ليضع أبويها أمام الأمر الواقع .. ولكنه فارس حتى في الحب ، بكل ما تعنيه كلمة فارس بعيداً عن فنون الحرب.

والشئ الطبيعي ، أن تستحي البنت ، فتتوارى هي ، إن صادفت عيناً تتسلل من النافذة .. أما أن يخجل الرجل ، ويغض طرفه هو ، فهذا هو الجديد ، الذي يشير إلى معدن رجل ، علمته الحرب أن يرتفع فوق الصغائر.

ويظهر ، أن عبلة وأباها ، قد استغربا ذلك من عنترة ، وبدا على وجهيهما ، ما يشكك فيما يزعم العريس ، الذي جاء ليبيع الماء في حارة السقايين.

فليس بشراً، الذي يحمل هذه الصفات ، وإنما هو ملاك ، أو زاهد في الحياة لا يبرح صومعته .. ولا يصلح للزواج !

وكان على عنترة ـ عندئذ ـ أن يقدم آخر بند في كشف لياقته ، وأن يبدى ما يستند إليه فيما يقول ويدعى ، وإلا سقط مباشرة ، في عين العروس وأبيها.

والبند الأخير ، كان بسيطاً ، ولفرط بساطته قد يبدو سهلاً ، وممكناً لأى أحد.

قال عنترة : إننى لا أتبع نفسى هواها !!

والهوى هنا ، بمعنى الغرض لا الحب ، والغرض كما يقول عامة الناس مرض ، وما دخل فى شئ إلا أفسده.

إذن ، يكفيك جداً ، كعنترة ، أن تصلح من أمر نفسك ... ونفسك فقط.

كيد الرجال !

أحب ، فعف ، فمات شهيداً .. ولكن استشهاده كان عجباً فى عجب.

لقد مات صريعاً ، فى حادثة ، ولكنها أيضاً حادثة غريبة ، ، وتكاد تكون شاذة ، لا تليق بشاعر كبير مثله ، لم يقف موقفاً ينال من كرامته أبداً.

وما معنى ان يموت ذو الرمة ، فى حادثة قبل ألف عام ، ولم تكن هناك سيارة ولا طائرة ؟!

ليس هناك احتمال - إذن - إلا أن يسقط من فوق حائط مثلاً ، فتندق رأسه أو رقبته أو يسقط فوقه حجر من صخرة عالية ، أو - وهذا هو الاحتمال الأخير - تصرعه دابة !

مات الرجل فى حادثة حمار ، أو حتى حصان .. لا فرق.

الأهم أنه أمتطى دابته ، التى هى الحمار أو الحصان ، وخرج فى رحلة صيد أو هكذا كان يزعم ، ولكنه كان يحوم حول بيت خرقاء وهو اسم المرأة التى أحبها وعرفها ، لا لأنه كان قد أحبها فعلاً ، ولكن لأنه كان يريد أن يغيظ مى فتاته الأولى التى تمنعت ، وتأبت عليه ، وساقت الدلال إلى حد لم يتحمله ذو الرمة ، فقرر أن يعرف امرأة أخرى وأن يقول فيها شعراً يشيع بين الناس حتى يصل آذان مى فتعرف قدرها وحجمها بالضبط.

ولكن يبدو أن الرجل كان يراهن على فرسين خاسرين ، فلا هو قد أغاظ الأولى مى كما أراد ، وكما ينبغى ، ولا هو قد قال فى الثانية شيئاً يمكن أن يبقى فيحفظه الناس ، ويتناقله رواة الشعر ، بل إنها نفسها ، الخرقاء ، لم تقبل منه شعراً ولا حباً ، فعاد مكسوراً ، حزيناً ، يلعنهما معاً.

والحقيقة ، أنه ليس هو الذى عاد ، وإنما الذى عاد هو الحمار ، وحيداً ، نافراً ، عليه بعض أثار دم ، ينبئ عن مكروه أصاب صاحبه.

وكان بذلك ، يعيد إلى الأذهان ، قصة أم عمرو ، التى أحبها فتاها ، فخرجت ذات يوم ، على ظهر حمار ، فلا عادت ، ولا عاد الحمار !!

وكان فتاها هذا ، يمضى فى الطرقات ، وهو مذهول ، مأخوذ ، يهذى بكلمات لا يغيرها ، ذهب الحمار بأم عمرو فلا عادت ، ولا عاد الحمار !

كان يقول ذلك ، لأن الحمار معروف عنه ، رغم ما أشتهر به من غباء ، إنه يستطيع أن يعود لبيت صاحبه ، وحيداً ، بغير مرشد ، مهما كان البيت بعيداً ، أو مستقراً فى قاع حارات ضيقة !

والحمار الذى عاد ، بغير ذى الرمة.. ركبوه ، ثم عادوا به من حيث أتى ، فقادهم إلى حيث وجدوا الشاعر صريعاً ، قد فارقته روحه ، تاركاً بجانبه بعض أبيات من الشعر.

ولو كانت فى أيامه ، جمعية للرفق بالحيوان ، لعاقبته على ما قال ، وعلى اعترافه فيما ترك من الشعر- بأنه كان قاسياً ، غير رحيم مع الحيوان.

وإذا كان الحمار ، قد نفر ، وفر هارباً ، وهو- أى الشاعر- يحاول أن يحكم قياده ، فلا يستطيع ، ثم يسقط ميتاً بهذا الشكل ، فليس الذنب ذنب الحمار ، ولكنه ذنب الشاعر ، الذى أحب أن يظهر فروسية أمام مى و خرقاء فخانه حظه ، وافتضح أمره !

والشاعر الذى لا يستطيع أن يتعامل مع حمار ولا أن يسيطر عليه فى صحراء واسعة ، لابد أن يعجز عن معالجة أمور الحب ، مع امرأتين ، كانت كل واحدة منهما ، تترصد له وتجاهد كى تكشفه أمام الأخرى !

كما أن الشاعر الذى يقول : يا مى لا مرجوع للوصل بيننا ، ولكن.. هجراً بيننا وتقاليا .. أى بعدا .. هذا الشاعر ، ضاق بـ مى فأعلن عليها الحرب فجأة ، هكذا- وبصراحة - فتربصت به خرقاء وجعلت تشكوه مرة ، وتسخر منه مرات ، حتى عاد مغموماً ، مهموماً ولم ينتبه إلا والحمار ينفر به ، ويطرحه أرضاً ، ويسرع إلى أهله ، يخبرهم بأن ذا الرمة ، قد خسر الحب والحياة معاً !

ما أضعفه شاعراً لا يقوى على حب امرأتين ، وشاعراً يموت من رمية حمار !

نور..ونار!

بين الحب والحرب ، حرف واحد هو الراء ، يزيد فيجعل الأمر حرباً وناراً ، ويختفى فتكون نار أيضاً ، ولكنها نار الحب التى فى القلوب.

ولابد أنه شئ يلفت النظر ، حين يكون بين الحب والحرب شبه كبير، فى الحروف وفى طريقة النطق معاً. مع أنه شتان ما بين الحالتين.

والأعجب من ذلك ، أن يكون هو نفسه حرف الراء ، ما يفرق ويميز بين الحور والحول ، أو بين العين الحولاء والحوراء.

والشاعر جرير ، قتلته عين حوراء ، أو على حد تعبيره : فى طرفها حور ، ثم لم يحيين قتلانا أى العيون التى فى طرفها حور.

والحور كما نعرف ، هو شدة سواد وبياض العين فى وقت واحد ، بحيث لا تكون هناك فرصة لمرحلة البين بين ، فهو سواد فاحم كالليل

البهيم ، كما يقول العرب ، وبياض ناصع كاللبن. الحليب كما يقولون أيضاً.

والحول - بفتح الواو - في العين ، ليس في حاجة إلى مزيد ، لأنه ببساطة يجعلك لا تدرى ، إن كانت التى أمامك تنظر إليك ، أو تتأمل الذى بجانبك ، فعيناها تتجهان ، رغما عنها إلى حيث لا تريد !!

والحول ، كما نفهم من جرير ، شئ منكور في العين ، أما الحور ، فهو ليس مرغوباً فقط ، وإنما هو قاتل في ذات الوقت.

ولا تعرف كيف تهيأ لجرير ، ذلك الرجل الذى قضى عمره في خناقة طويلة مع الفرزدق ، لا تعرف كيف أحب ، وعشق ، وقتلته صاحبة العين الحوراء ، ثم لم تحيه ، كما اعترف هو .

ومن الممكن ، أن يسمع واحد اليوم ، ذلك البيت من جرير ، ثم لا يعبأ به ، بل وقد يسخر من قائله ، إذ كيف يستقيم العقل والمنطق ، مع رجل في وجهه شارب يقف ليصيح : إن العيون التى في طرفها حور قتلننا ثم لم يحيين قتلانا.. أى رجل هذا ، الذى تصرعه امرأة ، وبماذا؟! بعينيها ، وليس بسكين أو سيف ، أو شئ من هذا القبيل .. ثم تخلفه وراءها قتيلاً.

والجواب أن هؤلاء لو سمعوا أبا فراس الحمداني ، وهو يستغيث هو الآخر : خلفتنى وراءها طريحاً وهى قائلة .. انظروا كيف فعل الظبى في الأسد؟!

لو سمعوا ذلك ، فسوف يكون لجرير العذر وخاصة أن العيون التى فى طرفها حور ، لا تكاد توجد اليوم ، إلا قليلاً ، فهى قد ارتبطت ببنات الصحراء ، التى إن كشفت الواحدة منهن عن عينيها ، فهى فتنة، بكل معنى لهذه الكلمة.

وهند ، عاشقة عمر بن أبى ربيعة ، أمير الشباب المحبين ، ولنقل أنه هو الذى عشقها ، وليست هى ، لأنها دوخته ولم تعطه شيئاً ، وحذرته منذ البداية ، أنه : ما لمقتول قتلناه قود .. والقود هو الدية التى يدفعها أهل القاتل ، لأسرة القتيل .. أقول إن هندا لما رأته استمرأ وتلذذ بالعذاب معها ، جعلته يطاردها حتى الموت ، ولا ينال شيئاً.

والذين لهم خبرة بالعيون ، يعرفون جيداً أن لها لغة لا تخيب ، وأنها تستطيع باللحظ والطرف ـ الذى به حور ـ أن تتفاهم ، وترسل وتستقبل ، وتقول ما تريد ، بغير أن تنطق صاحبتها بكلمة واحدة.

ونظرة واحدة ، من هذه العيون ، تكفى..

وليس أبلغ من حالة جرير ، الذى يبدو أن الله قد سلط عليه واحدة منهن ، تنتقم منه جزاء ما فعل فى الفرزدق وغيره من عباد الله.

فأنظر فى أى عين ، لترى إن كان الحور لا يزال موجوداً ، أم أنه صار شيئاً آخر؟

لوجه الله !

الجارية ، قديماً ، كانت ملكاً لسيدها ، أو صاحبها ، حتى يعتقها لوجه الله ، فهى حرة تفعل ما تشاء ، أو يبيعها لمن يمن عليها بالحرية.

ولأن العتق لم يكن سهلاً ، فإن الواحدة منهن ، كانت تحتال ، وتناور وتدور كثيراً ، حتى يصبح أمرها بيدها هى ، وليس بيد غيرها.

ونعرف أن سبعاً من الجوارى ، قد احتلن على عمر بن أبى ربيعة ، حتى فك أسرهن، ولم يدرك حجم ورطته إلا فيما بعد.

فقد نوى أن يطلق الشعر ثلاثاً ، وأن يتوب إلى الله ، من شعره الفاحش الفاضح ، وأقسم إن عاد للشعر مرة أخرى ، أن يعتق فى سبيل كل بيت يقوله أو يضطر إليه امرأة من جواريه.

وكان هو لا يطيق أن يرى امرأة حسناء ، ثم لا ينطلق لسانه بالغزل غير العفيف، فلما وقعت عيناه - بتدبير من الجوارى السبع - على حسناء، قال فيها سبعة أبيات ، وعتق فى مقابلها الجوارى المقيدة.

فكل امرأة ،منهن ، تساوى بالضبط ، بيتاً من الشعر !

ولكن يبدو أنها لم تكن المرة الأولى ، ولا الأخيرة ، فقد قرأنا عن امرأة أخرى ، بيعت فى سوق النساء ، بشارب رجل ، ولحيته معاً.

الرجل عاش فى قرطبة بالأندلس ، وكان صاحب شارب يقف عليه الصقر حقاً ، وله لحية تكاد تغطى صدره.

ويبدو أيضاً ، أنه كان يعتنى بشاربه ولحيته ، ويسويهما ، ويعتبرهما إرثا لا يجوز التفريط فيه.

اسمه سعيد بن منذر ، ولا أجد شيئاً ينطبق على حالته ، إلا ذلك البيت الشهير لأبى الطيب المتنبى : أغاية الدين أن تحفوا شواربكم ، يا أمة ضحكت من جهلها الأمم ؟!

فقد انشغل طويلاً ـ ابن منذر ـ بشاربه ولحيته ، وجعل منهما قضية حياته !!

ولكن الله رزقه بجارية من جواريه ، هام بها قلبه ، وتعلق بها إلى الحد الذى أراد أن يتزوجها على سنة الله ورسوله.

وأرادت أن تختبره أولاً ، وأن ترى إن كان رجلاً يعرف المبادئ ويقيم على أرائه ويدافع عنها ، أم أنه مستعد للتنازل وقت الضرورة ، حتى ولو كان الذى سيتنازل عنه هو شاربه ، فيحلقه !

أبدت الجارية موافقتها على الزواج ، بشرط أن يحف شاربه قليلاً ، أو يحلقه إن أمكن، لأن صورته هكذا كانت بشعة.

وكانت وهى تدفع به إلى هذا الفخ ، تعرف قيمة ومعنى أن يربى الرجل شاربه ، ثم يحلقه ، وأن ذلك يؤخذ عليه ، ولا يحسب له فى كل الأحوال.

ولا يزال بعض الرجال ، حتى اليوم ، إذا أرادوا أن يقسموا ويظهروا صدقهم فيما يقولون ، يهتف الواحد منهم : أحلق شاربى إذا لم أفعل كذا، أو إذا حدث كيت !!

والمسكين فى غمرة العشق والهيام ، لم ينتبه إلى شئ ، فأسرع يزيل الشارب من الأساس ، ويجعل منظره مسخة بين رفاقه.

وحين جاءها بشكله الجديد ، رأت أنه من الأصلح ، أن يعلن عتقها أمام جمع من الأصحاب ، ففعل ثم أبت هى أن تتزوجه ، فقد صارت حرة ، لها أن تقبل وترفض ، حتى ولو كان الذى يطلبها ، هو سيدها بالأمس.

والأنكى من ذلك ، أنها تزوجت رجلاً فى نفس الوقت ، وفى ذات المجلس وقبل أن ينفض.

ولابد أنها قالت فى نفسها ، أن الذى تنازل عن شاربه بهذه السهولة ، يمكن أن يتنازل عن أشياء أخرى كثيرة ،وأن يمتد التنازل ليشمل ما هو أخطر.

صحيح أنه تعلم بعدها ، أن يثبت على مبادئه ، وألا يطمئن إلى امرأة .. ولكن بعد ماذا ؟! فالمبادئ لا تتجزأ ، ومن فرط فيها مرة .. هانت عليه مرات!!

طبعاً .. ممكن !

خادم محتال - على رأى شاعرنا الكبير - وسيد عظيم .. هل يمكن أن تقوم بينهما صحبة ؟

سوف تجيب بملء فمك : مستحيل !

ولأنه مستحيل أن تنشأ تلك الصحبة ، فقد استنكف السيد العظيم أن يدوس له الخادم على طرف له ، فضلاً عن أن تكون هناك صحبة أو رفقة فى الأساس !

ولكن عمر بن الخطاب ، فى موضوع جبلة بن الأيهم (ملك غسان) والخادم الذى داس على طرف - عن غير قصد .. أثبت - أى عمر - أن الصحبة ينبغى أن تقوم ،وأن يقيمها هو، رغم أنف السيد ، أمام القضاء!

كان جبلة بن الأيهم : كما نعرف ، ملكاً من ملوك غسان ، ولم يكن فقط يستنكف أو يستكبر أن يرافقه خادم ، وإنما يراها من علامات القيامة ، أن يمر ذلك الخادم من أمام قصره!

لذلك ، حين أعلن إسلامه ، فإنه فعل ذلك وهو مدرك أنه فى الإسلام ، سوف يكون أعز منه فى الجاهلية ، وأنه لا يمكن أن ينال أحد من كرامته ، أو يزاحمه فيما ورثه عن آبائه من ملك عريض.

وفى الكعبة ، وهو يطوف ، لم يحتمل أن يطأ خادم بسيط فوق طرف ردائه ، فسدد إليه قبضة من يده ، هشمت وجهه !

ويبدو أنه فعل ذلك ، ليس لأن الخادم قد داس على ثوبه ، وإنما لأنه، أى جبلة ، قد استعظم أن يطوف مع أمثال الخادم فى مكان واحد، وأن لا يقوم بينهما سور يشير لكل ذى عينين ، إلى أن هذا سيد ، وذلك خادم ، وأنه لا يجوز أن يختلط الأمر بين الطرفين.

ولقد ذهب المظلوم ، يشكو إلى عمر ابن الخطاب ، الذى أحضر جبلة - كما أحضر من قبله عمرو بن العاص وابنه من مصر - وطلب إليه أن يفسر له ما فعله مع رجل بسيط فى ضيافة الله بكعبته !

واستغرب جبلة - أن يسأله عمر عن شئ ، لم يلتفت هو أصلاً إليه ، وقال كلاماً كثيراً ، أهمه وأخطره أن على الخادم أن يحمد الله كثيراً ، على أننى لم أقتله ، واكتفيت فقط بلطمه على خديه !

ووقف عمر يخير جبلة بين شيئين : إما أن يعتذر لصاحب الحق ، حتى يعفو عنه ، وإما أن يقتص له عمر بنفسه ، فتلك حقوق إنسان لا يليق أبداً أن تنتهك من جانب أحد ،أيا كان هذا الأحد.

وأجابه عمر ، بأن المسألة لو كانت فى الجاهلية ، لكان الشاكى وأهله جميعاً قد هلكوا، دون أن يسأل فيهم أو عنهم أحد .. أما وأن الله قد أعزنا بالإسلام ، وأعزك أنت أيضاً يا جبلة ، فإنه حين ينصف واحداً

من الخـدم أو البـسطاء فـهـو ، أى الإسـلام ، يرفـعك فى الوقت ذاته ، ويضمن لك حقوقاً بقدر بما يطالبك بواجبات.

ويقال أن جبلة قد صرح بأنه سوف يرتد عن الإسلام ، فأفهمه عمر بأن فى ذلك مقتله، شأنه شأن أى مرتد !

وكان موقفاً ، خرج منه ملك غسان ، وهو موقن بأن الإنسان فى الإسلام - الإسلام فى حقيقته - إنسان بكل ما تعنيه هذه الكلمة.

فإذا طوينا من الزمان ١٤ قرناً فما معنى هذا الهوان ، أو المهانة التى نراها علامة على كل وجه ؟

للذئب علينا حق عرب !

للذئب علينا حق عرب ، يجب أ، نرده إليه على أساس أن الاعتراف بالحق ، أو الرجوع إليه فضيلة.

كنا زمان نحسد الذئب من بين الحيوانات جميعاً ، على أنه هو الوحيد الذى تنبه للفخ الذى نصبه الأسد.

أن الأسد قد رقد مريضاً وكان على الحيوانات كلها ، أن تبادر بالزيارة وعيادة المريض لإثبات حسن النية فالمريض ليس مريضاً عادياً ، وسوف يكون للمتخلفين بعد الشفاء إن شاء الله .. حساب عسير.

ولقد أتضح فيما بعد أن المسألة كلها كانت خدعة كبيرة وأن كل الحيوانات التى انطلت عليها الخدعة ، ذهبت للزيارة ولم يقع أحد لها بعد الزيارة على أثر !

والذئب حين أسرع يؤدى فروض الطاعة ويقوم بواجب اجتماعى مفروض لا ينبغى عليه أن يفوته لاحظ أن كل الأقدام متجهة للأمام فقط وأن قدما واحدة لا تتجه إلى الخلف !!

ما معنى ذلك ؟

معناه أن الذى يدخل لا يعود وأنه يستقر فى أى مكان آخر بما فى ذلك بطن الأسد .. لا أن يرى الدنيا مرة أخرى.

وكان تخمين الذئب صحيحاً حين عاد وسأل وانتظر لتثبت الأيام صدق ظنه وأن الله قد ألهمه الحكمة وبينه وبين الموت أمتار !!

كنا هكذا نحسد الذئب على فطنته هذه وحكمته ونباهته !

ولكن .. تبين أن واحداً من العرب القدامى هو الحكم بن هشام استفاد جيداً من هذه الخدعة ، أو أنه هو الذى بدأ بها ثم وضعها البعض بعد ذلك ، على لسان الذئب والأسد وبقية الحيوانات ، وهم يشيرون إلى واقع لمسه كثيرون ممن عاشوه وسجله التاريخ !

أن هذا السيناريو الذى نتخيل أنه جرى يوماً بين الذئب والأسد وغيرهما قد وقع بالضبط على أرض أسبانيا نهاية القرن الثانى الهجرى وكان اسمها فى ذلك الوقت : الأندلس!

وكان البطل بدلاً من الأسد هو الحكم بن هشام حفيد عبد الرحمن الداخل أول من أحيا الدولة الأموية بالأندلس!

وكانت طليطلة إحدى مدن الأندلس هى بيت الأسد الذى دخله الخارجون على الحكم كلهم ، مدعوين على حفل عشاء فخرجوا منها إلى الآخرة مباشرة !!

ولا نعرف هل قرأ الحكم حكاية الأسد هذه أم لم يقرأها وهل الحيلة التي قضى بها على أكثر من خمسة آلاف ثائر ، وألقى بهم جميعاً في حفرة واحدة لتكون لهم قبراً جماعياً .. هل هذه الحيلة كانت من وحي خياله وبنات أفكاره كما نقول أم ماذا ؟!

والشئ الذى يلفت النظر ويثير الحزن فى وقت واحد أن كل الداخلين إلىقلعة طليطلة لم يكن بينهم ذئب واحد ينجو بنفسه وينقذ الآخرين !

وكان ابن هشام على درجة من الحيلة والذكاء لم تتوفر للأسد بحيث تمكن من إخفاء ما يجرى داخل قلعة طليطلة عن عيون الساعين إليها!!

ولولا الغدر الذى انطوت عليه الخدعة لكان الواحد يفتخر بأن فى تاريخنا رجلاً اسمه الحكم بن هشام !

أليس من حق الذئب عندئذ أن نبوس رأسه ونقول له : لك علينا حق عرب ؟!

محاسن موتانا

عفا الله عما سلف ، وما كان قد كان .. وانتهى الأمر!

هكذا أراد الرجل أن يقـول ، قـبل أن يغـادر الدنيـا ، ربما ذكـره القادمون بشئ جميل، على اعتبار أنه من الأفضل أنه نذكر محاسن موتانا.

ولو كل واحد منا ، فعل ما فعله شاعرنا الكبير ، لكان الحال غير الحال : حالنا جميعاً.

وشاعرنا واحد من ذوى القامات الكبيرة الذى انفعل يوماً بقدوم الربيع ، فقال فيه بيتاً واحداً ، لم يستطع أحد بعده ، ولا استطاع قبله ، أن يقول شيئاً يوازيه ، أو حتى يقترب منه أو يشبهه.

وحين يقال مثل هذا الكلام ، لابد أن يقفز إلى الذهن ، اسمه على الفور : البحترى..هكذا اشتهر ، وأن كان له اسم آخر من الصعب أن تحتفظ به ذاكرة.

وبجوار اسمه يقف بيته فى الربيع شامخاً مزهواً.

أتاك الربيع الطلق يختال ضاحكاً.

من الحسن حتى كاد أن يتكلما !

أرأيت الربيع طلقاً ، يختال من الحسن ويضحك ، ويكاد أن ينطق ويتكلم؟!

سبحان الله !

وفى هذه الاتجاه ، اتجاه وصف الجمال فى الدنيا ، وتوجيه أعين الناس إليه ، كان مذهب البحترى فى الشعر والحياة.

ولذلك تجد متعة لاحد لها ، حين تطالع آثاره التى تركها ، ومنها على سبيل المثال ، ما وقف ينشده يوماً ، فى البركة التى كانت تتوسط قصر الخليفة المتوكل .. فكأنك تقف معه على شاطئها .. أو كأنك تسبح فى مائها مع الحسناوات ، بينما – على رأى أمير الشعراء– يخفين فى الماء بضا سابحات به ، ويبدين بضا.

والبض هو الذراع والكتف !

ولكن .. بخلاف ذلك ، كانت له أشعار أخرى وجد أنه من الصعب أن يموت ويتركها حية ، فلابد أن يميتها معه !!

لقد تورط الرجل ، بحكم طبيعة العصر والأيام التى عاشها – مات ٢٨٤ من الهجرة– فى مناوشات ومعارك وسباب كثيرة ، وكان يرد على صاحب الصاع بصاعين ، وكان إذا ما صادف واحداً من اياهم لم يسكت وكال له بعنف!!

وتجمع له ، فى نهاية حياته ، قدر كبير من أشعار الهجاء ، أى الأشعار التى كلها شتائم وألفاظ لا تليق.

ورأى البحترى أن الذى وصف الربيع هكذا بالضحك والاختيال لا يصح له أن يترك شعراً كله معايرات بالاب والأم ، وكلمات مكشوفة جارحة ، وعبارات يخجل الإنسان من مجرد نطقها.

ونادى ابنه ، وطلب منه أن يجمع كل تلك الأشعار ، أشعار الهجاء والسب والقذف ، ثم أحرقها عن آخرها !

وأندهش ابنه من الفعل .. وأفهمه أبوه أنها أشعار قالها فى ساعة غيظ ، أو فى مناسبات كان لابد أن يتولى الرد فيها ، وتلك مناسبات وظروف قد انقضت ومن الجائز أن تجد هذه الأشعار سبيلها إلى الانتشار والذيوع ، أكثر مما تجد الأخرى الجميلة.

لقد خاف شاعرنا ، أن يهيئ الله لفلتات لسانه تلك ، واحداً حسوداً أو حقوداً ، فيمضى بها بين الناس ينقلها ويتناقلها ، وتشيع بين الأجيال التالية ، بل وتغطى على جانبه الجميل فى الربيع وبركة المتوكل وغير ذلك ، فأخذها من قصيرها ، وأراد أن يقطع الشك باليقين ، فلم يدع كلمة واحدة مما قالها فى ساعات انفلات أعصاب ، إلا وأحرقها تماماً.

ومن الشعراء ، إثنان ، كل ما تركاه من أشعار ، لا يخرج عن تلك النوعية التى استحى منها البحترى فأخفاها وخنقها عند موته .. هما الفرزدق وجرير.

ولقد خشى الرجل أن تذهب سيئاته بحسناته ، وحرص على ألا يترك وراءه إلا كل ما يشعر أنه سوف يحسن إليه ويحيى ذكراه ، فحذف نصف أو ثلثي كلامه تقريباً !

ولو أخذونا اليوم ، بما أخذ به البحترى نفسه ، فما الذى يتبقى لنا ؟!

هل يبقى شئ له قيمة ؟!

أدي واجبه.. وأعتذر!

سبعة رجال فى تاريخ العرب ، لا ثامن لهم ، يقفون بعضم إلى جوار بعض ، متفردين بما لم يسبقهم ، ولا أدركهم فيه أحد .. وهم أصحاب المعلقات السبع .. أطول وأجود سبع قصائد شعرية فى جاهلية العرب.

ومن الصعب أن ينتظمهم حديث واحد ، بدءاً بفارسهم امرئ القيس، وانتهاء بسيدهم ، وسيد قومه عمرو بن كلثوم.

ويقف بينهم كأنه واسطة العقد : لبيد .. فقط هكذا اسم مفرد ، لا ثنائى ولا ثلاثى ويكفى أن تقول : لبيد ، فلا ينصرف الذهن إلا إليه !

واخوانه الستة ، انشغلوا فى وصف معاركهم ومعارك عائلاتهم وأسرهم ومغامراتهم.. إلى آخره .. إلا لبيد الذى لم يتجاوز نفسه وناقته ونوار.

أما نوار فهى فتاته التى لم يكتب الله له فيها نصيباً ، وزفها أهلها إلى غيره فقنع هو بما جرت به الأقدار بل وقال فيها بعض أبيات من الشعر ، فجعلها خالدة فى ديوان العرب إلى اليوم ، وعلى امتداد ما يزيد على ١٤ قرناً من الزمان ، رغم أن أحداً لا يحفظ اسم زوجها الذى خطفها من لبيد ، ولا نعرف كيف عاش أو مات.

وكان يؤمن بحكمة صائبة ، موجزها أنه لا داعى للندم على شئ ، وأن ما فات قد فات فعلاً ، وأن ما حدث لم يكن إلا ليحدث مهما فعلت أنت أو غيرك ، وما يجرى سوف يجرى أيضاً رغم أنفك - إذا لم ترض وتتقبل طواعية - وأنه من الأفضل لك على طول الخط أن تهدأ بألا وأن تقر عيناً.

وليست حكمته هذه ، من قبيل اللامبالاة ، أو السلبية ، أو عدم الإهتمام بما تمضى به الحياة ، وإنما هو نوع من الواقعية ، إذا تأملته قليلاً - وهذا مطلوب - وجدته صحيحاً إلى حد بعيد.

لهذا السبب وحده .. عرف نوار وأحبها بإخلاص ، ثم قضت الأيام بأن تبعد عنه ، وأن تنقطع بينهما الأسباب - فلم يفعل ما فعله - مثلاً - مجنون ليلى العامرية ، وإنما أدركه حزن عميق ، حاول أن يداريه ويعالجه بما كتب عنها ، وعما كان معه ومعها.

ولما اقترب يومه ، كان من رأيه أنه لا داعى لأن يحزن عليه أحد ، بدءاً ببنتيه ، ومروراً ببقية أهله الأقرب فالأقرب.

ولكن دموع البنتين لم تنقطع ، ولم تجد إلى نسيانه سبيلاً ، وأتصل حزنهما حتى كادت كل واحدة أن تقترن - بالحزن - بنائحة العرب الأولى والأخيرة : تماضر بنت عمرو، التى نعرفها جميعاً باسم الخنساء.

وجاء صديق لأبيهما ، ينصح بأن يكون الحزن عاماً كاملاً فقط ، ثم يتوقف ، فالذى يحزن - فى رأيه - على موتاه عاماً مكتملاً - فقد أدى واجبه .. واعتذر !

والأموات هكذا درجات .. واحد يبكيه أهله - كما فى الريف - حتى الاربعين وآخر يبكونه حتى ذكراه الأولى ، كما هو الحال مع لبيد ، وثالث يبكونه دهراً أو عمراً كما بكت الخنساء آخاها صخراً !

ورابع يكتفى أهله باكرامه ، أن كان قد بلغ من العمر أرذله - وإكرام الميت دفنه - ويجدون فى ذلك عزاء كافياً ، ويفضونها سيرة !!

تروح .. وتجئ !

أصابت امرأة .. وأخطأ عمر !

عبارة لا توزن بغير الذهب ، وسط هذا الركام والسخام الذى يلوث آذاننا كل يوم، بل وكل ساعة.

وهى عبارة ، كما نعرف ، كان لها طرفان ، الأول عمر بن الخطاب، والثانى امرأة من عامة الناس ... نقول من عامة الناس مرة أخرى . حين قامت ترد عليه كلاماً قاله ، فأكتشف بعد مراجعتها له أنه أخطأ فعلاً ، وان المرأة على حق. ولم يخجل عمر وهو يومها أمير للمؤمنين ، من أن يعترف على الملأ ، بأنه أخطأ ، وأن المرأة أصابت وعندها كل الحق.

كانوا رجالاً

ويشاء الله أن تمضى الأيام ، لنسمع بعد ذلك عن موقف مشابه ، وأن كان على نحو آخر ومخالف لما جرى بين عمر والمرأة التى هى من عامة الناس!

الموقف الثانى ، فيما يقال ، كان له طرفان أيضاً . رجل وامرأة . أما المرأة فهى رابعة العدوية . وأما الرجل فهو الحسن البصرى.

ولقد عاشت رابعة زماناً طويلاً ، تضرب فى الدنيا على غير هدى ، حتى كتب الله لها أن تعاين الحقيقة بعينيها ، وأن تذوق ،ـ كما قال الإمام على ـ لتعرف ، فلما عرفت اعتزلت الناس جميعا ، وراحت تعيش فى الجبال ، أو تقضى أغلب أوقاتها هناك ، بين الحيوانات التى كانت تأنس إليها.

وكانت رابعة تصعد الجبل ، وتمكث هناك بعضاً من الوقت ، ثم تعود إلى دنيا الناس، وترى وتعايش ، وتعقد المقارنات ، ثم تضرب كفاً بأخرى ، وتنعقد الدهشة منها على الجبين.

ويبدو أنك ترتقى فى مدارج الإنسانية بقدر اعترافك بحقوق الآخرين فى العيش الكريم ، وأقرارك بحقهم فى الأمن والسلام ، والعكس صحيح على طول الخط.

وعند رابعة ، لم يكن الآخرون هم بنو آدم فقط ، وأنما لأنها كانت من الواصلين كما يقول الصوفيون ، فإن المساحة عندها تمتد وتتسع لتشمل الإنسان والحيوان معاً.

ولذلك لم يكن غريباً ، أن تجتمع حولها الحيوانات والطيور ، وتزحف نحوها الذئاب والسباع ، فتروح وتجئ بين يديها - وكأنها - أى رابعة - راعية غنم ترعى شياهها !

وتستطيع أن تلحظ شيئاً من ذلك ، بنفسك فى الريف ، حيث بعض الأشياء لا تزال على بكارتها ، هناك يمكن لبضع الناس الطيبين من أحفاد رابعة والحسن وغيرها ، أن يستأنسوا حيواناً مفترساً ، أو يكبحوا جماح حيوان آخر هائج . كل ذلك يجرى هناك أحياناً ، عبر لغة لها شفرات متبادلة بين الطرفين : الحيوان من جانب ، والإنسان الذى يستشعر فيه الحيوان الأمن من جانب آخر.

ولقد كانت دهشة رابعة ، كبيرة ، حين صعد إليها يوماً ، الحسن - وهو من هو - ففرت من حولها الحيوانات جميعها ، وفزعت كأنما رأت عفريتاً!

فعلت ذلك عندما أبصرت الحسن ، فما بالها لو رأت واحداً آخر ، فضلاً عن أن يكون رجلاً من أبناء زماننا هذا ، الذين شاهت منهم الوجوه .

ولقد سألت رابعة الحسن ، وعرفت أنه أكل طعاماً مطهيا بالزيت ، فكان تفسيرها عجيباً ، وهو كيف يا سيدى تأكل طعامك مطهيا بدهنها، ثم تنتظر أن تأمن لك .. كيف ؟

وكان من رأيها - طيب الله ثراها - أن للحيوان حقوقاً ينبغى أن نرعاها وألا نجور عليها أبداً !!

للحيوان يا رابعة .. إذن فتعالى اليوم ، وسوف تبصرين ، كيف الإنسان - لا الحيوان - يصبح مهاناً ، ويمسى أكثر هواناً !!

مالك أنت أيها القاضي ؟

أبو البنات ، فى أيامنا هذه ، عليه أن يعود إلى التاريخ ، ليقرأ جيداً ، ثم يحاول ما استطاع إلى ذلك سبيلاً ، ألا يكرر ما كان من والد ليلى تجاه ابنته الوحيدة .

وإذا كانت ليلى وحيدة أبيها، فما بال الأباء الذين يعولون بنتين وثلاثاً وأربع ؟!

وليس هذا الكلام ، اسرافاً فى الحديث على ليلى وأبيها وفتاها معاً ، ولا هو إعادة أو تكرار لأشياء عرفناها ، لأنك حين تقرأ ديوان العرب القديم ، تقع كل يوم على مداخل ومناطق بكر جديدة ، لم يتطرق إليها أحد من قبل ، وتصلح فى ذات الوقت ، لأن تكون مصباحاً يضئ الطريق للذين لا يعرفون حقيقة ما جرى !

وكما عرفنا من قبل ، فإن ليلى كانت راضية به ، وقيس كان راضياً ومسروراً بها ، وليست هناك مشكلة تقريباً ، اللهم إلا والدها الذى وقف

عقبة كادت تتسبب فى بوار ابنته ، مع أنها من جميلات وحسناوات العرب !

وليس أصعب على قلب أيه بنت ، من كلمة واحدة ، تبقى سكيناً تدور حول رقبة كل فتاة ، حتى يزول عنها شبح عدم الزواج . هذه الكلمة هى : عانس !

وتاريخ ليلى ، وأسرتها ، وواقع حالها ، يؤكد أن العانس ليس من الضرورى أن تكون فقيرة ، أو عاطلة من الجمال ، أو بها عاهة تصرف عنها العرسان . قد لا يكون فيها شئ من ذلك أبداً ، ثم تبقى سنوات طويلة ، المهم هى ارتضت ، وهو اقتنع .. فما بالك أنت يا قاضى على رأى المثل . والقاضى هنا هو أبوها ، الذى استحق أن يدعو عليه العريس، بكل ما أوتى من قوة وعزم ، وأن يكنس عليه ـ لو استطاع ـ أضرحة أولياء الله ، عسى الله أن ينتقم منه جزاء ما فرق بين قلبين كان لهما أن يجتمعا ، فلا يفرق بينهما إلا الموت.

ومبررات السيد الوالد ، وحججه كلها واهية ، وقد سقناها كلها من قبل ، وتولى الزمان تفنيدها واحدة بعد الآخر ، حتى تبين أن الرجل مخطئ من رأسه لقدميه ، وأن أى والد يسلك سبيله بعده ، سوف يقود ابنته دون أن يدرى إلى ذات المصير !

ولأن اليد قصيرة ، والعين بصيرة ، فإن الفتى لم يملك إلا أن يرفع يديه القصيرتين إلى السماء ، ويدعو ، ويطلب القضاء العادل ، بل والقصاص.

ومن الصعب أن يدعو عريس على حماه بهذه القسوة ، ولكن ما حيلته وقد سدت أمامه كل الأبواب ، ولم يبق إلا باب واحد ، هو باب السماء ، تماماً كشبان هذه الأيام . لم يبق أمامهم غير باب السماء مفتوحاً.

ألا أيها الشيخ الذى ما بنا يرضى.

شقيت ولا هنيت ....

شقيت كما اشقيتنى وتركتنى.

أهيم مع الهلاك................

إلى آخره ، وهناك دعوات أخرى ، كاد الفتى أن يدعو الله أن يأخذه أخذ عزيز مقتدر - يأخذ حماه - لقاء ما أوقع به من هلاك كما يقول !

ويوم واجه قيس ، الرفض القاطع من المجتمع كله ، متمثلاً فى هذا الشيخ ، فإنه ، أى العريس ، قد اتجه إلى الجبال يلاطفها ويداعبها ، ويجد فيها عزاء.

وشبابنا ، يواجهون ذات الموقف ، ولكن ليس فى الزواج فقط ، وأنما عند كل باب يطرقونه ، فيتجهون هم الآخرون ، نحو الجبال ، لا ليداعبوا الحيوانات وأنما ليصنعوا شيئاً آخر كما نرى.

وماذا نتوقع من شاب ، لا يجد عملاً يشغله ، ولا بيتاً يؤويه ، ولا زوجة يسكن إليها؟!

ماذا نتوقع ؟

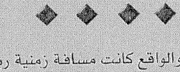
الفهرس

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم الإيداع بدار الكتب ١١٨٦٢ / ٢٠٠١

I. S. B. N 977 - 01 - 7367 - 3



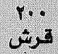


بين الحلم والواقع كانت مسافة زمنية ربما بدت لى طويلة أو مختلفة ولكن الأهم أن الحلم أصبح واقعًا ملموسًا حيًا يتأثر ويؤثر. وهكذا كانت مكتبة الأسرة تجربة مصرية صميمة بالجهد والمتابعة والتطوير، خرجت عن حدود المحلية وأصبحت باعتراف منظمة اليونسكو تجربة مصرية متفردة تستحق أن تنتشر فى كل دول العالم النامى وأسعدنى انتشار التجربة ومحاولة تعميمها فى دول أخرى. كما أسعدنى كل السعادة احتضان الأسرة المصرية واحتفائها وانتظارها وتلهفها على إصدارات مكتبة الأسرة طوال الأعوام السابقة.

ولقد أصبح هذا المشروع كيانًا ثقافيًا له مضمونه وشكله وهدفه النبيل. ورغم اهتماماتى الوطنية المتنوعة في مجالات كثيرة أخرى إلا أننى أعتبر مهرجان القراءة للجميع ومكتبة الأسرة هى الإبن البكر، ونجاح هذا المشروع كان سببًا قويًا لمزيد من المشروعات الأخرى.

ومازالت قافلة التنوير تواصل إشعاعها بالمعرفة الإنسانية، تعيد الروح للكتاب مصدرًا أساسيًا وخالدًا للثقافة. وتوالى «مكتبة الأسرة» إصداراتها للعام الثامن علي التوالى، تضيف دائمًا من جواهر الإبداع الفكرى والعلمى والأدبى وتترسخ على مدى الأيام والسنوات زادًا ثقافيًا لأهلى وعشيرتى ومواطنى أهل مصر المحروسة مصر الحضارة والثقافة والتاريخ.

سوزان مبارك



٢٠٠ قرش

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

